

وزیر اعظم ہند

احمد شوقی
امیر الشعراء

دراستہ و تفصیل

ڈاکٹر رفیع
کیوت

احمد سُوفي
(أمير الشعراء)

فوزي عكطوي

أحمد شوقي
رئيس
أمير الشعراء



shiabooks.net
رابطہ بديل < mktba.net

دراسة ونصوص

والرعب
بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٧٨

مقدمة

احتفلت هيئة اليونسكو، في العام الفائت (١٩٦٨) بذكرى مرور مئة عام على ولادة أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي ؛ وقد حرصت الهيئة على أن يكون الاحتفال عالمياً ، عن طريق تدبير المقالات ، وتصنيف المؤلفات في أكثر من لغة حية ، وذلك اعترافاً منها بالمكانة السامية التي تمكن شوقي من احتلالها ، لا على صعيد الفكر العربي ، وإنما على صعيد الفكر الإنساني العالمي ، بوجه عام .

ولا ريب في أن احتفالات كهذه هي بمثابة مواسم مباركة ، تملو فيها صيحات الفكر ، ونداءات العقل ، من خلال الهتافات المبسوخة الجوفاء التي تتعالى هنا وهناك ، في جنبات العالم المحموم ، المحتدم بألوان الخصومات العقائدية ، والعداوات السياسية ؛ فمهما اجتاحت تيارات العصر المادية ، قيم الإنسان ، ومثله العليا ، فإنها تبقى أعجز من أن تقضي على طبيعة الأشياء ، وأضعف من أن تحول الإنسان العاقل المفكر الذي خلقه الله على صورته ومثاله ، إلى آلة عمياء صماء ، تُدار ولا تُدير ، توجه ولا توجه . ذلك أن الإنسان المعاصر وإن أغضى عن بعض المقاييس والمفاهيم التي تشوه الحضارة الإنسانية الأصيلة ، ومهما اضطّر للرضوخ والخضوع ، قهراً وغصباً ، فإنه لا يملك إلا الرفض التلقائي لكل ما يندس فكره ، ويدوس مقدساته ، ويعبث بمصيره كإنسان بديع مبدع ، له في مجالات الدنيا الرحاب أكثر من أدوار تنتدبه لها إنسانيته السامية السنية !

ولم يكن شوقي ، في واقع الحال ، بحاجة إلى ذكرى أو احتفال ، حتى تكون للناس رُجعى إلى عطائه الرائع الذي أوصله إلى مقام ، من الشعر ، لا يُدانى ، لأن للشاعر الفدّ من أبياته الخوالد ، وقوافيه الغواني ، ما يجعل أبيات شعره تتردد ، جيلا بعد جيل ، فوق كل شفة ولسان . وعليه ، يكون إحياء الذكرى المثوية ، لشاعر ضمن شعره خلود نفسه وذكره ، لونا من التكريم للفكر في مفكر كشوقي ، وللإنسانية في إنسان مثله وقف عمره ليغني آلام الناس وآمالهم ، مبتدئاً بمواطنيه في وطنه الصغير مصر ، منتهياً بأبناء البشرية جميعاً ، في كل صقع من أصقاع العالم .

ولقد تكاثرت المؤلفات والمقالات التي وضعت حول أدب شوقي ، شعراً ونثراً ، حتى بتنا نعتقد أنّ أصحابها الأفاضل لم يتركوا زيادة لمستزيد . فإذا كان مثل هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لما تتضمنه المؤلفات الموضوعية عن شوقي ، بوجه عام ، فإن أيّ مؤلف منها لم يكن ليستكمل جميع الجوانب المتعلقة بأمر الشعراء ، إنساناً ومفكراً ؛ ثم لو أنّ بعضها استطاع أن يلمّ بمختلف هذه الجوانب ، فقد بقي قاصراً عن أن يعرف القارئ العربي والعالمي بإنتاج شوقي ، شعره ونثره ، ما خلا بعضاً من أبياته أو كلماته التي يذكرها المؤلفون عرضاً ، في معرض بحثهم ، وذلك استسهالاً برأي ، أو تدليلاً على موقف ، أو تذكرياً بحادثة تكون موضوعاً لحديثهم .

ولما كنّا نقف ، قبل الآن ، حيارى أمام تزاخم الأحداث ، وتقلب الأفكار التي يشهدها عصرنا ، بحيث لا يتسع وقت أحدنا لتتبّع ما كتبه مفكر معين أو ما كتّيب عنه ، كشفاً لمواطن النقص ، أو لمكامن العبقرية في شخصه وأدبه ، فقد أحسنّ لدينا أن نقوم بمحاولة متواضعة تُضاف إلى محاولات كتاب العربية وأدبائها ، عن طريق البحث الأدبي الكلاسيكي الذي يوفّي شوقي بعض حقّه على الأدب المعاصر ، وعلى الشعراء منهم بوجه

خاص ، بعدما كان لشوقي ، في شاعريتهم ، أكثر من أثر ، وأكثر من صدى يرجع ضروباً من معانيه ، وألواناً من قوافيه .

وكان طبيعياً جداً ، في هذا المجال ، أن نعتمد الكتب التي أرّخت لحياة شوقي الشخصية ، والسياسية ، ولعلاقته بقصور أسرة محمد علي باشا ، في عهد الملكية بمصر ، فضلاً عما كتبه هو نفسه في هذا الصدد ، كما كان طبيعياً جداً أن ننقل إلى القارئ العربي صوراً عن المعارك الأدبية التي أثارها بعض معاصري شوقي ، في حياته ، وبعد مماته ، بين مؤيد له ، ومنكر عليه حتى مجرد الشاعرية الأصلية ، فكيف به ، شاعراً للأمر ، وأميراً للشعراء ؟

ولقد نكون أوجزنا في مكان ، واستطردنا في مكان آخر ، كما قد نكون اكتفينا بالقليل مما قاله الأدباء والشعراء في أحمد شوقي ، حيناً ، وحيناً آخر ، أطلنا إطالة تكاد تبلغ بالقارئ حدّ الإملال ، ولكنّ يقيننا بأن لكل حادث حديثاً ، وبأن لكل مقام مقالا ، هو الذي دفع بنا إلى تصنيف الكتاب على النحو الذي يُطالعُه القارئ الكريم ؛ وإن هي إلا حرية القلم ، وسماحة الفكر ، يُبدع هنا ، ويقتبس هناك ، ويستنتج هنالك ، حتى يجيء البحث وفق ما يراه كاتبه منطقاً على الواقع ، كما يراه ، ومنسجماً مع الحقيقة ، كما يؤمن بها .

وفي اعتقادنا أن ما كتبه أحمد شوقي لم يكن يوماً ملكاً لأحمد شوقي وحده ، لأن شاعراً من طرازه عاش أحداث عصره ، فجارها بأسرع مما تجارها الصحافة اليومية ، مع هذا الفارق القائم على كون المجهود الذي بذله شوقي لإبراز الحدث ، واستنتاج العبرة أضخم بكثير من المجهود العابر العادي الذي تبذله الصحافة اليومية في نقل الأنباء ، والتعليق عليها ، مع ما يكتنف الأخبار والتعليق من الأخطاء المميتة ، والركاكة المقيتة !

إذاً كان ذلك هو شأن إنتاج شوقي ، فإنّ من حقنا القول بأن ما نكتبه

نحن ، وما سبقنا إلى كتابته عنه ، وما قد يلحق بنا من كتاب إلى الكتابة في موضوع أمير الشعراء ، لا يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ملكاً للكتاب وحدهم ، وإنما هو ملك للشعوب التي تبقى وحدها المعنية بالإطلاع على ما يكتبه الشعراء والأدباء .

أما فصول الكتاب ، فقد قسمت وفق اجتهادنا الشخصي ، وهو اجتهاد يلزمنا وحدنا ، ونرجو أن نكون قد وفّقنا إلى جعل البحث ، على أساسه ، مستساغاً لدى القراء ، قريباً من أذهانهم وأفهامهم .

وقد أتبعنا هذه الفصول بمختارات من أدب شوقي ، نثراً وشعراً ؛ ولا نجدنا في حاجة إلى بيان مدى تفوق شوقي الشاعر على شوقي النثر ، كما نرانا في غنى عن تبرير الأسباب التي جعلتنا نطيلُ قسم المختارات الشوقية عما هي عليه دراستنا الأدبية التاريخية التحليلية المتواضعة ، ذلك أن ما يكتبه أحدنا ، إذا قورن بما كتبه شوقي ، يبقى نثراً من يم هادر ، وغيضاً من فيض نائر ، وقطراً من بحرٍ زاخر .

فإذا حالقنا النجاح ، فذلك نعم المرجى ، وإذا جانبنا الكمال ، فعذرنا أن الكمال للباريء وحده ، وهو ولي التوفيق ، وعليه الانكال .

بيروت في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٦٩

فوزي خليل عطوي

مباة شوقي

في حي من أحياء القاهرة ، يُقال له « الحنفي » ، ولد أحمد بن علي بن أحمد حلیم النجده لي شوقي ؛ فحمل الطفل اسم جدّه ، وهو الاسم الذي سيصبح فيما بعد ملء السمع والبصر ، في أقطار العروبة ، كما حمل في عروقه مزيجاً طريفاً من دماء عربية ، تركية ، يونانية ، كردية ، شركسية ، نظراً للروابط التي جمعت بين جدّتيه وجدّيه ، وأبيه وأمه ، وكل منهم ينتمي إلى شعب من الشعوب ، حتى ليُمكن بشوقي وحده ، أن نسفّه كل دعاوة ترمي إلى تأكيد صفاء دم أي عنصر من عناصر البشرية ، في أي صقع من أصقاع العالم :

وإذا كان من المتفق عليه ، في علمي الاجتماع والأخلاق ، أن الوراثة ذات أثر كبير في تكوين النفسية الإنسانية ، وفي اختلاف مدى العبقريات ، فقد اتفق العلماء أيضاً على أن النفسية الانسانية تصبح أكثر تقبلاً للتطور والتجديد ، وأن العبقرية تغدو أكثر قابلية للتفجر والإبداع ، كلما تمازجت دماء العناصر المتباعدة ، وتفاعلت فيما بينها .

فلم يكن من المستغرب في شيء ، والحال هذه ، أن تنعكس آثار قابلية التجدد والتطور في نفسية أحمد شوقي الذي اكتسب ذكاء في الطبع ، وفرطاً في الحياء ، ورجاحة في العقل ، وأصاله في الرأي ، حتى تنكب عن طريق الهجاء ، مكثراً من المديح ، كأنني بإيليا أبي ماضي ، الشاعر المهجري الكبير ، يردّ على خصوم شوقي ، إذ يقول :

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً
وإذن ، بحق قال عنه الأمير شكيب أرسلان :

« إنه ، وإن كان أسرف في المديح ، وفي مديح أمير بلاده خاصة ، فلم يلوّث شعره بالهجاء ، ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحداً . فعفة لسان شوقي ، وتنكبه طريقاً طالما سلكها شعراء كبار وصغار ومتوسطون ، دليل على زكاء طبعه ، وفرط حيائه ، وأيضاً على رجاحة عقله ، وأصالة رأيه » (١) .

كما لم يكن من المستغرب أيضاً أن تنفجر عبقرية شوقي ، ابن الدماء العريقة المتمازجة ، المتناهية إليه من شعوب عرفت بالإبداع ، والعطاء الفكري السامي ، وبالشعر والفلسفة ، ولا سيما العرب واليونان ؛ حتى لقد وفق محمد سعيد العريان إلى إبراز ذلك الدوي الهائل الذي تركته عبقرية شوقي المتفجرة في الأمة العربية خاصة ، وفي الشرق عامة ، حيث يقول :

« كان شوقي رحمه الله شاعراً ملء سمع الشرق ، ما يلفظ من قول لإلفاقته الآلاف عن الآلاف من أبناء الأمة العربية ، تُنشده وتتغنى به وتضربه مثلاً ؛ وما أحسب شاعراً في الأمة العربية منذ كانت وكان الشعر ، قد ذهب صيته في الناس حياً مذهب شوقي أو بلغ مبلغه ؛ وقد كان حقيقاً بمسابع ، لا من أنه شاعر العربية الأول ، ولا من أن الأمة العربية قد عقلت فلم تنجب مثله في تاريخها المتطاوّل ؛ ولكنه جاء على فترة انقطع فيها أمل الآمل في نهضة الشعر العربي بعد ما ناله من الانحطاط والركّة وضيق المذهب وسوء التناول . وكأنما كان البارودي من قبله لإرهاصاً له ودعوة إليه وتنبيهاً إلى فضله ومكانه .

وقد كان البارودي بما اجتمع له من أدوات الشعر ، وبما تهبأ له من أسبابه العامة والخاصة ، أول مَنْ بعث الحياة في هذا الجسد الهامد ، ونفخ فيه من قوّته

(١) راجع كتاب « شوقي أو صداقة » ، أربعين سنة « للأمير شكيب أرسلان ، وذلك في فصل بعنوان « عفة لسان شوقي وبعده عن الهجاء » .

وخلع عليه من شبابه ، فكان تصديراً بليغاً لهذا الفصل الجديد في تاريخ الشعر العربي ، فلما خلا مكانه تلفت الناس ينظرون على حذر وخشية يريدون أن يسمعوا نغماً صافياً كهذا الذي عودهم البارودي أن يسمعه من إنشاده وتطريبه ، وما منهم إلا من ظن أن الشعر بعده منتكس بعلته ، وأن الرجل الذي كان يمدّه بأسباب الحياة والقوة قد ذهب ، فلا سبيل إليه بعد ، ولا أمل . . . وفي هذه الفترة ظهر شوقي . . . (١) .

ولقد يطول البحث في موضوع « الوراثة » وتمازج « الأجناس » ، وتفاعل « الدماء » ، إلا أن الإشارة إلى ما ورثه شوقي هي من الكفاية بحيث تكون بمثابة مشعل على الطريق إلى عبقرية أحمد شوقي .

ثم إننا لو عدنا إلى الطبعة الأولى للجزء الأول من « الشوقيات » ، وقد أنجزت عام ١٨٩٨ ، لوجدنا أحمد شوقي ذاته ، في مقدمته لديوانه ، يثير أكثر من شأن شخصي حميم ، أو أدبي عام ، فلا ينسى أن يلمع إلى هذه الوراثة ، وكأنه لا يكتفي بسردها على سبيل العلم بالشيء فقط ، بل يسعى إلى لفهام القارئ أنه ، بانتسابه إلى عدة أصول ، وبثقل جدّه وأبيه في مناصب شتى ، إنما يحمل بذور التفوق ، ويتمتع بأسباب الأسبقية والأصالة .

نسب شوقي

ففي تلك المقدمة ، يقول شوقي :

« سمعت أبي رحمه الله ، يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول إن والده قدم إلى هذه الديار ، يافعاً ، يحمل وصاةً من أحمد باشا الجزائر إلى والي مصر محمد علي باشا ، وكان جدي ، وأنا حامل اسمه ولقبه ، يحسن كتابة العربية والتركية خطأ وإنشاء ، فأدخله الوالي في معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب

(١) راجع مقدمة الامتياز محمد سعيد العريان للجزء الرابع من « الشوقيات » الذي نشرت طبعته الأولى عام ١٩٤٣ ، بعد وفاة شوقي .

الولاية الفخام ، وهو يتقلّد المراتب العالية ، ويتقلّب في المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية ، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية ، بدّها أبي في سكرة الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم ، وعشت في ظله ، وأنا واحده ، أسمع بما كان من سعة رزقه ، ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة . . . » (١) .

وكبر الطفل ، عاماً بعد عام ؛ وكانت له جدة يونانية كثيرة الشغف به ، كما كانت في عهد ابراهيم باشا ، على صلة وثيقة بالقصر ، لا سيما وهي معتوقة من معتوقات ابراهيم باشا ، كان قد زوجها لأحمد شوقي ، الجدّ ، بعدما أعجبه ، وقرّبه منه .

وقد لبث علاقتها الوطيدة بالقصر ، عندما تولى الخديوي اسماعيل حكم مصر ، فأحبت أن يدرج حفيدها على مدارج الملوك ، وأن يكون مستواه في مستوى « العزيز » المصري ؛ ولترك أحمد شوقي يروي بنفسه ما جرى له ، وهو في الثالثة من عمره ، عندما ذهبت به جدته اليونانية ، هذه ، إلى القصر :

أول عهد شوقي بالقصر

حدثني (أي جدته) أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل ، وأنا في الثالثة من عمري ، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديوي بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقعت على الذهب ، اشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدّتي : « اصنعي معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . » قالت : « هذا دواء لا يخرج إلاّ من صيدليتك ، يا مولاي » . قال : « جيئي به إلي متى شئت ، إنني آخر

(١) راجع مقدمة أحمد شوقي للجزء الأول من ديوانه « الشوقيات » - الطبعة الأولى - ١٨٩٨ .

من ينثر الذهب في مصر » ! (١) .

أرأيت إلى فلسفة هذه اليونانية المعتوقة ، جدة شوقي ، التي لا نستبعد أن يكون ابنها ، في رأيها ، بحاجة إلى دواء « الغنى » الذي لا يخرج إلاً من « صيدلية » الخديوي . أوليس في عروق هذه الجدة اليونانية ما يستحق أن يستوقفنا ، أمام العبقريّة التليدة والطريفة ، في آن معاً ، التي تجلت في أحمد شوقي ، أمير الشعراء ؟ ! .

ثم هل رأيت هذا الجواب المتألم المقتضب الذي ردّ به اسماعيل على جدّة شوقي ، كأنما حدسه الشفاف صوّر له المصير الذي ينتظر ملكية التيجان ، والذهب ، في مصر ، على يد تحرّر الشعوب وإيمانها بالديمقراطية التي لا تعرف بالتيجان والعروش ؟ !

دراسته الأولى :

ولما أنس ذوو أحمد شوقي منه إمكانية إقباله على العلم ، ألحقوه بمكتب الشيخ صالح ، في القاهرة ، وهو عبارة عن مدرسة قرآنية لا تلمّ بشيء من طرائق التربية الحديثة ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى المدرسة الخديوية ، ولعلّها المدرسة المعروفة بالمبتديان ؛ وبعدها التحق بالتجهيزية ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، التحق بكلية الحقوق ؛ ويبدو أن الحقوق لم ترق له ، في مصر ؛ فلما أنشئ قسم الترجمة في الكلية ، وكان شوقي قد أنهى السنة الثانية من دراسته القانونية ، انقلب إلى قسم الترجمة ، وتخرج منه حاملاً شهادته النهائية .

ونترك لأحمد زكي أن يتحدث عن أحمد شوقي لدى دخوله عام ١٨٨٥ إلى مدرسة الحقوق فيصفه بقوله :

(١) المرجع السابق .

« كان في جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتي نحيف . هزيل ، ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة تقريباً . فتي بعيون متألقة تحديقاً . ولكنها متقلبة كثيراً ؛ فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متبادية ؛ وإذا تلفت صوب اليمين ، فما ذاك إلا لكي يرمي ببصره نحو الشمال ، وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادئ ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما تنتفس الصعداء ، لانهاء مواقيت الدراسة » . (١) .

ومما يروى عن الشيخ علي اللبثي أنه كان كلما رأى شوقي الزائع النظرات ، يذكر قول المتنبي :

« محاجر مسكٍ ركبّت فوق زئبق » .

هذه الانطوائية التي اتسم بها خلق أحمد شوقي ، هي انطوائية شاعرية تحمل الفتى الوسيم ، المتألق العيون ، على التغلغل في أعماق نفسه الإنسانية ، لاكتناه مشاعرها ، واستكشاف مبهماتنا ومعمياتها ، وليست انطوائية امرئ يتحسس في ذاته ، نقصاً ، أو يشعر بعقدة نفسية تبعده عن الآخرين ، حتى لا يكون في مخالطتهم انتقاص من مكانته في أعينهم .

ولإذن هي انطوائية إيجابية خلاقة ، يصرّ الشاعر على ولوج أبوابها ، والتسلل إلى دهاليزها ، ليطلع ، من بعد ، عبقرى العطاء ؛ وما هي انطوائية سلبية تواجه الحياة عن طريق الهرب من حقائق الحياة .

وهذا الانشغال باللاشيء عن كل شيء . . هذا التطلع الحالم إلى دنيا غير مرئية بالنسبة إلى العاديين من الرجال ، وواضحة الرؤية بالنسبة إلى الشاعر ، أي شاعر ، هو الذي رسم لشوقي صورة في أذهان عارفيه ، أو قارئ سيرته

(١) راجع كتاب « ذكرى الشاعرين . شاعر النيل وإمبر الشعراء » - صفحة ٣٢٦ - جمع أحمد هبيل - المكتبة العربية - دمشق .

وشعره ، حتى ليخيّل اليك أنه أبداً على صلة نجوى ، تجمعهم إلى ربّة الإلهام ،
فتتقد ما بينهما أرقّ المواعيد ، في غفلة من الناس . وما هم في الحقيقة ، عن
شاعرهم غافلون ؛ حتى إذا حسب أن ربّة الشعر تاهت من أمام ناظره ، راح
« يبحث عنها فيما حوله ، بصوّب نظره إليها يميناً ، فلا تلبث أن تزوغ منه
في الشمال ، فيرمي به وراءها ، فيجدها قد حلّقت في السماء ، فيرفع عينه
إليها ، فلا تلبث أن تغيب ، لتبدو له لا معة مشرقة بإزائه .

وكأنما كان ذلك يزيد في تألق بصره ، أو قل كأنما كان شوقي مشغولاً
عن رفقاءه ، وما هم فيه من لهو ولعب بحركات مضطربة مختلطة متشابكة ،
كانت تأتينا ربّة الشعر من حوله بأجنحتها حين تصطفق ، فتملأ أذنه برفيف
وضجيج ، ولا تترك له فسحة ، كي يلمّ شتات نفسه ، ويندمج في صحبه ،
إذ كانت تأخذ عليه كل طريق .

واستجاب شوقي ، فانهزل عن أخذانه ، ومكث ينتظر ما توحى به
إليه ، وما تودعه أذنه وعينه ، من همسات وحركات ، ورؤى حاملة . وكان
النوع أثناء ذلك يفيض ، والنور يسيل ، فإذا الشيخ محمد اليبسوني البيباني ، أستاذه
في اللغة العربية ، وكان شاعراً فصيحاً ، تبهره شاعريته ، يجلس منه مجلس
التلميذ من أستاذه . وكان هذا الشيخ يدبّج القصائد الطوال في مدح الخديوي
توفيق كلما حل موسم أو أهلّ عيد ، فكان قبل أن يرسلها إلى القصر ، لتنتشر
في صحيفة «الوقائع المصرية» (١) وغيرها من الصحف العربية ، يعرضها على
شوقي ، فما يزال يُصلح له فيها ، فيمحو هذه الكلمة أو تلك ، ويعدل
هذا الشطر أو ذاك ، ويسقط بعض الأبيات ، وأستاذه مغتبط به ، فرح
لصنيعه . ولهج الشيخ بتلميذه ، والثناء عليه ، ولم يلبث التلميذ أن سار في
الدرب الذي سار فيه أستاذه ، فكان ينشئ القصائد في مديح الخديوي
توفيق .

(١) وهي الجريدة الرسمية المصرية . آنذاك .

شاعر الخديوي :

وخرج شوقي من قسم الترجمة ، وهو لا يتّصف بالشاعر فحسب ، بل هو شاعر الخديوي توفيق ، فقد نسج على منوال أستاذه السيوني في التقرب إلى القصر وصاحبه ، وأتاح له علي مبارك (باشا) فرصة لقائه ، فهتّأه بتخرّجه ، وهو يستلم أذبال ثوبه ، ويقبّلها . ولم يلبث أن عين أباه مفتشاً في الخاصة الخديوية ، ثم عينه من بعده . (١) .

وهكذا ، دخل شوقي إلى القصر ، موظفاً كبيراً ، وشاعراً للخديوي ، لا عضواً هامشياً فضولياً في موكب الحاشية التي لا عمل لها سوى النهوض كلما أقبل الخديوي ، والإقبال على الطعام بشراهة الطفيليين ، والاغراق في النوم ، دون حسابان للزمن لأن الوقت ، عندهم ، غير ذي ثمن ، فلا خوف من ضياعه أو تبدّده على اللذائذ والرغائب الجسدية الحيوانية .

ولقد يكون الحق في جانب النقاد الذين ذهبوا إلى أن التحاق شوقي بالقصر كان بمثابة انصياع إرادي منه لسجن نفسه ، وسط الرياش والأثاث الفاخر ، ووسط الرسميات والبروتوكولات التي يعرفها الكثير من دجل الحياة وزيفها ، وكذبها ، وما إلى ذلك من مجاملات ومداورات ومناورات ، تبعد بالشاعر عن صفاء الجو الشعري ، وتختق فيه تراتيل البلبل الغريد ، فإذا هو في قفص مذهب ، ولكنه قفص في أي حال . ومتى حُرم الشاعر حرّيته في الغناء ، غدا شعره رهين القوالب والموازن ، وبعُد عن الشلو الساحر ، والتغريد العبقري .

كما قد يكون الرأي المخالف القائل بأن شوقي ما كان ليطل على الفكر العربي المعاصر مارداً عملاقاً ، كما أطلّ ، لولا القصر ، والخديوي ، والأحداث

(١) راجع كتاب « شوقي شاعر العصر الحديث » للدكتور شوقي ضيف - صفحة ١٢ وما بعدها ، وكذلك مقدمة « شوقي » للجزء الأول من « الشوقيات » - طبعة ١٨٩٨ .

الكبار التي كان شعره على مستواها وأرقى ، قد يكون هذا الرأي من الوجهة
بمكان .

ولكننا نظنّ أن الخوض في هذا الأمر ، هو لون من البحث العقيم ، لا يؤدي
إلى نتيجة فضلى ، فشوقي عاش حياته في القصر ، كما شاء أو كما شاءت
الأقدار له أن يعيش ، وكل حساب أدبي نجريه معه يجب أن يركز إلى
ما أعطى أكثر من ارتكازه إلى الأسباب والظروف التي دفعته إلى العطاء .

وفي أي حال ، فما هي إلا سنة على توليه الوظيفة في القصر ، حتى وجدّ
الخدوي توفيق ، أن الفتى ، ابن العشرين ، لا يجوز أن يلتحق بقصره قبل أن
يستكمل أسباب الثقافة القانونية ، بالإضافة إلى شهادة الترجمة التي يحملها ،
وهكذا بعث به إلى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق ، والاطلاع على ألوان
الثقافة الأوروبية .

يقول صالح جودت : « لم يسجل التاريخ للخدوي توفيق شيئاً من الإحسان ،
في تاريخ هذا البلد ، اللهم إلا حسنة واحدة ، هي أنه مهّد التربة الصالحة
لشاعرية شوقي . فقد أوفده ، بعد تخرجه في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، في
بعثة إلى باريس ، وأمره أن يبقى هناك أربع سنوات حظّر عليه أن يعود
خلالها إلى مصر ، وأمره أن يقضيها في النظر في آداب الغرب ، وحياة
الناس ، والتنقل بين باريس ومونبلييه ولندن .

وهناك تفتحت عيننا شوقي على ألوان من الجمال ، في الحياة والأدب
والفن ، فتفتق خياله ، وتفتحت له آفاق جديدة ، ما كانت لتتفتح له لو بقي
في مصر ، شاعراً ناشئاً يعيش في اسار القصر ، وكل رسالته أن يرفع المدائح
للأعتاب الخديوية .

هذه حسنة توفيق اليتيمة .

أما الحسنة الثانية ، غير المقصودة ، فهي الانجليز ، حينما نفوه إلى الأندلس ،
حيث قضى في ظلالها خمس سنوات ، رأى فيها عوالم جديدة ، وراجعته

قصة الأندلس والمجد الزاهب فيها ، وقصص ملوك الاسلام الأقدمين ،
وأساطيرهم هناك ، ومفاتيح الشعر الأندلسي ، بألوانه الزاهية ، وبحوره
المفردة وأوزانه المترقصة . .

كل هذا لعب في شاعرية شوقي دوراً جديداً وأضاف إلى قيثارته أوتاراً
حبيبة » (١) .

ولئن كانت لنا رُجعى إلى حديث نفي الشاعر ، فيكفي ههنا إلى ما سجله
الشاعر من الأحداث ، وما سجله عنه مؤرخو سيرته ، وعن سفره للتخصص
في فرنسا .

شوقي في فرنسا :

فقد أحاطت بالشاعر ، منذ أن أنزلته الباخرة في مرفأ مرسيلية ، مظاهر
الرفاه والعناية والرعاية ، ذلك أن الخديوي كان قد كتب إلى مدير البعثة
المصرية في فرنسا ، يأمره بالاهتمام بأمر شوقي ، وهكذا خفَّ مدير البعثة
بنفسه لاستقبال « مبعوث » الخديوي ، وعني بأمر إلحاقه بمعهد الحقوق في
مونبلييه حيث أمضى عامين ، ثم أمضى عامين آخرين في باريس .

وخلال العام الأول ، وبعدما رفض الخديوي السماح لشوقي بالعودة إلى
مصر لرؤية أهله ، متذرعاً بضرورة عدم تضييع أية فترة طويلة ، بعيداً عن
معهد الحقوق ، زار شوقي معالم عدد من الحواضر الفرنسية التي دعاه إلى
زيارتها عدد من زملائه الفرنسيين في مونبلييه .

وفي العام الثاني ، اصطحبه مدير البعثة المصرية في فرنسا ، معه في رحلة إلى
لندن والمدن الانكليزية الأخرى ، حيث أمضى مع زملائه شهراً كاملاً . أما

(١) راجع مقال صالح جودت بعنوان « شوقي أمير الشعراء » بمجلة « الهلال » العدد ٩ - السنة
٧٤ - سبتمبر ١٩٦٦ - صفحة ٧٩ و ٨٠ .

في العام الثالث فقد نصحه الأطباء على اثر مرض شديد أصابه ، بقضاء فترة في افريقيا ، فوق اختياره على الجزائر حيث أمضى أربعين يوماً ،

وفي نهاية هذا العام نال الإجازة في الحقوق ، ويبدو أن مرحلة الدراسة كانت ثلاث سنوات ، لا أربعاً ، كما هي الحال اليوم ، ثم ما لبث شوقي أن عاد إلى وطنه ، وقد بلغ من الشوق للأهل والديار كل مبلغ ، والتحق بقصر الخديوي توفيق من جديد .

وفي قصر الخديوي ، عاش شوقي كما يعيش الموظفون ، حياة فيها من الرتبة أكثر مما فيها من التجديد ، خصوصاً وأن وظيفته كانت تحتّم عليه ، عن قناعة أو عن مجاملة ، أن يرفع المدائح في المناسبات الدينية والوطنية للخديوي ، وأن ينظم القصائد في تثبيت العرش والإشادة بآل اسماعيل . . ذاك كان دأبه ، وقد بقي كذلك ردحاً من الزمن ، ولسان حاله يقول :

أَلَمَلِكُ فَيَكُم آلَ اسْمَاعِيلَا لَا زَالُ بَيْتُكُمْ يُظَلُّ أَلْنِيلَا

وفي عام ١٨٩٤ ، عقد مؤتمر للمستشرقين في مدينة جنيف السويسرية ، فانتدبته حكومة مصر ممثلاً لها ، ومتكلماً باسمها في ذلك المؤتمر ، فما كان منه إلا أن سافر إلى سويسرا ، ومن بعدها إلى بلجيكا ، إثر ارفض المؤتمر الذي قدّم له قصيدته ، بل ملحمة الشعرية التي جمع فيها « كبار الحوادث في وادي النيل » وبها عنوانها ، ومطلعها :

هَمَّتِ الْفَلَكَ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وَحَدَاهَا بَمَنْ تُقَلُّ أَلرَّجَاءُ
ضَرَبَ أَلْبَحْرُ ذَوَالْعَبَابِ حَوَالِيهَا سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارْقُونَ مِنْ شَرْكَ الْأَرْضِ شَبَاكاً تَمْدُهَا الدُّمَاءُ ،
وَجِبَالاً مَوَانِجاً فِي جِبَالٍ تَتَدَجَّى كَأَنَّهَا الظُّلْمَاءُ

ودويًا كما تأهبت الخيل ، وهاجت حماتها الهيجاء
لجةً عند لجةٍ عند أخرى كهضاب ماجت بها البيداء
وسفينٌ طوراً تلو وحيناً يتولى أشباحهنّ الخفاء ،
نازلاتٌ في سيرها ، صاعداتٌ كالهوادي يهزّهنّ الحداء
ربّ إن شئت فالفضاء مضيقٌ وإذا شئت فالمضيقُ فضاء
فاجعل البحر عصمةً وابعث الرحمةَ فيها الرياح والأنواء
أنت أنسُ لنا إذا بعدَ الأُنسُ ، وأنت الحياةُ والإحياء
يتولى البحار مهما ادلهمت منك في كل جانب لالا

إلى أن يقول ، عن إغراق المصريين في الوثنية ، وفي تأليه ملوكهم :

رب ، شقت العبادَ أزمانَ لا كتبتُ بها يُهتدى ، ولا أنبياءُ
ذهبوا في الهوي مذهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء ،
فإذا لقبوا قويا إلهاً فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلاً بتنزيهه ، فإن الجمال منك حياء ،
وإذا أنشأوا التماثيل غراً فإليك الرموز والإيماء ،
وإذا قدروا الكواكب أرباباً ، فمنك السنا ومنك السناء
وإذا ألّوها النّبات فمن آ ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجوداً فالمراد الجلالة الشّماء ،

وإذا تُعْبِدُ الْبَحَارُ مع الْأَسْمَاءِ، والعاصفاتُ والأنواءُ،
وسباعُ السَّمَاءِ والأَرْضِ والآرْحَامِ، والأمَّهاتُ، والآبَاءُ
لِعُلاكَ المَذْكُورَاتُ عبيدُ خُضْعٍ، والمونثاتُ إمَاءُ
جمع الخلق والفضيلة سرُّ شَفَّ عنه الحجابُ فهو ضياءُ

وفي القصيدة ذاتها ينتقل شوقي، بعد جولة تاريخية مع
ما عبده المصريون من آلهة، الى يوم اشرق نور الهدى
والمروءة والرفق، بولادة السيد المسيح عليه السلام:

وُلِدَ أَلْرَفْقُ، يَوْمَ مَوْلِدِ عَيْسَى' والمروءات والهدى والحياءُ
وازدهى الكون بالوليد وضاءت بسناه من الثرى الأرجاءُ
وسرَّتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كما يسري من الفجر في الوجود الضياءُ
تَمَلَأُ الْأَرْضُ والعوالم نوراً فالثرى مائجٌ بها، وضاءُ،
لا وعيدٌ، لا صولةٌ لا انتقامٌ لا حسام، لا غزوةٌ، لا دماءُ
ملكٌ جاور الترابَ، فلمَّا ملَّ، نابت عن التراب السماءُ
وأطاعتهُ في الإله شيوخٌ خُشَعٌ، خُضَعٌ له، ضعفاءُ
أَذْعَنَ النَّاسُ والملوك إلى ما رسموا، والعقول، والعقلاءُ
فَلَهُمْ وَقَعَةٌ في كلِّ أَرْضٍ وعلى كلِّ شاطئٍ ارساءُ

شوقي بين الخديوي توفيق والخديوي عباس

بعد ذلك ، لم تكتب الحياة طويلاً للخديوي توفيق ، فقد انتقل إلى جوار ربه . ليخلفه الخديوي عباس حلمي باشا .

ويبدو أن ما بين الخديوي توفيق وبين أحمد شوقي من فارق السن ، والمطامح وربما في الآراء والمواقف أيضاً . كل ذلك لم يجعل من توفيق ذلك المثال الذي كان ينشده شوقي ليجعله رمزاً للحاكم المثالي ، ورمزاً لشعب مصر . حتى إذا ارتقى عباس حلمي العرش . اتصل به شوقي . وصار . كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته للجزء الأول من « الشوقيات » كلمته ، ورأى بومئذ صنواً له على العرش . جعلته روحه الشابة مقدماً لا يهاب . ومع ما فوجئ به أول ولايته في حادث عرض الجيش في السودان مما اضطره للاعتذار . قد بقي شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جده من مغامرة .

لكن قيام الاحتلال الانكليزي في مصر . جعل الخصومة بينه وبينهم ، وليست بينه وبين الأتراك . بل لقد كان منظوراً إليه : أكثر الأحيان بشيء غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان . لذلك كانت عواطفه متفقة وعواطف المسلمين الذين كانوا . بعد انتصار الأتراك . يرون في الخليفة الممثل الأخير للأمم الإسلام جميعاً . . اتصل الشاعر الشاب بالأمير الشاب . فحتم عليه ذلك أن يكون المعبر عن الميول والآمال الكمينية في نفوس المسلمين جميعاً . لاني نفوس المصريين وحدهم ، وبذلك اجتمع في نفسه من أول حياته . ميله للحياة . وحباً لإياها ، وحرصه على المتاع بها . مع إيمان المسلمين جميعاً . وحرصهم على وحدتهم وعلى كياناتهم . بإزاء الأمم الغربية التي تنظر إليهم بعين صليبية بحتة . وكانت هذه الناحية التي تمثلها نفسه من ظروف الحياة ، ومن البيئة المحيطة به أكثر استيحاء لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه ، فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر ، ويصبح جندياً ، وجندياً

بأسلا ، ويتفوق في كل مواقف الحرب ، ويصبح القائد الأعظم ، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة السعيد بها غاية السعادة » . (١)
وتفصيل حادثة السودان التي ورد ذكرها منذ قليل ، أن عباس حلمي باشا تفقد الجيش المصري الذي كان يربط في وادي حلفا ، فلم يعجبه نظام إحدى الفرق ؛ وإبداء الامتناع من نظام الجيش ، إذ ذاك ، والجيش في يد البريطانيين كان من شأنه أن يثير المعتمد البريطاني كرومر الذي عدّ أن ملاحظة الخديوي هي بمثابة إهانة موجهة إلى « كتشنر » قائد الجيش ، وطلب أن يقدم الخديوي الاعتذار عن الإهانة التي ألحقها بالقائد البريطاني .

وقد عمد رئيس الوزارة المصرية ، يومذاك ، رياض باشا ، إلى التنصل مما صدر عن الخديوي ، وحاول أن يحمل الخديوي على تقديم الاعتذار أو ما يشبه الاعتذار . حتى تمكن من استصدار برقية من الخديوي موجهة إلى « كتشنر » يشي فيها على نظام الجيش .

ثم إن رياض باشا ، اغتنم فرصة افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ حزيران (يونيه) ١٩٠٤ . فألقى خطاباً أشاد فيه بكرومر ودولته . وكفر فيه بالخديوي عباس ودولته : فما صدرت صحف الصباح حتى كانت تصدرها قصيدة شوقي التي يقول فيها :

كبير السابقين من الكرامِ برغمي أن أنالك باللامِ
مقامك فوق مازعموا ولكن رأيتُ الحقَّ فوقك والمقامِ
لقد وجدوك مفتوناً فقالوا خرجت من الوقار والاحتشامِ
وقال البعضُ كيدك غير خافٍ وقالوا : رميةٌ من غير رامِ
وقيل شططت في الكفران حتى أردت المنعمين بالانتقامِ

(١) راجع مقدمة الجزء الأول من « الشوقيات » للدكتور محمد حسين هيكل - الصفحة ٨ و ٩

غمرت القوم اطراءً وحمداً وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا فكيف اليوم أصبح في الرغام
أما والله ما علموك إلا صغيراً في ولائك والخصام
إذا ما لم تكن للقول أهلاً فما لك في المواقف والكلام
خطبتَ فكنْتَ خطباً لا خطيباً أضيفَ إلى مصائبنا العظام
لهجتَ بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه لو أحسست دامي
وما أغناه عمن قال فيه وما أغناكَ عن هذا الترامي
أحبَّتكَ البلاد طویلَ دهرٍ وذا ثمنُ الولاء والاحترام
حقرت لها زمماً كنتَ فيه لعوباً بالحكومة والذمام
محاسنه غراسك والمساوي لك الثمران : من حمدٍ وذام
فهلاً قلتَ للشبان قولاً يليقُ بحافلِ الماضي الهمام !
يبث تجارب الأيام فيهم ويدعو الرابضينَ إلى القيام
خطبتَ على الشبيبة غير دار بأنك من مشبك في منام
ولولا أنَّ للأوطانِ حباً يُصمَّ عن الوشاية كالغرام
جنيت على قلوب الجمع بأساً كأنك بينهم داعي الحمام
أراكَ مقتلُ من مصرَ باقٍ فقمتَ تزيدُ سهماً في السهام
وهل تركتَ لك السبعون عقلاً لعرفان الحلال من الحرام ؟ !

هذا إلى آخر ما هناك من نعوت تليق بمن كفر بالنعمة ، وحابى رجال
الاحتلال ، وينهي القصيدة بهذه الأبيات :

أحبك مصر ، من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نامي
سيجمعني بك التاريخ يوماً إذا ظهر الكرام على اللثام ..
وهبتك ، غير هيأب ، يراعاً اشد على العدو من الحسام
سيكتب عنك فوق ثرى رياض وفي التاريخ صفحة الاتهام :
أفي السبعين والدينيا تولت ولا يرجى سوى حسن الختام
تكون وأنت أنت رياض مصر عرابي اليوم في نظر الأنام ؟

ولربما قال قائل : أبعد هذا ، يكون شوقي مترفعاً عن الهجاء ، كما قال
الأمير شكيب أرسلان ، وفي شعره المثبت أعلاه ما هو أشد من الهجاء ؟ !
والحقيقة ان ملاحظة كهذه كانت تُنحصى واقعة في مكانها ، لولا أن الهجاء ،
بمعناه المعروف في الشعر ، اجمالاً صادرٌ عن أسباب شخصية بين الهاجي
والمهجو ؛ أما والاسباب التي حملت شوقي على مهاجمة رياض بمثل هذا
الهجوم الصاعق ، هي أسباب وطنية بحثة ، في رأيه ، لا سيما وإن هذه القصيدة
تنطوي على دفاع مزدوج عن مصر والحدودي معاً ؛ فمن المتعذر علينا
احصاؤها في عداد الشعر الهجائي الشخصي .

* * *

ومن المفيد ، قبل المضي في الحديث على موقف شوقي من عباس ، أن
أن نتحدث عن موقف عباس من شوقي في أول عهده بالحكم ؛ فقد أهمل
الحدودي عباس شاعر القصر ، في بداية العهد ، ولم تكن للشاعر لدى عباس

تلك المكانة التي احتلها في عهد الخديوي توفيق ، وفي ذلك يقول داود بركات :
 « إن الخديوي عباساً كان يهمل شوقي بعض الإهمال ، لا لاعتقاده . بل
 لأنهم أدخلوا على نفسه أن أحمد شوقي شاعر فقط ، وأنه هو بحاجة إلى رجل
 سياسي ، لما كان بينه وبين الانكليز من الكفاح والجلاد فاجتمع لازالة هذا
 التوهم من صدره المرحومون : بطرس غالي (وقد كانت به نزعة للأدب
 والأدباء) ، وبشارة تقلا (صاحب جريدة الأهرام) ، ومصطفى كامل .
 وكان بطرس يطلب من الخديوي أن يسمح له بتوظيفه شوقي في الخارجية
 بضعفي مرتبه الذي كان يتناوله من قلم الترجمة في السراي ، وكان بشاره
 تقلا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليؤليه تحرير الأهرام ، وتأيداً لذلك ،
 وضع شوقي في مكانة من الأدب وامارة الشعر ، إلى أن قربه الخديوي ، وناط
 به كثيراً من المهام ، فقام بها خير قيام ، فأولاه ثقته ، وقدمه على جميع
 رجاله » (١) .

* * *

ولا ندرى ما إذا كان تقريب الخديوي للشاعر ، وإيثاره ، من ثم ، على
 جميع رجاله . نتيجة مداخلات بطرس غالي وبشارة تقلا ومصطفى كامل ،
 وحسب ، أم نتيجة قناعة شخصية تكونت لدى الخديوي ، بأن شوقي ليس
 شاعراً وحسب ، بل رجلاً سياسياً من الطراز الذي يعتمد عليه ، إذا ما أولي
 إليه شأن من الشؤون ؟ !

كما لا نستطيع أن نصدر حكماً سليماً على كون هذا التقريب ، وهذا
 الايثار نعمة على شعر شوقي أم نقمة ، فالانجاء الذي سلكه الشاعر اتجاه لا
 نستطيع مناقشته فيه ، الآن ، ولربما كان من حقّ النقاد المعاصرين أن يتمنّوا
 لو دام الجفاء بين الخديوي عباس وشاعره ، ولو عاد شوقي إلى صفوف الشعب
 يتحدث باسمه لا باسم وليّ نعمته ، ويناضل من أجل قضاياها ، لا من أجل

(١) راجع : « ذكرى الشاعرين : شاعر النيل وأمير الشعراء » - صفحة ٢٦٦ - المكتبة
 العربية - دمشق .

القضايا التي يريدها الخديوي ، وإذن لازادت شاعرية شوقي تدفقاً ، بازدياد شعوره بتبعات الحياة التي ما كان ليشعر بها ، وهو في أجواء القصر ، وبازدياد احساسه بمشكلات الناس التي كان بعيداً عنها إلى حدّ كبير ، كأنه يحيا في برج عاجي ، وما نحسب أن القصور الملكية التي تسنّت لنا زيارتها ، بعد انهيار الملكية ، أقل من البروج العاجية ، في إبعاد ساكنيها عن الناس ، ومشاكل الناس ، وهموم الناس ، وقضاياهم الحيوية .

وهكذا كتب أحمد شوقي على نفسه أن يكون ظلاً للخديوي ، وبوقاً من أبواقه ، إن لم نقل بوقه الوحيد ، والمتحدث الرسمي بلسانه ، دون أن يوجهه ، أو يبدلي برأي معارض لأيّ من آرائه ، أو يرفع اليه شكوى شعبية ، يثن منها المواطنون ، تحت سياط جلاّديهم ، سواء كانوا من الأجانب أو من أهالي البلاد .

ولقد يكون أحمد شوقي وجدّ في عباس حلمي مثلاً ورمزاً ، كما ألمعنا منذ برهة ، فلزمه ملازمة الظلّ للشخص ، وتحدث بلسانه ، وسمع بأذنيه ، وتنفس برئتيه ، وأحسّ بمشاعره ، ولكن أبا الطيّب المتنبي الذي تأثر به شوقي آلى أبعد مدى ، واقتفى سبيله في مديح الملوك ، واتبع منهجه في نثر الحكم الغوالي هنا وهناك في مطالع قصائده ومتونها وخواتيمها ، لكن أبا الطيب المتنبي لازم سيف الدولة الحمداني ، أمير حلب ، ومدحه ، وأكبر مروءته ، وأثنى على خصاله وشماله ، ووصف حروبه ، وهشم أعداءه ، غير أنه وإن فعل ، لبث صاحب الشخصية الطاغية المتألّثة في تاريخ دولة بني حمدان ، بل في تاريخ الأدب العربي ، قديمه وحديثه ، لأنه لم يتوارّ وراء قصائده ، ولم يمحُ شخصيته إرضاء لشخصية أميره ، مثلاً فعل أحمد شوقي الذي كان دأبه أن تلقى قصيدته ، إذا ما نُشرت في الوقائع المصرية ، أو في غيرها من الصحف العربية ، رضى الخديوي ، وان رضاه ليكفيه عن رضى بقية الناس في بلاده .

فـعـجـبـاً لـلـأفـواه تـلـبـث مـكـمـومـة ، إـذا حـمـلـت صـدىً مـن هـتـافـات الشـعـوب .
ولـكـنـهـا تـنـطـلـق مـن عـقـالـها ، إـذا ما سـبـحـت بـحـمـد الأـمـير وآلـائـه ، بـكـرةً وعـشـية !!

بين شوقي والمتنبي :

وقـد بـلـغ مـن تـبـعـية شـوقـي لـلـخـديـوي أـنـه راح يـفـاخـر النـاس بـكـونـه شـاعـر «العـزـيز»
ومـثـل هـذا المـقـام يـكـفـيه عـن كـل مـقـام :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

وبـيـتٌ كـهـذا ، صـعـلـوك إـزاء مـوارد شـوقـي وعـمـالـقـته ، لا يـكـشـف إـيـمانـه
الشـاعـر بـما يـقـول ، بـمـقـدار ما يـشـفّ عـن تـزلف ما كان أغنى الشـاعـر عـنه ، لـأن
شـاعـرـيـته لم تـكـن لـتـحـتـاج إـلى لـقب «شـاعـر العـزـيز» ، أو «شـاعـر الأـمـير» ،
هـو الـذي أـجـمـع شـعـراء العـربـية ، مـن بـعـد ، عـلى مـبـايـعـته أـمـيراً لـلـشـعـراء !!

ولو كان شوقي في مثل طبع المتنبي ، وفي مثل اعتداده بنفسه ، وهو يعيش
في كنف سيف الدولة ، لما اكتفى بلقب «شاعر العزيز» ولما هتف : «ولقد
ربيتُ بباب اسماعيل» . بل لقال ما قاله المتنبي ، وهو يمدح سيف الدولة ،
و يمدح نفسه معه :

سـيـعـلـم الجـمـعُ مـن ضـمّ مـجـلـسـنا بـأنـني خـيـرُ مـن تـسـعى بـه قـدـمُ
أنا الـذي نـظـر الأـعـمى إـلى أـدـبـي وأـسـمـعـت كـلـمـا تـي مـن بـه صـمّ
الخـيـلُ والـلـيـلُ والبـيـداءُ تـعـرـفـنـي والسـيـفُ والرـمـحُ والقـرطـاسُ والقـلـمُ
ولـقـال لـه ايضاً :

أـجـزـنـي إـذا أنـشـدـت شـعـراً فـإنـما

بـشـعـري أـتـاك المـادحـون ، مـردّداً

وَدَع كل صوتٍ غير صوتي ، فإنني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى !!

أو لبلغ مبلغاً أبعد مدى :

أيَّ عظيم أتقي أيَّ محلّ أرتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همّتي كشعرة في مفرقي !!

وإذن كان للقصر أثر عظيم في توجيه شاعرية شوقي ، سيما وأن تقريبه من الجديوي ، جاء على أثر وساطات وشفاعات ، وعلى أثر مجافاة مقصودة أو غير مقصودة ، فكان لا بد له من التوفيق بين مقامه ، بالنسبة للشعراء ، وبين مقام الجديوي بالنسبة للأمراء ، وفي هذا يقول الأمير شكيب أرسلان : «من حيث قيل له شاعر الأمير ، آلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء ، فانصرف بكلّيته إلى الشعر ، حتى تعطيه الإجابة قيادها ، ويعلم العزيز ، سيده ، أنه إن كان هو سيّد الأمراء ، فإن شاعره سيّد الشعراء ، وأن هذا المقام الذي يشغله شوقي برسمه ، يشغله أيضاً بنظمه .

وقد كان هذا الحرص منه على إفهام سيده أنه الشاعر الذي لا يُشَقُّ له غبار ، والذي اتفقت على تقديمه الأقطار ، هو الذي يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجعة ، وأوسع فتوحات عقلية ، فلا يقول الشيء الذي يقوله سائر الناس ، فكان يقضي معظم أوقاته في تجويد نظمه ، وتسديد سهمه ، في تعمير صدره بالمعاني العالية ، وشحن خاطره بالمرامي الدقيقة ، والأغراض السنية . (١) »

* * *

(١) راجع كتاب « شوقي أو صداقة أربعين سنة » للأمير شكيب أرسلان .

والحق أن شوقي كان ، كما يقول الأمير شكيب ارسلان . غير أن تماثل الأغراض التي عالجها ، وتشابه المواضيع التي خاض فيها . سجت شاعريته في قمم ضيق ، فلم يتجاوز شعر المناسبات المحلية الضيقة إلا لماماً . وإلا من خلال الحكم التي ينثرها ، عبر القصيدة ، أو من خلال العبر التي يستوحىها من الأحداث. ولا نغالي إذا قلنا ان قيمة قصائده « الرسمية » تكمن في هذه الحكم والعبر وجدها ، أما ما حولها من أحداث ، ومن سرد اخبار ، فليس إلا « هوامش » بها وبدونها ، تكون لشوارد القوافي قيمة فنية كبيرة .

ويقرر الدكتور شوقي ضيف أنه لم تكن لشوقي من رغبة إلا أن يكون ظلاً للأمير ، و« ربما كان لفساد الحياة السياسية في مصر ، حينئذ ، أثر في توجيه شوقي ، فقد نشأ وهو يرى القصر والأمير كل شيء في حياة المصريين . فهما مصدر العز والذل ، والخفض والرفعة ، والجاه والسلطان . فأراد شوقي أن يقتحم هذا الحصن الأشم ، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجري في مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية ، وفيه إيمان بالشعب ، وعمل صحيح على حياته ، لكانت أحلام شوقي غير هذه الأحلام ، ولما رأيناه يجري منضوياً تحت لواء الأمير ، يسبح بحمده آثناء الليل ، وأطراف النهار .

الظروف السيئة التي أحاطت بشوقي ، إذن ، هي التي ضيقت حدود شاعريته ، وجعلتها محفوفة بالاشواك ، في هذه الحقبة الطويلة من حياته التي تجاوزت عشرين عاماً ، فلم يعد شوقي يملك نفسه ، بل أصبح يملكه الأمير كما يملك أي شيء من ثروته ، وليس من شك في أن عباساً لم يحسن ملك شوقي ، فقد سخره لنفسه ، وكان ينبغي أن يسخره لفنه ، وان يفق منه موقف ملوك أوروبا من شعرائها ، على نحو ما وقف قديماً أغسطس من فرجيل ، وعلى نحو ما وقفت حديثاً إليزابيث من شكسبير ، ولويس الرابع عشر من معاصريه . وقد تعلم عباس في « فيينا » ، عاصمة الفن والفنانين ، ولو أنه قرأ تاريخ عباقرتها الموسيقيين : هايدن ، وموزارت ، وبيتهوفن ، لعرف ان اسرة

هابسبورج كفلت لهم حياتهم الفنية ، كما ارادها ، ولم تجعل منهم تابعين ولا خدماً لها . بل أحنت رؤوسها لهم ، وأيدتهم بكل ما استطاعت من مال وجاه .

وكان ينبغي لعباس أن يصون كرامة شوقي ، وأن يمدّه بالمال الذي يريده ، حتى يتقد هذا القبس المبارك في شاعره ، إذن كنا نعدّ عباساً حامياً للأدب في عصره ، ولكنه لم يصنع ، ولم يحاول ، بل استمر يشد البلبل من خيط في لسانه ، ليتملقه ويداهنه ، ويغنيه بما يشاء ويهوى . » (١)

* * *

حياة شوقي الخاصة :

هذا ، فيما عني حياة شوقي « الرسمية » في قصر الحديوي عباس ، حيث تولى رئاسة القلم الافرنجي ، فضلاً عن كونه شاعر الحديوي .
أما في بيته ، فقد كان يحيا حياة مترفة أخرى ، تبقى ، وإن أبعدته عن رسميات القصر ، عاجز عن ان تبعده عن الأرستقراطية التي كانت تصنّف الناس في مصر ، والتي تصنفهم وفي كل مكان وزمان ، سادة وعبيد ، فكان طبيعياً بالنسبة لشاعر « العزيز » أن يختار ، وقد أمكنه الاختيار ، حياة السيادة على حياة العبودية ، فإذا به ينشئ في المطرية بالقاهرة ، منزلاً فخماً أطلق عليه اسم « كرمة ابن هاني » ، تمثلاً بل تبركاً بأبي نواس ، شاعر الحمرة في الأدب العربي ، غير منازع حيث كانت تدار الحمرة على زائري شوقي ، في قاعة الاستقبال ، ومن قاعة أخرى كان يتناهى صوت المطرب الكبير محمد عبد الوهاب ، فاجتمعت لشوقي زينة الحياة الدنيا : المال ، وهو موفور لديه ، والحديوي لا يرضن على شوقي بشيء منه ، والبنون : ابنان اسمهما علي وحسين ، وابنة أسمها امينة .

(١) راجع « شوقي شاعر العصر الحديث » للدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - صفحة ٢٥ و ٢٦ .

وفي كتاب وضعه عن شوقي ، كاتبه أحمد عبد الوهاب أبو العز ، تقرأ أطرافاً وألواناً من حياته الحاملة منذ عام ١٩٢٠ ، حيث يذكر لك الكثير من مباحث تلك الحياة ، بورودها وعطورها ورياحينها ، حتى لقد غدا الشاعر تناول الحياة كؤوماً صافية (١) .

ونحنُ ، إذ نذكر ذلك ، عن أحمد شوقي ، لا نرغب في تحميل كلامنا أي صنف من الانتقاد أو أي لون من الانقاص ، لا بل نحنُ ، على عكس ذلك ، نقرأ للشاعر بحقه في الحياة البهيجة الأنيسة ، بعيداً عن المتاعب والمصائب والمصائب ، خصوصاً والشاعر لإنسان مرهف الحسّ ، رقيق الشعور ، جيّاش العاطفة ، يستطيع أن يملأ الحياة فيضاً من الجور والمسرات ، إذا هو أعفي من مشاق العيش ، وضيق مسالك الأرزاق .

ومن الغرابة بمكان كبير أن ينعقد شبه اتفاق بين النقاد والمؤرخين على أنّ من مستلزمات الشعر ، عيش الشاعر وسط الحرمان والجوع والفقر والعوز ، حتى تتفجّر الشاعرية دفق إلهام وسحر وعطاء .

والواقع أن الشاعرية إن تدفقت بسبب الحرمان والجوع ، فهي تندفق حقداً على البشرية ، وتتفجّر مبطاً موجعة على ظهور الموسرين والأغنياء .

أما إذا تدفقت الشاعرية ، وهي لا ريب متدفقة ، بسبب النعمة والرخاء والهناء ، فهي تسير مطمئنة ، بل مشبعة الطمأنينة والفرح والسعادة في نفوس البشر ، ومن ثمّ ترنم بمثل ما ترنم به أحمد شوقي :

حَفَّ كَأْسُهَا الْحَبِّ فِيهِ فَضَّةٌ ذَهَبُ
أَوْ دَوَائِرُ دُرٍّ مَائِجٌ بِهَا لَبُّ (٢)

(١) راجع كتاب « اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء » لأحمد عبد الوهاب أبو العز صفحة - ٨٩ .

(٢) لب : موضع القلادة من الصدر .

أَوْ فَمِ الْحَبِيبِ جَلَا عَنْ جُمَايِهِ الشَّبُّ (١)
أَوْ يَسْدَاهُ بَاطِنُهَا عَاطِلٌ وَمَخْتَضِبٌ
أَوْ شَقِيقُ وَجْنَتِهِ حِينَ لِي بِهِ لَعِبٌ
رَاحَةُ النَّفُوسِ ، وَهَلْ عِنْدَ رَاحَةٍ ، تَعَبٌ ؟ !

لَمَّا ، وَقَدْ قَالَهَا شَوْقِي نَفْسَهُ ، رَاحَةُ النَّفُوسِ ، يَسْعَى إِلَيْهَا الْمَرْءُ جَاهِدًا ، وَلَرُبَّمَا لَمْ تَكُنْ رَاحَةً لِلنَّفُوسِ حَقًّا ، عَلَى أَنَّا لَا نَسْمَحُ لِأَنْفُسِنَا بِمُنَاقَشَةٍ مِنْ يَقُولُ بِهَا ، طَالَمَا هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا ، أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ ، طَالَمَا يَخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهَا .

ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ أَوْ الْمَصْلُحَ الْاجْتِمَاعِي أَوْ السِّيَاسِي إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجْعَلَ الْغَنَى مَشَاعًا لِحَمِيعِ النَّاسِ ، فَلَيْسَ مَا يَحُولُ دُونِ إِقْبَالِهِ بِنَفْسِهِ عَلَى أَسْبَابِ الْغَنَى ، جَاهِدًا ، فِي كُلِّ حَالٍ . أَلَاَّ يَجْعَلُ الْفَقْرَ مَشَاعًا لِحَمِيعِ النَّاسِ .

وَيُمَثِّلُ هَذَا الْمَفْهُومَ يَجِبُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْإِشْتِرَاقِيَّةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي إِنَّمَا تَقُومُ ، مَبْدَأً وَوَاقِعًا ، عَلَى إِزَالَةِ أَسْبَابِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أَفْرَادِ الشَّعْبِ ، مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ تَكَاوُفِ الْفُرْصِ ، وَمِنْ أَجْلِ رَفْعِ الْإِمْكَانَاتِ وَالطَّاقَاتِ وَالْكَفَاءَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، فَوْقِ الْأَنْسَابِ وَالْإِنْتِمَاءَاتِ الطَّائِفِيَّةِ أَوْ الْعَنْصَرِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ لَا تَمْنَعُ الْإِشْتِرَاقِيَّةُ الْغَنَى ، بَلْ تَعْمَدُ بِقُوَّةٍ إِلَى تَحْرِيمِ الْفَقْرِ الَّذِي كَادَ أَنْ يُسَمَّى كُفْرًا ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ .

وَلَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيُنَا فِي مَوْضُوعِ الْغَنَى وَالْفَقْرِ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّاعِرِ ، أَيْ شَاعِرٍ ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى أَحْمَدِ شَوْقِي بِالذَّاتِ ، فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَكْتَفِيَ بِالْغَنَى لِنَفْسِهِ ، بَلْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ اسْتَعْنَى ، أَنْ يَكُونَ صَوْتُ الْأُمَّةِ الْهَادِرِ ، وَضَمِيرُهَا الْيَقِظُ ، وَوُجْدَانُهَا الْحَيُّ . عَلَيْهِ أَنْ يَتَرَتَّبَ بِأَمَلِهَا ، وَأَنْ

(١) جَمَانُهُ : لَوْلَاهُ - الشَّبُّ : عَذُوبَةُ الْأَسْنَانِ .

يترجم آلامها ؛ عليه أن يوصل إلى أسماع الحاكين مطالبها وشؤونها وشجونها ،
لأن يُسمع الأمة أوامر الحاكين ، ورغباتهم العلية .

وشوقي لم يكن في الحقيقة إلا غنيّاً بنفسه ولنفسه ، سجيناً في القصر ،
« يعيش — على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف — في التواءاته ومداوراته ، مع
الانكليز أحياناً ، ومع الشعب أحياناً ، ثم مع من يريدون الرتب والألقاب أو
الجاه والمناصب . وكان لا يترك القصر إلا ليجلس إلى أسرته الارستقراطية أو
مع مَنْ يشاكلونه من الأغنياء ، ولم يكن يجلس إلى الشعب ، ولا يختلط
بأوساطه وأنماطه ، فطبيعي من أجل ذلك أن لا يكون بوقاً للشعب ، وإنما يكون
بوقاً للقصر وأميره ، يتكلم حين يريد هذا الأمير ، ويصبيه الحرس حين
يريد » .

ذلك ما كان من أمر شوقي ، وهو في قصور أسرة محمد علي باشا ، فما
كانت حاله ، في المنفى وبعده ؟ !

أحمد سوني في المقي

تمهيد تاريخي

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وانقسم العالم إلى كتلتين متصارعتين ومن سوء حظ الشرق أنه كان ساحاً لأكثر معارك تلك الحرب ضراوة ، فإذا بالخسائر التي أصابت الشرق عامة ، والشرق العربي خاصة ، أضعاف أضعاف ما أصاب غيرها من بلاد العالم ، سواء في الأرواح ، أو في المنشآت .

ومهما حاولنا أن نتقصى الأسباب التاريخية التي تقف وراء نشوب الحرب العالمية الأولى ، فإننا ، ولا ريب ، واقعون على سببين جوهريين لهذه الحرب وهما :

أولاً : الأحقاد الدفينة في نفوس الدول الغربية التي لبثت تحملها منذ انهزام الحملات الصليبية في الشرق حتى اندلاع نار الحرب العالمية الأولى .

ثانياً : ضعف الخلافة العثمانية ، وتفكك الروابط التي كانت تشدّ البلدان الواقعة تحت السيطرة التركية إلى بعضها البعض ، بحيث كانت في الماضي امبراطورية لا تغيب الشمس عن أرضها ، فتحوّلت بفضل عدد من العوامل التي تلازم الدول ، عند انهيارها ، إلى رجل مريض تتناوب الدول على العبث به ، وتمنّي النفس بوراثته ، والحلول محله ، في حكم الشرق .

ولا بد من أن نسجّل في هذا المقام ، ذلك الدور الكبير الذي لعبته العناصر الذخيلية على الأمة العربية ، ولا سيّما منذ العهد العباسي إجمالاً ، ومنذ عهد

الخليفة المأمون بالذات ، حيث بدأت العناصر الأعجمية ، وعلى الأخص
العنصر الفارسي ، تتحكم بالخليفة ، وتبلي عليه إرادتها ، وتوجه شؤون
الامبراطورية الإسلامية وفق أهوائها ، وبدافع من الحركة الشعوبية التي
ما تزال حتى هذه الأيام تذر قرنفا ، في كل مناسبة ، تحت ستار من الدعاوات
والشعارات التي لا تمت إلى المصلحة العربية في شيء كثير أو قليل .

فمنذ أن اندست عناصر أعجمية في جسد الدولة العربية ، بدأت العنصريات
المختلفة تبرز هنا وهناك ، عامدة إلى إضعاف شأن العرب ، ولو بهدم الهيكل
على رؤوس القائمين فيه ، فألت حالة الخلافة العباسية ، في دورها الثالث ، إلى
ما نعرفه من تفكك ، وإلى استقلال الأمراء بشؤون المناطق الواقعة تحت
حكمهم ، حتى بنتنا نطلع على ازدواجية في الحكم ، من حيث متولّي
السلطة : فالخليفة في بغداد لا يعلم شيئاً عما يجري في الدول المستقلة ، من
من حمدانية ، وطولونية ، وإخشيدية ، وغيرها . ولولا رابطة الإسلام ، والولاء
الديني للخليفة ، لكان كل عهد للدول المستقلة بالخلافة قد انقطع إلى غير
رجعة .

ثم إن تغلب العنصر التركي ، في أواخر الدور الثالث من العهد العباسي ،
نقل الخلافة من العرب إلى الأتراك ، وعادت الهبة للخلافة من جديد ، ولكن
الولاء انتقل ، هذه المرة ، من تقديم العرب على غيرهم ، إلى تقديم الأتراك
حتى على العرب الذين منهم محمد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفيهم
أنزل القرآن الكريم .

وكانت مصر ، دوماً ، قبلة الأنظار ، في تقلبات عهود الخلافة ، وعلى
الأخص في عهد الخلافة العثمانية . ولقد شهدت مصر ، منذ حملة نابليون
بونابرت عام ١٧٩٨ التي كانت ، في جوهرها ، امتداداً للحروب الصليبية ،
مهما حاول بعضهم أن يضفي عليها من أسباب المدنية والتمدن ، شهدت مصر
ألواناً من التقلبات السياسية ، كانت ثورة أحمد عرابي عام ١٨٨١ إحدى
صورها ، وذلك إلى أن تم الاحتلال الانكليزي لها .

وثمة حادثة في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية ومصر ، ينبغي ألا نغفل عنها ، وهي حادثة قيام محمد علي باشا بمحاولة احتلال تركيا ، بعد أن أصابها الضعف ، وغدت مطمعا للروسيا ، ولغيرها من الدول المحيطة بها . والحقيقة أن محمد علي ما كاد يقارب الآستانة حتى ائتمرت به كل من بريطانيا وفرنسا والروسيا ، خوفاً من قيام حكومة قوية في العاصمة العثمانية من جهة ، ومن جهة ثانية ، لئلا يوطد ركني القوة والعلم في عاصمة وادي النيل .

ولولا أن نهوض الدول الثلاث في وجه محمد علي كان من أجل الدفاع عن تركيا لكان الأمر . ولكن هذه الدول ، وعلى الأخص روسيا ، لبثت تشن الحرب تلو الحرب ، وتفتعل الغارة تلو الغارة ، لإضعافاً للدولة العثمانية ، فانتهدت حروب الامبراطورة الروسية كاترين عام ١٧٩٢ بمد حدود روسيا إلى الدنيستر ، كما سلخت اليونان ، بفضل تأمر انكلترا وفرنسا والروسيا ، عن جسم الدولة العثمانية ، ولولا حرب ١٨٧٧ بين روسيا وتركيا التي انتهت بانتصار عثمان باشا على الروس ، بعد أن دافع عن « بلقان » دفاع الأبطال ، لما بقي للأتراك أي أثر للسلطة في الجزء الأوروبي من الدولة ، ولأنهارت الخلافة انهياراً تاماً .

في هذه الأثناء ، لبث المصريون ، يتعلقون بالخلافة تعلقاً دينياً صرفاً ، دون أي شعور ، أو اقتناع بضرورة الإبقاء على الارتباط السياسي بالدولة العثمانية ، وهكذا تمكن الخديوي اسماعيل عام ١٨٧٣ من استصدار فرمان من السلطان العثماني أقر له بموجبه بأن يستقل في شؤون إدارة الدولة المصرية ، والتشريع لها ، وإنشاء الجيش الذي يستطيع الدفاع عن حدودها .

وكان من المعقول جداً أن تطمح الدولة المصرية ، كما طمح العرب في اختلاف ديارهم ، إلى التخلص من السيطرة العثمانية السياسية ، وإن كانوا يشعرون بلون من الانعطاف الديني نحوها ، وذلك تمهيداً للتخلص من كل

سيطرة سياسية أخرى ، وهكذا وجدنا مصر والعرب يتعاونون لهذه الغاية مع الدول التي تمنّيهم الأمانى . وتعدّهم الوعود بالحرية والاستقلال ، وفي طليعة دول « الوعود » البرّاقة بريطانيا وفرنسا والروسيا .

ولما آنتت بريطانيا انعدام التبعية السياسية تقريباً بين مصر وتركيا . عمدت إلى مطالبة الخديوي اسماعيل بما يُدعى « الديون المصرية » ، وبذلك مهّدت لخلعه . وإلى احتلال مصر ، بعد ثورة أحمد عرابي . اقتضاء لدينها . كأنما ديون الدولة توجب فقدانها لأسباب الحرية والاستقلال .

خلع عباس عن عرش مصر :

وبعد الخديوي اسماعيل اعتلى عرش مصر الخديوي « توفيق » . وبعده الخديوي عباس حلمي . . وكان هذا الأخير معروفاً بعدائه للانكليز (وقد أُلغنا إلى بعض مظاهر هذا العداء في الفصل السابق) . فلما أن نشبت الحرب العالمية الأولى ، وعباس في الآستانة ، بعيد عن عاصمة ملكه . أثبتت بريطانيا عليه الرجوع إلى مصر ، وتحقيق فيها قول المثل العامي : « ليست هذه حبة رمانة ، ولكنها قلوب ملآنة » . وهكذا خلعت عن العرش . بعد أن أعلنت حمايتها على مصر . وعينت مكانه قريبه « السلطان حسين كامل » الذي كان يكنى الولاء لبريطانيا .

لم تكتف بريطانيا برأس عباس حلمي . بل رغبت في أن تطيح بالرؤوس التي تعاونه أو تواليه جميعاً ، وبذلك راحت تبدّل موظفي القصر وتغيرهم . فرفض الكثيرون منهم أن يبقوا في المناصب التي عهد بها اليهم . وفاءً منهم للخديوي عباس . عدو الانكليز . وتقدّموا باستقالاتهم من وظائفهم ، وكان أحمد شوقي أول المستقيلين .

نفي شوقي

و كانت السلطة الانكليزية . وأعوانها في مصر . على علم تام بالمكانة الفكرية والسياسية التي يحتلها أحمد شوقي . لذلك 'طلب اليه أن يغادر البلاد ، وأن يختار له منفى' في قطر محاييد . فاختار بلاد الأندلس منفى له ولأسرته . « ورفعت السفينة سلاسلها من بور سعيد . وألقت بشوقي وأسرته على ساحل اسبانيا في برشلونة ، فنزل في فندق فيها ، ثم أقام في ضاحية جميلة من ضواحيها تدعى « فلفيديرا » . وهي ترتفع كثيراً عن سطح البحر . فكان يتمتع بهذا الارتفاع . وبما حوله من غابات الصنوبر ومشاهد الطبيعة الرائعة ، كما كان يتمتع برؤية البحر . والسفن غادية رائحة على برشلونة . . وعلى هذا النحو لم يعد شوقي يحيا حياته الرتيبة التي كانت تبدأ من « كرمة ابن هانيء » إلى القصر . ثم تعود أدراجها من القصر إلى « كرمة ابن هانيء » : فهذه الدورة من حياته قد دخلت في عالم الظلال إلى غير رجعة . وخلفتها دورة جديدة . انتقل فيها الشاعر إلى عالم النور . حيث لا ترهقه قيود القصر وأغلاله ولا أفاعيه وسمومه .

ومع أن هذه الدورة الجديدة كانت فرصة هنيئة لربة الشعر : فإن شوقي لم يستقبلها بالفرح . بل استقبلها بالحزن والألم لفراق الوطن . وقلة المال وتعذره أحياناً بسبب الحرب . ولم يكن شوقي يعرف قبل ذلك الحزن . فقد كانت حياته تجري على وتيرة واحدة من اللهو والمرح . فلما حيل بينه وبين عشه أحسّ بغير قليل من الألم . بل أخذ يصهر الألم نفسه ، وكان شعرنا المصري الحديث محتاجاً إلى أن يصهر الألم نفس شوقي . حتى تصبح نفساً غنية . وحتى يقترب شوقي من جمهور وطنه . وما يكتظُّ به صدره من هموم « (١) » .

(١) « شوقي شاعر العصر الحديث » صفحة ٣٢ و ٣٣ .

ولم يملك أحمد شوقي رهيناً للهجوم والأحزان ، في دارته بضاحية برشلونة بل اغتنمها فرصة مناسبة ليجوس رحاب « بلاد المجد المفقود » ، ويعيش مع العرب الأماجد : عبر صفحات التاريخ التي خطت في ما تبقى من قصورهم ومساجدهم ومدارسهم . ويُرافق موكب انتصاراتهم الظافر : فيما ساكوه من دروب الظفر . حتى لقد باتت حبات الرمال وكأنها تتحدث عن آثار المجد العربي الدارس في الأندلس .

تأثر شوقي بالبحري

وكان من شأن هذا التجوال أن يطلعه لا على الآثار الأندلسية العربية وحسب وإنما اطلع أيضاً على ما كتبه شعراء العربية في بلاد الأندلس وتأثر بهم تأثراً ، حتى ليتمكننا أن نطلع على الكثير من المعارضات الشعرية الموفقة التي نظمها شوقي على منوال عدد من القصائد الأندلسية الشهيرة .

ولقد كتب شوقي في « الشوقيات » ممهداً لإحدى قصائده :

« لما وضعت الحرب الشؤمي أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها . ورمّ لهم ربوع السلم وجدّد مزارها . أصبحت وإذا العوادي مقصرة . والدواعي غير مقصرة . وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب . والنفس بحق زيارته أطلب . فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدد . والبخار المشتد . أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس بمرآة الأرب ، واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب : وإنها لشتى المواقع : متفرقة المطالع . في ذلك الفلك الجامع . يسري زائرها من حرم . كمن يُسمي بالكرنك ويُصبح بالهرم . فلا تقارب غير العنق والكرم : (طَلَبَ طِيلَة) تطيل على جسرهما البالي . (وأشبيلية) تشبل على قصرها الخالي : (وقرطبة) مُتَبَذَّة ناحية

بالبيعة الغراء ، (وغرناطة) بعيدة مزار الحمراء ، وكان « البحري » رحمه الله رفيقي في هذا الترحال ، وسميري في الرّحال . والأحوال تصلح على الرجال . كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من حلتى الأثر ، وحبيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشّر العير . ومن قال في مآثم على الدول الكبير . والملوك البهايل الغر ، عطف على (الجعفري) حين تحمّل عنه الملا ، وعطل من الحلى ، ووكل بعد (المتوكل) لليل . فرفع قواعده في السير ، وبني ركنه في الخبر ، وجمع معاملة في الفكر . حتى هاد كقصور الخلد امتلأت منها البصرة وإن خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك (لكسرى) بإيوانه ، حتى زال عن الأرض ديوانه .

وسينيته المشهورة في وصفه ، ليست دونه وهو تحت (كسرى) في رصّه ورصفه . وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار ، وكيف تتجدّد الديار في بيوته بعد الاندثار . قال صاحب الفتح القسى في الفتح القدسي بعد كلام « فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحري في وصفه ، تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته ، وعُفّرت شرفاته ، وتجدوا سينية (البحري) قد بقي بها (كسرى) في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في « إيوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطالعها :

صنّت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كلّ جيس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمنايا موائل وأنو شروان يزجي الصفوف تحت الدرّفس

فكنت كلما وقفت بحجر . أو طفت بأثر . تمثلت بأبياتها . واسترحت

في موائل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحري إيوان كسرى وشفّني القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي وأعالجه على هذا الوزن حتى
نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الرِيضة . وأنا أعرضها
على القراء راجياً أن سيلحظونها بعين الرضاء . ويسحبون على عيوبها ذيلَ
الإغضاء « (١) :

ومما يقوله أحمد شوقي في هذه القصيدة :

اختلافُ النهار والليل يُنسي اذكراً لي الصبا وأيام أنسي
وصيفا لي حلاوة من شبابٍ صوّرت من تصورات ومس
عصفت كالصّبا اللعوب ومرّت

سنةً حلوة ، ولذة خلس

وسلا مصر هل سلا القلبُ عنها

أو أسا جرحه الزمان الموسي

كلّما مرّت الليالي عليه

رقّ وألّعهْدُ في اللَّيالي تُنسي

مُستطار إذا ألبواخر رنّت

أوّل الليل ، أو عوّت بعد جرسٍ

راهبٌ في الضّلوع للسفن فظن

كلّما ثُرُن شاعهنّ بنقس ،

(١) راجع « الشوقيات » الجزء الثاني - الصفحة ٤٣ و ٤٤ .

يَا ابْنَةَ أَلِيمٍ مَا أَبُوكَ بَخِيلٌ
 مَالُهُ مَوْلَعًا يَمْنَعُ وَحَبْسِ
 أَحْرَامٍ عَلَى بِلَابِلِ الدَّوْ
 حُ ، حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ ..
 وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ
 نَارَعْتَنِي إِلَيْهَا فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
 شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جَفَوْنِي
 شَخْصَهُ سَاعَةً ، وَلَمْ يَخُلْ حَسِّي .

إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي آخِرِهَا :

رَبِّ بَانَ لِهَادِمٍ ، وَجَمُوعُ
 لِمَشَتْ ، وَمَحْسِنٌ لِمُخْسٍ ،
 إِمْرَةُ النَّاسِ هَمَّةٌ لَا تَأْتِي
 لِحَبَّانٍ ، وَلَا تَسْنِي لِحَبْسٍ ،
 وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ
 وَهِيَ خُلِقَتْ ، فَإِنَّهُ وَهِيَ أَسْ !

تأثر شوقي بابن زيدون

وتأثر أحمد شوقي ، وهو في بلاد الأندلس ، بشعر ابن زيدون ، حتى لتحسب أن قصائده النونية التي عارض بها قصيدة ابن زيدون . هي تنمة لها . أو هي من صلبها ، نظراً للتقارب العظيم بين عاطفتي شوق ابن زيدون إلى محبوبته «ولأدة بنت المستكفي» الشاعر ، وشوق شوقي إلى محبوبه الأكبر ، وطنه مصر .

وفي هذه القصيدة يذوب شوقي رقّة ، وحنيناً ، وحناناً ، يُضاف إلى ذلك جرس موسيقي رائع ، وقافية رنانة حزينة . يقول في مطلعها . مخاطباً حمامة «وادي الطلح» الذي كان المعتمد بن عباد شديد الوله به . ومتحدثاً عن عوادي الدهر ومصائبه :

يانائح «الطلح» ، أشباه عوادينا

نشجى لواديك ؟ أم تشجى لوادينا ؟

ماذا تقصّ علينا غير أن يداً

قصّت جناحك ، جالت في حواشينا

ثم يقول :

ياساري البرق يرمي عن جوانحننا

بعد الهدوء ، ويهمي عن مآقينا ،

لما ترقرق في دمع السماء دماً

هاج البكا ، فخضبنا الأرض باكيننا

الليلُ يشهد لم تهتك دياجيهِه

على نيامٍ ، ولم يهتف بسالينا

والنجمُ لم يرنا إلا على قدمٍ

قيامَ ليلِ ألْهَوَى ، للعهد راعينا

بالله إن جُبْتُ ظلماءُ العُبابِ على

نجائبِ النور ، محدُّوا (بجرِّينا)

تردَّ عنك يداهُ كلَّ عاديّةٍ

إنساً يَعْتَنُ فساداً أو شياطيناً

حتى حَوَتْكَ سماءُ النّيلِ عاليّةً

على الغيوثِ وإن كانت ميامينا

وأحرزتك شفوفُ اللازوردِ على

وشْيِ الزبرجدِ من أفوافِ واديننا

وحَازَكَ الرِّيفُ أَرْجاءَ مُورَّجَةٍ

رَبَتْ خُمائلُ ، واهْتَزَّتْ بِسَاتِينَا

فقف إلى اللَّيْلِ وَأَهْتَفْ فِي خدَائِهِ
وَانْزِلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيحَانَا
وَأَسِرْ مَا بَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا
بِالْحَادِثَاتِ ، وَيَضْوِي مِنْ مَغَانِينَا

ويقول أيضاً :

نَحْنُ أَلْيَوَاقِيْتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ أَلْتَشْتِيتِ غَالِينَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
إِذَا تَلَوْنَ كَالْحَرْبَاءِ شَانِينَا
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيزَانًا وَلَا صَعِدَتْ
فِي مَلَكْهَ الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وَادِينَا
أَلَمْ تَوَلِّهِ عَلَى حَافَاتِهِ ، وَرَأَتْ
عَلَيْهِ أَبْنَاءَهَا أَلْغَرَّ أَلْمِيَامِينَا ؟ !

* * *

ثم إن شوقي نفسه يعترف بالتطور الخطير الذي طرأ على نفسه ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إثر نفيه إلى الأندلس ، حيث يوضح أنه ، فضلا عن تأثره بالشعر الأندلسي ، كما ذكرنا منذ قليل . فقد اطلع على الأدب العربي بكامله ، وقرأ شعراءه جميعاً ، واختزن في وجدانه ما وقف عليه من مشاعر

وفِكَّر . فتراه يرد على سؤال وجهته اليه مجلة « الهلال » عام ١٩٢٩ عن أهم حادث أثر في حياته . وكان ذلك في عداد استفتاء أدبي عام أجرته المجلة المذكورة مع عدد من رجالات مصر . فيقول :

« إذا عُزي إلى الحرب الكبرى الكثير من التغييرات والانقلابات في أنظمة العالم . وشؤونه الاجتماعية والأدبية ، فإني أعزو إليها هذا الأثر العظيم الذي أحدثته في مجرى حياتي . وكان له فضلٌ كبير فيما نلتُه من مكانة في الأدب وامتلاك لخاصية الشعر العربي .

ذلك أنه لما وقعت الحرب الكبرى . وشمل العالم هذا الاضطراب الشديد . وانضمت تركيا إلى الألمان ، عمدت انكلترا إلى قلب نظام الحكم في مصر ، وأعلنت انتهاء حكم الخديوي عباس حلمي الثاني ، ثم أخذت تنفي عن مصر كل من لهم به صلة . فأمرني بالرحيل إلى اسبانيا ، فجمعت عائلتي واصطحبت مكتبي وسائر مرافقي . وغادرت مصر إلى برشلونة . . وأدخلت أولادي في بعض مدارسها الراقية ، ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربي . . فاستوعبت منها ما لم أكن قد استوعبته ، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول : إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنين الخمس التي مكثتها في اسبانيا .

وكننت في خلال ذلك أكتب ما يعنّ لي من نثر أو شعر ، فألفت جزءاً كبيراً من « أسواق الذهب » ، ونظمت قصيدة تاريخية تبلغ ألف بيت عن دول العرب من الجاهلية إل نهاية دولة بني عباس » (١)

* * *

(١) راجع مجلة « الهلال » - مجموعة عام ١٩٢٩ - السنة ٣٨ - الجزء الأول - عدد نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

أسواق الذهب

ومما يقوله شوقي في كتابه : « أسواق الذهب » الذي أشار إليه في حديثه إلى مجلة « الهلال » :

« إذا تعلمت فتأدب ، وإذا تأدبت فتعلم . فإن فقر العلم إلى البيان ، فقر الخطيب إلى اللسان . أو الكاتب إلى البنان . وإن حاجة البيان إلى العلم حاجة القلم إلى الأنامل . أو اليد إلى محرك من الحسّ عامل .

علم لا أدب معه ، عود بلا وتر . وسحاب ليس فيه مطر . وريحان غير نضر ولا عطر . وأدب لا علم معه . قالب ولا سبائك . ومنوال ولا حائك » .

أُتدري كان في هذا الكلام رجوعٌ لما في نفس شوقي من نفسه . إذ كان معروفاً عنه أنه لا يُحسن البيان . ولا يُتقن الخطابة . ولا يجيد الإلقاء . حتى لقد كان يكلف الآخرين ، في الاحتفالات . بإلقاء قصائده . خلافاً لحافظ إبراهيم الذي كان معروفاً بسيطرته على سامعيه : نظراً لما وهبه من مقدرة خطابية فائقة ، وطاقة بيانية مبدعة .

وفي « أسواق الذهب » ، يتحدث أحمد شوقي عن العمل . فيقول :
« متخذ الراحة عادة . مقضي عليه بالبلادة ، وضجيع الدعة ، ما أضيعه ، وما أشأم مضجعه ؛ ومحالف البيت . حيّ كميّ ؛ فيأخا اليسار ، الضياع والعقار : لا تبين قعيد الدار . ولا تخل بالنفس الأمانة ، وقم إلى مالك فأحسن استثماره . وزده إصلاحاً يزدك عمارة .

ويا أيها الضارع لفقره . الضائع في فقره . تأمل بعين الإفاقة . هل زادك التعمود لإذاقة ؟ إن باليد المتبطلّة لشللا . وإن مع القدم المتعطلة لزللا . قم فاحترف ، ولا تمشنّ خبالاً على قرابتك . عيالا على صحابتك . واعلم أن الكنتاس أشرف ممّن يسأل الناس » (١)

(١) راجع مجلة « الهلال » - ج ٢ - م ٣٥ - ص ١٣٨ - عام ١٩٢٦ .

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية وضعت أوزارها . فقد تلكأت الحكومة المصرية ، بوحى من الانكليز . في استدعاء الشاعر من منفاه ؛ حتى إذا آذن الله بإصدار العفو عنه . أبحر مع أسرته إلى جنوى . ومنها إلى البندقية . حيث استقل أول باخرة تبارح أوروبا إلى مصر .

وما إن بلغ القاهرة حتى خرج الشعب المصري عن بكرة أبيه ، يستقبله ، ويحتفي به ، ويروى أن الجموع حملته على الأعناق ، والدموع تنهمر من عينيه . فقد اعتبره شعبه بطلا من أبطاله . لا يهادن الاستعمار ، ولا يتواطأ مع الأعداء على حكام وطنه ولا على أبناء شعبه ، ولا ريب في أن هذا الاحتفاء الكبير بالشاعر الكبير كان له عظيم الأثر في نفسه . الأمر الذي جعله ، في شعره ، يتجه اتجاها جديداً يناقض اتجاهاه الأول ، يوم كان سجين قصر أسرة محمد علي .

سوفي وامارة الشعر

عاد أحمد شوقي من منفاه في الأندلس ، لا ليلتحق من جديد بقصر أسرة محمد علي . وإنما لينطلق في الآفاق الرحاب التي تتسع لشاعرية ما كان يتسنى لها أن تجوب كل جانب ، لولا تحررها من روتينية الوظيفة ، ومظاهر الرسميات ، بما فيها من مداورات وأباطيل وسفاسف ؛ وكيف يعود الشاعر إلى القصر . والانكليز هم حكام الشعب غير المرثيين . أو قُل المرثيين : الذين يكمنون الأفواه ، ويخرسون الأصوات إذا ارتفعت تطالب بحق ، أو تنتصر لقضية شعبية محقة ؟ !

صحيح أن شوقي غاب عن وطنه ، فأقام على حنين دائم ، وشوق لاهب ، يحمل إليها الذكريات الملاح . وتطوفُ الخيالات في خاطره ، أشباحاً ترسم أمام ناظره معالم العذاب القومي الذي تحسه مصر : حكاماً ومحكومين ، وتُبرز آثار المذلّة التي ترتع في ظلها بلاده ، على أيدي جلادي انكلترا وجلاوزتها ، ومن حالفها من دول أوروبية استعمارية غاشمة .

ولكن الشعب المصري لم يكن ، طيلة تلك الفترة ، مكتوف الأيدي ، متفرجاً ، ينظر إلى الأحداث . دون أن يتدخل فيها ، بل راح يناضل نضالاً مستميتاً ، ويذود عن كل شبر من أرضه ، دون اغتصاب المحتلين . وهكذا تخضب ثرى مصر بدماء بنيها ، وكتب الشعب المصري ملاحم البطولات بما قدّمه للأمة من ضحايا وقرايين . فكانت هذه الأحداث الجسام التي أملت بوادي النيل سبباً يضاف إلى الأسباب الأخرى التي دفعت أحمد شوقي

إلى حب بلاده ، وإلى حبّ شعبه ، والعطف على قضاياه ، ومن ثم على قضايا الشعب العربي في مختلف أقطاره .

وداع الأندلس

عاد شوقي إلى مصر ، بعدما ودّع ديار الأندلس بتحية عرفان الجميل ، والإقرار بالفضل :

وداعاً أرض أندلسٍ ، وهذا
ثنائي إن رضيت به ثوابا
وما أَثْنَيْتُ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ
وكم من جاهلٍ أَثْنَى فَعَابَا
تَخَذْتُكَ مَوْثِقًا فَحَلَلْتُ أَنْدَى
ذريٍّ من وائلٍ ، وَأَعَزَّ غَابَا
مَغْرِبُ آدَمٍ مِنْ دَارِ عَدْنٍ
قَضَاهَا فِي حِمَاكِ لِي أَغْتَرَابَا
شَكَرْتُ أَلْفُكَ يَوْمَ حَوَيْتَ رَحْلِي
فِيَا لِمُفَارِقٍ شُكْرُ الْغُرَابَا
فَأَنْتَ أَرْحَمَنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ
كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انْتِصَابَا

ومنظر كل خوانٍ يراني
بوجه كالبغيٍّ رمى النّقابا
وليسَ بعامرٍ بُنيانُ قومٍ
إذا أخلاقهم كانت خرابا !!

فكانت هذه التحية صدئاً للوفاء ، يعمر قلب الشاعر لبلاد أنقذته من
أنوف العداة ، وهي أشبه ما تكون بأنوف الأموات ، ومن مناظر الخونة
الذين يتطلعون بعيون من زجاج ، كما تتطلع الساقطة البغية ، بعد إذ رمت
النقاب . مؤمناً في كل حال أن الأوطان لا تسلم إلا إذا سلمت أخلاق
بنيها . أليس هو القائل :

وانما الأممُ الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبتُ أخلاقهم ذهبوا

لقاء الوطن

بعد ذلك يلتفت شوقي إلى وطنه ، فيودّ لو يستطيع أن يحسّده وأن يحسّد
أبناء شعبه معه في إنسانٍ فردٍ ، يزجيه كل ما في نفسه من الحب المصفى ،
والوداد المقيم :

ويا وطني لقيتُك « بعد يأسٍ
لجأني قد لقيتُ بك الشّبابا
وكلُّ مُسافرٍ سيووبُ يوماً
إذا رُزقَ السّلامة والإيابا
أديرُ إليك ، قبل البيت ، وجهي
إذا فهتُ الشهادة والمتابا !

ولا ينسى ، في زحمة العاطفة الحياشة . أن يذكر شباب مصر : وقد
خفوا لاستقباله ذلك الاستقبال الرائع ، تقديرأ له وإكبارأ . فيقول فيهم :

وحيا الله فتيانأ سداحأ

كسوا عطفي من فخر ثيابا
ملائكة إذا حفوك يوما

أحبك كل من تلقى وهابا
وإن حملتك أيديهم بحورا

بلغت على أكفهم السحابا
تلقوني بكل أغر زاه

كأن على أسرته شهابا
ترى الإيمان مؤتلفا عليه

ونور العلم والكرم اللبابا
وتلج من وضاعة صفحته

محيا مصر رائعة كعابا
وما أدبي لما أسدوه أهل

ولكن من أحب الشيء حابي !!

وكم كنا نتمنى أن نكتفي بهذا القدر من أبياته في قصيدته « بعد المنفى » ،
لولا أننا نطمح إلى تأكيد هذا الانقلاب النفسي والوجداني الذي انعكس
في شعر شوقي ، بعد نفيه وعودته . من ثم . إلى وطنه : فقد آلت ارسقراطية
القديمة إلى ديمقراطية حديثة . فلم يكتف بأن بارح دارته في « المطرية » إلى
« الجزيرة » : ولم يكتف أيضاً ببناء بيت آخر في الاسكندرية أسماه « درة الغواص
جاعلا منه مقصداً يؤمه : صيفاً وشتاء ، ليمتع النفس بمناظر الطبيعة الخلابة :
وليستعيد مشهد البحر الساحر الذي كان كحل عينيه به في ضاحية برشلونة ؛
بل تراه يثور على شعره القديم . ويخاطب شباب مصر بهذه اللغة :

شبابَ الأنيل : إِنَّ لَكُمْ لَصَوْتاً

ملبئى ، حين يرفع ، مُسْتَجَاباً

فهزوا « الْعَرْشَ » بالدعوات حتى

يخفف عن كنانته المصابا !

وينهي قصيدته بقوله :

ولم أرَ مثلَ سوق الخير كسباً

ولا كتجارة السوء اكتساباً

ولا كأولئك البؤساء شاء

إذا جوعتها انتشرت ذئاباً

ولولا البر ، لم يُبعث رسول

ولم يحمل إلى قوم كتاباً !!

إلا أنني أكاد أسمع مثل دويّ في أذني ، يحرف قول شوقي ، فيغدوا :
« فهِزُوا » « العرش » بالثورات حتي

يخففُ عن كُنائته المصابا

ولو قالها شوقي على هذه الصورة . لانسقت المعاني أكثر ، بالنسبة
لقلوله :

ولا كأولئك ألبُوساء شاء

إذا جوعتها انتشرت ذئابا

ولو قالها شوقي . لكنا نسميه « نذير الثورة وبشيرها » في آن معاً .

* * *

ولبت شوقي . بعد عودته من المنفى . ينظم الشعر على هذه الشاكلة : حتى
ذاعت شهرته أيما ذبوع ، وطار له صيت عظيم في جميع أقطار البلاد العربية ،
بعدما جعل شعره غنائاً عذباً يترنم به العرب في كافة أقطارهم . وبعدما غدا
ممثل مصر ، في أفراح العرب وأتراحهم .

إمارة الشعر

ثم إن شوقي اختير في عام ١٩٢٧ عضواً في مجلس الشيوخ المصري . وأعاد
في ذلك العام بالذات طبع ديوانه « الشوقيات » فانتهمز محبوه وأصدقاؤه
المناسبتين معاً لإقامة حفلة تكريمية انقلبت إلى مهرجان قومي عربي عظيم ، أعلن
فيه تنويع أحمد شوقي أميراً للشعر .

وقد اشتركت في الاحتفال وفود كثيرة عن الدول العربية . فتحدث
شاعر الأرز شبلي الملاط باسم لبنان ، ومحمد كرد علي باسم المجمع العلمي
العربي في دمشق . وأمين الحسيني باسم فلسطين ، وفندبرج المستشرق

البليجكي . والأمير شكيب أرسلان ، وحافظ إبراهيم باسم شعراء مصر
الذي أعلن . صراحة . مبايعة الشعراء المصريين والعرب لأحمد شوقي
بإمارة الشعر . علماً بأن ثمة من كان يميل إلى تفضيل أحد اثنين : حافظ
إبراهيم أو خليل مطران . على أحمد شوقي في إمارة الشعر . ولكن نبل كل
من حافظ ومطران . حمل إلى شاعر الأمير لقب « أمير الشعراء » بإجماع
شعراء وأدباء العربية المحترفين بتكريم أحمد شوقي .

والواقع أن كل ما قيل في مهرجان تكريم شوقي تضمن ألواناً من الأدب
الرفيع . والشعر العبقرى . يشيد كله بتفوق « أمير الشعراء » . وينثر على
دروبه الأزاهر والعطور . ولما كان حافظ إبراهيم هو الذي أعلن تتويج
الشاعر أميراً للشعر . فقد رأينا أن نكتفي بذكر قصيدة حافظ العصماء
التي قال فيها :

بلا بل وادي النيل بالشرق اسجعي

بشعر أمير الدولتين ورجعي

أعيدي على الأسماع ما غرّدت به

يراعة شوقي في ابتداء ومقطع

يراها له الباري فلم ينبُ سنّها

إذا ما نبأ العسال في كفّ أروع

مواقعها في الشرق والشرق مُجذب

مواقعُ صيب الغيث في كل بلقع

لديها وفودُ اللفظ تنساق خلفها

وفودُ المعاني خُشعاً عند خُشع

إذا رضيت جاءت بأنفاس روضة
 وإن غضبت جاءت بنكباء زعزع
 أحنُّ على المكدود من ظل دوحة
 وأحنى على المولود من ثدي مرضع
 على سنّها رفقٌ يسيلُ ورحمةٌ
 وروح لمن يأسى وذكرى لمن يعي
 تسابق فوق الطرس أفكار ربها
 سباقٌ جِياد في مجال مربع
 تطير بروق الفكر خلف بروقها
 تناشدها بالله لا تتسرعي
 تحاول فوت الفكر لو لم تكفها
 أنامله كفّ الجَموح المروّع
 ألم تعلموا أنّا بذخري نباغة
 نفاخر أهل الشرق في أي مجمع
 نفاخر من شوقينا ببراعة
 ونزداد فخراً من (علي) بمبضع
 فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه
 وتلك شفاء الواله المتوجّع

نَمَتَكَ ظِلَالٌ وَارْفَاتٌ وَأَنْعَمُ
وَلَيْنٌ عَيْشٌ فِي مَصِيفٍ وَمَرْبَعٍ
وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِ الْمُلُوكِ ثَوَاوَهُ
يَنْشَأُ عَلَى النِّعْمَى وَيَمْرَحُ وَيَرْتَعُ
لَنْ عَجَبُوا أَنْ شَابَ شَوْقِي وَلَمْ يَزَلْ
فَتَيَّ الْهَوَى وَالْقَلْبُ جَمَّ التَّمَتُّعِ
لَقَدْ شَابَ مِنْ هَوْلِ الْقَوَافِي وَوَقَعَهَا
وَإِتْيَانِهِ بِالْمَعْجَزِ التَّمَتُّعِ
كَمَا شَبَبَتْ هُودٌ ذُوَابَةَ أَحَدَدٍ
وَشَبَبَتْ الْهَيْجَاءُ رَأْسَ الْمَدْرَعِ
يَعِيبُونَ شَوْقِي أَنْ يُرَى غَيْرَ مَنْشَدٍ
وَمَا ذَاكَ عَنْ عِيٍّ بِهِ أَوْ تَرْفَعِ
وَلَكِنْ حِيَاءٌ لَمْ يَفَارِقْ طَبَاعَهُ
وَطَبَعَ الْكَرِيمَ الْحَرَّ فَوْقَ التَّطْبَعِ
وَمَا كَانَ عَاباً أَنْ يَجِيءَ بِمَنْشَدٍ
لَايَاتِهِ أَوْ أَنْ يَجِيءَ بِمَسْمَعِ
فَهَذَا كَلِيمُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ قَبْلَهُ

بهارون ما يأمره بالوحي يصدع

* * *

بلغت بوصف النيل من وصفك المدي

وأيام فرعون ومعبوده (رع)

وما سقت من عاد البلاد وأهلها

وما قلت في أهرام (خوفو) و (خفرع)

فأطلعته شوقية لو تنسقت

مع النيرات الزهر خصت بمطلع

أ (من أي عهد في القرى) قد تفجرت

ينابيع هذا الفكر أم (أخت يوشع)

وفي (توت ما أعبي) ابتكار موفق

وفي (ناثيء في الورد) إلهام مبدع

أسالت (سلا قلبي) شوؤني تذكراً

كما نثرت (ريم على القاع) أدمعي

و (سل يلدزاً) إني رأيتُ جمالها

على الدهر قد أنسى جمال المقنع

أطلت علينا (أخت أندلس) بما

أطلت فكانت للنهي خير مشرع

وفي نسج (صدّاح) أتيت بآية
من السهل لا تنقاد لابن المقفع
ورائع وصف في (أبي الهول) سقته
كبستان نور قبل رعيك ما رُعي
خرجت به عن طوق كل مصورٍ
يجيد دقيق الفن في جوف مصنع
وفي (انظر إلى الأقمار) زفرة واجد
وأَنَّهُ مقروح الفؤاد موزّع
بكيت على سر السماء وطهرها
وما ابتذلوا من خدرها المترفع
شياطين أنس تسرق السمع خلصةً
ولا تحذر المخبوء للمتسمع
وسينية للبحثري نسختها
بسينية قد أخرست كل مُدّع
أتى لك فيها طائعاً كل ما عصى
على كل جبار القريحة ألمعي
شجا البحتري إيوان كسرى وهاجه
وهاجت بك الحمراء أشجان موجه

وقفت بها تبكي الربوع كما بكى
 فيا لكما من واقفين بأربع
 فنسجك كالديباج حلاه وشيه
 وفي النسج ما ياتي بثوبٍ مرقع
 وشعرك ماء النهر يجري مجدداً
 وشعر سواد الناس ماء بمنقع
 أأفضى إلى ختم الزمان ففضّه
 من الوحي والإلهام أم قول لودعي
 و(قلبي اذكرت اليوم غير موفق)
 رُقي السحر أم أنات أسوان مولع
 تملك من ملك القريض فسيحه
 فلم تُبقِ يا شوقي لنا قيداً أُصبع
 فبالله دع للنّاثرين وسيلةً
 تفيء عليهم واتق الله وأقنع
 عملت على نيل الخلود فنلته
 فقل في مقام الشكر: يارب أوزع

جلا شعره للناس مرآة عصره
 ومرآة ماضي الشعر من عهد تبع
 يجيء لنا آناً (بأحمد) ماثلاً
 وآونة (بالبحري) المرصع
 ويشأو رقي (هوجو) ويأتي نسيبه
 لنا من ليالي (ألفريد) بأربع
 وإن خطرت ذكرى الفحول بفارس
 وما خلفوا في القول من كل مشبع
 أتنا بروضٍ مزهر من رياضهم
 (وحافظهم) فيه يغني ويرتعي
 فقل للذي يبغي مداه منافساً
 طمعت لعمر الله في غير مطمع
 فذلك سيف الله قاطعاً
 فأيان يضرب يفرّ درعاً ويقطع
 وهل تدفع الدرع المنيعه صارماً
 به يضرب المقدار في كف سلفع

* * *

نُفِيتَ فلم تجزع ولم تك ضارعاً
ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
وأخصبتَ في المنفى وما كنت مجدباً
وفي النفي خصب العبقري السميع
لقد زاد (هوجو) فيه خصب قريحة
وآبَ إلى أوطانه جد ممرع
وأدرك (سامي) بالجزيرة غابةً
إليها ملوك القول لم تتطلع
تذكرت عذب النيل والنفس صبةً
إلى نهلةٍ من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستسقي بني مصر شربةً
فقطعت أحشائي وأضرمت أضلعي
أنروى ولا تروى وأنت أحقنا
بري ! فيا قلب النبوغ تقطع
وإن شئت عنا يا سماء فأقلعي
ويا ماءها فاكفف ويا أرض فابلعي

حرامٌ علينا أَنْ نلذَّ بنهلهِ
 وَأَنْتَ تنادينَا ونحنُ بمسمعٍ
 أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَرُدَّكَ سَالِماً
 وَمَنْ يَرَعَهُ يَسْلَمْ وَيَغْنَمُ وَيَرْجِعُ
 وَعَدْتَ فَقَرَّتْ عَيْنُ مَصْرٍ وَأَصْبَحَتْ
 رِيَاضُ الْقَوَافِي فِي ربيعِ مَوْشَعٍ
 وَأَدْرَكَتْ مَا تَبْغِي وَشِدَّتْ أَيْةُ
 بَكُوراً بَرِيّاً عَرَفَهُ الْمُتَضَوِّعُ
 حُمَى يَتَهَادَى النِّيلُ تَحْتَ ظِلَالِهِ
 تَهَادَى خَوْدٍ فِي رِداءٍ مُجَزَّعٍ
 لَقَدْ كُنْتَ تَرْجُو مِنْهُ بِالْأَمْسِ قَطْرَةً
 فَدُونَكَ فَا بَرْدُ غَلِيلِكَ وَانْقِعَ

* * *

أَمِيرَ الْقَوَافِي قَدْ أَتَيْتُ مُبَايَعاً
 وَهَذَا وَفُودُ الشَّرْقِ قَدْ بَايَعَتْ مَعِيَ
 فَغَنٌّ رُبُوعِ النِّيلِ وَاعْطَفَ بِنَظَرِهِ
 عَلَى سَاكِنِ النُّهْرَيْنِ وَاصْدَحَ وَأَبْدَعَ

ولا تنسَ نجداً إنها منبت الهوى
 ومرعى المها من سارحات ورتع
 وحيّ ذري لبنان واجعل لتونس
 نصيباً من السلوى وقسم ووزع
 ففي الشعر حث الطامحين إلى العلا
 وفي الشعر زهد الناسك المتورع
 وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه
 كما روع الأعداء بيتاً لأشجع
 وفي الشعر إحياء النفوس وريها
 وأنت لري النفس أعذب منبع
 فنبه عقولا طال عهد رقادها
 وأفئدة شدت إليها بأنسع
 فقد غمرتها محنة فوق محنة
 وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع
 وأنت بحمد الله ما زلت قادراً
 على النفع فاستنهض بيانك وانفع
 وخذ بزمام القوم ونزع بأهله
 إلى المجد والعلواء أكرم منزع

وقفنا على النهج القويم فإننا
 سلكنَا طريقاً للهدى غيرَ مهيمع
 ملأنا طباقَ الأرضِ وجداً ولوعةً
 بهند ودعد والرباب وبوزع
 وملّت بنات الشعر منّا مواقفاً
 بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
 وأقوامنا في الشرق قد طال نومهم
 وما كان نوم الشعر بالمتوقع
 تغيّرت الدنيا وقد كان أهلها
 يرون متونَ العيسِ أليّن مَضجع
 وكان بريد العلم عيراً وأينقاً
 متى يُعيها الإيجافُ في البید تظلع
 فأصبحَ لا يرضى البخارَ مطيّةً
 ولا السلك في تياره المتدفع
 وقد كان كل الأمر تصويب نبلة
 فأصبحَ بعضُ الأمرِ تصويب مدفع
 ونحنُ كما غنى الأوائل لم نزل
 نغني بأرماح وبيضي وأدرع

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
شيء جديد حاضر النفع ممتع
لدى كل شعب في الحوادث عدة
وعدتنا ندب التراث المضيع
فيا ضيعة الأقلام إن لم نُقم بها
دعامة ركن المشرق المتزعزع
أتمشي به شمّ الانوف عُداته
ورب الحمى يمشي بأنفٍ مجدّع
عزيز عليه يا بني الشرق أن يرى
كواكبه في أفقه غير طلّع
وأعلامه من فوقه غير خُفّق
وأقلامه من تحتها غير شرّع
وكيف يوقى الشرّ أو يبلغ المنى
على ماترى من شمله المتصدع
فإن كنتَ قولاً كريماً مقاله
فقل في سبيل النيل والشرق أو دَع

بعدئذ ، وقف أحمد شوقي ، وقد أحسَّ أن أمته أعطته أقصى ما ينبغي
النفس به ، ليشكر المحتفلين بتكريمه ، في قصيدة تعدُّ من عيون شعره ،
يقول فيها :

مرحباً بالربيعِ في ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه
رَفَّت الأرضُ في موكبِ آذا
ر ، وشبَّ الزمانُ في مهرجانه ،
نزلَ السهل ضاحك البشر يمشي
فيه مشي الأمير في هُستانه
عادَ حلياً براحتيه ، ووشياً
طول أنهاره ، وعرضُ جنايه
لَفَّ في طيلسانه طُررَ الأَر
ض ، فطابَ الأديمُ من طيلسانه ،
ساحرٌ فتنَةُ العُيونِ مبینُ
فَصَّلَ الماءُ في الرُّبى بجمانه
عبقريُّ الخيال ، زاد على الطَّيِّ
ف ، وأرَبَى عليه في ألوانه

صبغة الله أين منها رفائي—
 لُ ومنقاشه وسحرُ بنانه
 وشدت في الربى الرِّياحين همساً
 كتغني الطروب في وجدانه
 كل ريحانة بلحن كُرس
 ألفت للغناء شتى قِيانه
 نغم في السماء والأرض شتى
 من معاني الربيع أو ألحانه
 ثم يقول :

ربَّ جارٍ تلفتت مصرُ تولى—
 هـ سؤال الكريم عن جيرانه
 بعثني معزياً بمآقي
 وطني ، أو مهنئاً بلسانه
 كان شعري الغناء في فرح الشر
 ق ، وكان الغزاء في أحزانه
 قد قضى الله أن يولِّفنا الجر
 ح ، وأن نلتقي على أشجانه

كَلَّمَا أَنَّ بِالْعِرَاقِ جَرِيحُ
لَمَسَ الشَّرْقُ جَنْبَهُ فِي عِمَانِهِ
وَعَلَيْنَا كَمَا عَلَيْكُمْ حَدِيدُ
تَتَنَزَّى اللَّيْثُ فِي قَضَبَانِهِ
نَحْنُ فِي الْفِكْرِ بِالْدِّيَارِ سَوَاءُ
كَلَّنَا مُشْفِقٌ عَلَى أَوْطَانِهِ !

ألا ما أصدق شوقي ، وما أصدق شعره من مرآة تعكس حقيقة ما يقوله
عن نفسه :

كَانَ شِعْرِي الْغِنَاءَ فِي فَرْحِ الشَّرِّ
قِ ، وَكَانَ الْعِزَاءُ فِي أَحْزَانِهِ

* * *

وَكَاثِمًا لَا كِرَامَةَ لِنَبِيِّ وَطَنِهِ حَقًّا !

وَكَاثِمًا لَا تَكْرِيمَ يَصِفُو لِشَاعِرٍ !

فَقَدْ انْقَلَبَتِ مِصْرُ ، يَوْمَئِذٍ ، إِلَى مَهْرَجَانٍ عَرَبِيٍّ عَظِيمٍ ، لَا يَحْتَفِي
بِشَوْقِي ، إِنْسَانًا ، أَوْ أَمِيرًا لِلشَّعْرِ ، بَلْ بِشَوْقِي ، صِنَاجَةً لِلْعَرَبِ ، عَلَى أَوْتَارِهَا
تَوْقَعُ أَلْحَانَ الْأَمَلِ وَالْأَلَمِ ، أَلْحَانَ الْفَرْحِ وَالْتَرَجِ ، تَعَزِّفُهَا أَنَا مِلُّ شُعْرَاءِ الْوَطَنِ
الْعَرَبِيِّ وَأَدْبَاؤُهُ عَلَى اخْتِلَافِ مَبُولِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ .

وَمَعَ هَذَا اشْتَرَكَ بَعْضُ زَمَلَانِهِ ، فِي مِصْرَ ، بِتَكْرِيمِهِ ، تَكْرِيمًا مِنْ نَوْعِ
آخِرٍ .

فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَشَارِكُوا الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ احْتِفَاءً بِأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ ، بِضَفَرِ أَكَالِيلِ
النُّورِ وَالرِّيَاحِينَ ، رَاحُوا يَعْصِبُونَ هَامَ إِمَارَةِ الشَّعْرِ ، وَأَمِيرِ الشَّعْرِ ، بِأَكَالِيلِ

الشوك والعوسج ، ويهاجمونه ، ساخرين منه ومن قصيدته البديعة التي ألقاها في يوم تكريمه .

ونسارع إلى القول ، في هذا الصدد ، أن من أيسر الأمور أن ترى الحبة قبة ، إذا شئت ، أو أن تحوّل القبة إلى حبة إن رغبت ، كما أن من السهولة بمكان أن تطرب ، إن أحببت ، لببت شعر رائع الواقع والأداء ، أو أن تستهجن جرسه وموسيقاه ومعناه ، إن أردت . ولكن موقفك ، إن جاء خلواً من الموضوعية والتجرد ، يبقى خاصاً بك ، وتبقى الحبة حبة ، والقبة قبة . ولا يفقد الشعر جماليته ، بشطحة قلم ناقد ، ولا يكتسب الهراء من القول قيمة شعرية ، ولو أضفيت عليه من المادح والزلفى ضروراً وألواناً .

ومن الذين انصبت على شوقي حمم نقدهم اللاذع ، كالعادة ، عباس محمود العقاد الذي بدا ، فيما كتبه ، وكأنه يريد أن ينتقم من الخفاوة والمحتفى به والمحتفين على السواء ، فإذا به يتخذ قصيدة شوقي ذريعة للهجوم ، فيقول : « ولندع من الأبيات ما يرادف نداء الباعة في الأسواق : « بالورد الجميل ، والفل العجيب ، والتمر حنّاً روايح الجنة » ، ولننظر ما بقي فيها من دلائل الإحساس بالربيع والامتزاج بالطبيعة والشغف بالجمال في موه الجمال والحياة .

كل ما يبقى ، بعد ذلك ، أن الربيع يمشي في السهل مشي الأمير في بستانه ، وأن صبغة الله أجمل من صبغة رفائيل . فأما أن الربيع يمشي في السهل مشي الأمير في بستانه ، فيصحّ أن تكون كلمة موظف في شارة الوظيفة ، لا كلمة إنسان في نشوة السرور بجمال الحياة وسكرة الفرح بالأشواق ، والآمال ، والذكريات ، والأشجان ، وهي لا شيء من حقيقة ، ولا من تمويه ، ولا شيء من زينة صحيحة . ولا من زينة مزيفة ، ولا شيء من عيان بالنظر أو تصوّر بالخيال ، فمشية الأمير في بستانه كمشية كل إنسان في كل بستان ، والأمير لا يكون على أجمل حالاته هناك ، لأنه قد يمشي في مبادله التي لا تميزه عن سائر الناس . .

والربيع ، بعد ، هو البستان فهلاً قال شوقي إن الربيع يمشي في الربيع ، مشية الأمير في الأمير . والأمير أيضاً قد يكون شيخاً فانياً ، لا حسن فيه ولا عاطفة ، وقد يكون فتى دميماً لا بهجة له . ولا وسامة ، وقد يكون أميراً كأمر الشعراء له حسن فيه ولا عبقرية ، ولا أشعار ولا ألحان . فماذا من إحساس الانسان ، فضلاً عن الانسان الشاعر في ذلك التشبيه الذي جعل لنا الربيع ملحقاً بالميرانية والتشريفات والدواوين ؟

وأما أن صبغة الله خير من صبغة رفائيل ، فكلمة لا دليل فيها على إحساس بالطبيعة ، ولا إحساس بالفنون ، كلمة فيها من الغباء ما يكشف عن عامية مطبقة ، وجهل بعيد القرار ، فالعامية المسفون هم الذين يفهمون أن طلاوات الصور أجمل من صبغة الطبيعة ، ويحتاجون إلى من يقول لهم إن تلوين الله أجمل من تلوين رفائيل . أما النفس التي تذوق جمال الطبيعة ، وتذوق جمال الفن ، فليست تحتاج إلى من يقول لها كيف أن الأصباغ في الرياض أجمل من الأصباغ في الطروس ، وليست تفهم أن الفن بهرجة ألوان تغالب ألوان الأزهار والأنوار .

ثم أي معنى عميق أو قريب لأن تقول للناس إن صبغة الله أجمل من صبغة رفائيل إلا أن تكون ممن يفهمون فهم العامة للطبيعة والفنون ؟ ثم هل كان رفائيل . بعد كل هذا . مصوراً مفتناً في تصوير الرياض والأزهار ؟ لا ، بل كان الرجل مصور وجوه وشخوص مقدسة ، برع فيها براعته ، ولم يضرب به المثل قط في تصوير الرياض والأزهار ، فلا حسن هناك بالطبيعة ، ولا ذوق للفن ولا علم بالتاريخ . فإن كان ثم إمارة « كذابة » في الدنيا ، فهي إمارة هذا الذي لا يكفيه أن يُعَدَّ شاعراً ، حتى يُعَدَّ أمير الشعر ، وحتى يقال إنه عنوان لأسمى ما تسمو اليه النفس المصرية من الشعور بالحياة » (١)

(١) راجع « ساعات بين الكتب » لعباس محمود العقاد - صفحة ١٠٩ .

وطبيعي أننا إذ نقرأ نقد العقاد ، بل تهجمه ، لنكاد لا نقوى على الاستمرار معه إلى آخر المطاف فيما أسبغه على شوقي من نعوت الغباوة والاسفاف والعامية ، وفي إنكاره على شوقي حتى مجرد الحسّ والشعور ، وأخيراً في الاستخفاف به أميراً للشعر ، بل شاعراً كبيراً .

والحقيقة أن تشبيه شوقي للربيع بالأمير ، إنما هو من جهة الشبه القائم بينهما في زهوه وكبريائه . لا في كهولته التي لم يستطع العقاد أن يلتفت إلى غيرها .

أما أن يكون قول كهذا . شبيهاً ومرادفاً لنداءات الباعة في الأسواق ، أو للغة الوظائف والدواوين ، فذلك تحامل على شوقي لا نقره ، إلاّ أن يكون المقصود صنمية الحكم ، يومذاك ، وبهذا فقط يكون للعقاد مبرر لقول ما يقول .

وأما محاولة العقاد الانتقاص من قيمة شعر شوقي ، لأنه أورد ذكر رفايل ورسومه . فهو إن لم يكن تجاهلاً من العقاد لقيمة رفايل الفنية ، على الصعيد العالمي . فإنه ، ولا ريب . جهل بـكأنه رفايل الذي يُعدّ نادرة من نادر العبقريّة الفنيّة في العالم .

وعليه يكون ذكر رفايل ورسومه ، في قصيدة شوقي ، رجماً للثقافة الفنيّة التي يتحلّى بها أمير الشعراء ، لا للغباوة والاسفاف ، كما شاء العقاد أن يقول أو أن يتقول .

وفي أي حال ، لم يكن من شأن هذه الانتقادات . على ما فيها من تحجّج ، أن توقف عبقرية شوقي ، ولعلّها آلمته ، وهو يرى الظلم يأتيه من أقرب الأدياء إليه . أعني من أدياء بلده ، وهو ظلم « أشدّ مضاضة على القلب من وقع الحسام المهند » . ولكن ألمه هذا كان دافعاً له إلى التجديد ، ومعالجة ألوان لم تذع في الأدب العربي ، كالشعر القصصي . والخرافي ، والتمثيلي ، متأثراً بشعراء فرنسا ، كفيكتور هوجو ، ودي موسيه ، ولا فونتين وسواهم ، وهذه الظاهرة سوف تكون موضوعاً لحديث آخر عن أحمد شوقي .

كلمة حول «الأمارة»

والواقع أن لنا حول «إمارة الشعر» كلمة ، ينبغي أن نقولها بصراحة . لئلا نترك لقائل مجالاً . بعد . لانتقاد أو تداؤل .

إن إمارة الشعر ، في رأينا ، بدعة جديدة لم يعرفها الأدب العربي إلا في القرن العشرين وحسب . ولقد عرفها ، حتى الآن ، مرتين : الأولى في مهرجان تكريم شوقي بالقاهرة . حين بايع حافظ إبراهيم زميله أحمد شوقي قائلاً :

أمير القوافي ، قد أتيتُ مُبايعاً
وهذي وفودُ الشرقِ قد بايَعَتْ مَعِي

والثانية : حين بايع صالح جودت زميله بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في مهرجان تكريمه ببירות . قائلاً : «...وعقدنا له لواء الأمارة» .
وقرأنا قصيدة لأحمد شوقي ، لم نطلع عليها في ديوانه ، بل في مقدمة حد دواوين الشاعر الكبير الصديق الأستاذ أمين نخلة . يقول عن أمين ، في مطلعها :

هذا وليٌّ لعهدي وقيم الشعر بعدي ..

نقول إن إمارة الشعر بدعة ، لا انتقاصاً منها . أو من قيمة اللذين انعقد لهما لوائها ، وإنما للتدليل على أنها ظاهرة طريفة لم يؤمن بها العرب ، شعراء وأدباء وأشخاصاً عاديين ، حتى في أقدم العصور . وأعرقها عهداً بالحكم المائكي والاقطاعي الذي يقيم الناس ، ويصنّفهم ملوكاً ، وأمراء . ووزراء . ورعاعاً .

ولقد يكون مقام شوقي السياسي والأدبي ، واتصاله بقصور ملوك مصر .

وما له من الدالة والسطوة ، يومذاك ، فضلاً عن غزارة إنتاجه القيم ، سبب تأميره على الشعر والشعراء ، في زمانه .

كما قد يكون جهاد أبي عبد الله : الأخطل الصغير ، ووطنيته وشاعريته دافعاً إلى تأميره هو الآخر ، على لسان صالح جودت .

ولكنّ التكريم ، أياً كان مداه ، لا ينبغي أن يصل إلى حدّ تصنيف الشعراء ، وتقديم بعضهم بالألقاب على بعضهم الآخر ، لأن شوقي والأخطل الصغير لم يكونا ، في كثير من مجالات الشعر ، أقدر وأبلغ أو أثبت قدماً في الفن والفكر . من غيرهم من الشعراء الذين عاصروهما .

ولقد نفهم أن يتوّج شوقي أميراً للشعر . في عهد الممالك والإمارات ، وبدوافع سياسية وغير سياسية ، حين كان شوقي في قمة العطاء الفكري الخلاق . ولو جاء تنويجه قبل وفاته بخمس سنوات ، لأن شوقي لم ينقطع عن العطاء حتى أواخر أيامه (١) على أننا لا نفهم كيف يتوّج الأخطل الصغير ، أميراً جديداً للشعر ، وعلى لسان شاعر دحرج وطنه التيجان والعروش ، في عصر الديمقراطية والجمهوريات والمساواة بين الأفراد جميعاً ، وفي وقت كان « الأمير » شبه منقطع فيه عن النظم ، حتى لم يستطع أن ينظم لمناسبة تكريمه سوى أبيات قلائل ، مطلعها :

أَيُّومَ أَصْبَحْتُ لَا شَمْسِي وَلَا قَمَرِي

مَنْ ذَا يَغْنِي عَلَيَّ عَوْدَ بِلَا وَتَسْرِ

إذن ، نحن مع التكريم ، حين يكون تقديرًا لعبقرية رجل ، وإكباراً لعطاء شاعر إنسان ، وإذ ذاك تشترك الأمة كلها في التكريم والتقدير والإكبار . أما أن تصبح نتيجة التكريم تصنيفاً للشعراء ، جارحاً ، فذلك ما نحسب أن المكرّم ذاته هو أول من يرفضه معنا ، ويتصدى له .

(١) في كتاب « المسرحية في شعر شوقي » ، ذكر محمد حامد شوكت أن شوقي ألف سبع مسرحيات لم يكمل الأخيرة منها .

ولقد كان هذا مدار حديث مطول بيني وبين صديقي المغفور له الأخطل الصغير ، رحمه الله ، في مكتبته بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٦١ . بعدما أهدى إلي نسخة من ديوانه الشعري ، وذلك بعد أسابيع من تتويجه أميراً للشعراء .

وتفصيل ذلك أنني ، مع محبتي البالغة ، ومشاركتي العملية في تكريم الأخطل الصغير . عمدتُ ، عملاً بحرية النشر ، إلى نشر تصريح في جريدة « بيروت المساء » التي كنت رئيساً للقسم الأدبي فيها . أدلى به الأديب الفيلسوف الأستاذ ميخائيل نعيمة . مؤداه أن « إماراة الشعر تجليط » . وأنها انتهينا من عهود الممالك والامارات إلى غير ذلك من الانتقادات التي حسبها الأخطل الصغير ، رحمه الله ، عليّ وكاد يحصيني في عداد المتحاملين عليه . لولا إيضاح مطوّل جرى أثناء حديثنا الملمع اليه ، وعمدتُ ، بعد ذلك ، إلى إفساح المجال أمام الأخطل الصغير للتعبير عن آرائه في الصفحة ذاتها ، عملاً بحرية النشر ، والكتابة ، والرأي .

ونجدد القول أن ما نادى به . ههنا . من انتقاد لمبدأ الأخذ بإماراة الشعر . الشعر ، ليس افتئاتاً أو انتقاصاً من الأميرين الشعارين اللذين نؤمن أنهما ربما كانا أحقّ بالإماراة السياسية ، من كثير من الأمراء القدامى والمحدثين . نظراً لما كانا يتحليان به من كفاءات عالية . ولربما تنبّه شعراء العربية وأدباؤها ، بعد الآن ، إلى ضرورة الإقلاع عن عادة التأخير . والتصنيف . إذ لا فضل ، في مجال الفكر ، لأحد على أحد . إلاّ بمقدار عطائه الأدبي العظيم .

تبقى كلمة ثانية ، فيما عني هذا الذي قرأناه لشوقي في مقدمة ديوان أمين نخلة ، وعن أمين نخلة بالذات . فإننا لا نشك مطلقاً بعلمو كعب أديب العرب الأستاذ الكبير الصديق أمين رشيد نخلة في ميدان النثر والشعر . لاسيّما وهو وريث أمير الزجل اللبناني المرحوم رشيد نخلة . واضع النشيد الوطني اللبناني ، إلاّ أننا لا نعتقد أبداً بأن من حقّ أمير الشعر . أو أي شاعر آخر ، أن يوزع ألقاب الوجاهة الشعرية هنا وهناك . أو أن يورث اللقب شاعراً

آخر ، لأنَّ الإمارة الشعرية هي ، من حيث المبدأ ، بدعة ، كما ألمعنا ، وهي ، على سبيل الاستطراد والاستثناس لا يمكن أن تتم إلاَّ ببيعة عامة من شعراء العربية ، على اختلاف أقطارهم على افتراض ان ثمة إمارة وبيعة .

والمهم . في كل حال . أن تكون قوافي الشاعر في الخوالد البواقى : سواء لقب « أميراً » أو كني « صعلوكاً » ، إذ فيض الشاعرية . وصادقها ، وعمق تأثيرها ، لا يرتبط في قليل أو كثير بالألقاب والكنائيات .

شاعرية شوقي

إن من يستعرض حياة أحمد شوقي الشعرية ، ويتابع الأغراض العديدة التي حفلت بها قوافيه ، لا يسهه إلا أن يقف معجباً ، مندهشاً ، أمام السرعة الفائقة التي كانت أفكار شوقي تنتظم فيها قصيدة عصماء ، تلقى في حفل أو مهرجان ، وتشر في جريدة أو مجلة ، فتغطي على ما عداها من القصائد والخطب ، وإن كان ملقبها غير صاحبها .

وأشد ما يثير إعجابك وعجبك معاً ، وأنت تطالع قصائد شوقي ، روعة السرد ، وأسر العبارة والفكرة على السواء ، حتى لو طُلب إلى غير شوقي أن يعبر بالنثر عما يذيعه شوقي في الناس ، بالشعر ، لما حالفه التوفيق إلى سكب المعاني في قوالها مثلما حالف التوفيق شوقي .

لا بل نحن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنرى أن مجرد المقارنة السريعة ، والمفاضلة بين شعر شوقي ونثره ، يكشف عن تكلف واضح في نثر شوقي ، بما فيه من سجع غير موفق ، في غالب الأحيان ، وبما فيه من التواء الأسلوب ، واعوجاجه ، هذا التكلف الذي لا تكاد تلمح شيئاً منه في شعر شوقي ، إلا لمساماً .

ولقد تسنى لنا أن نطلع في « الشوقيات » ، بأجزائها الأربعة ، على بعض نثر شوقي ، وعلى معظم شعره ، كما تسنى لنا أن نطلع على فصول من كتابه « أسواق الذهب » الذي كتبه في منفاه ، فلاحظنا أن ما كتبه شوقي من النثر كان ، في غالب الأحيان ومضات خاطر ، سريعة ، فهو لا يلبث أن ينتقل من خاطرة إلى خاطرة ، ومن فكرة إلى فكرة ، حتى لتقع في الصفحة الواحدة من « أسواق الذهب » مثلاً ، على أكثر من أربعة عناوين لأربعة مواضع

مختلفة . وغني عن القول أن لشوقي من القصائد الطوال ما يستغرق صفحات و صفحات .

فإذا أدركنا ، فوق هذا ، أن «أسواق الذهب» كتب بشيء من التأنّي ، فجاءت مواضعه بمثل القصر الذي ألمعنا إليه ، وأن قصائده كانت تُنظم بأسلوب يشبه الارتجال إلى حد بعيد ، وجدنا أنّ من الواجب محاولة تفسير هذه الظاهرة في أدب شوقي .

مُخلق شوقي شاعراً لا ناثراً

وتفسيرها البسيط ، في رأينا ، أنّ شوقي مُخلق ليكون شاعراً ، ولم يُخلق ليكون ناثراً ؛ فإذا هو كتب الشعر أو أملاه على كاتبه ، كان كالبحر الدافق ، الزاخر بالمعاني والمشاعر ، المتعمق في استنتاج العبر من حياة الناس ، أفراداً وجماعات ، ومن أحداث المجتمع ، على ألوانها وأنواعها . ولكن متى يسع إلى النثر ، تتعثر به قدماه ، ولكن لا يعجزه الوصول إلى حرمة ، في كل حال ؛ وبذلك تبدو كتابته النثرية مشوبة بألوان الزخرف والبديع ، وهذه كلها صناعة لفظية متسرّبة إلى عصر النهضة الذي بدأ بأمثال شوقي ، من عصر الانحطاط الأدبي .

بمعنى آخر ، إنّ الشعر كان ملكة وطبعاً في أحمد شوقي ، ولم يكن النثر كذلك . ولا نستبعد أبداً أن يكون لعمله ، رئيساً للقلم الافرنجي بمعية الخديوي عباس ، أثره في تخفيف نثر شوقي ، ضمن قوالب جامدة لا حياة فيها ، بينما لم يؤثر ذلك على شعره الذي كان متنفساً له ، من خلال روتينية الوظيفة وقيودها . فشوقي ، في رسالته التي قدّم بها لقصيدته «أنس الوجود» والتي وجهها إلى روزفلت ، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركية ، يلمّح إلى ذلك بقوله له :

«أتأذن لرجلٍ تعود أن يخرج عن دائرة «الموظف» ، كلما عرضت حال

يخدم الوطن ، فيها ، الرجال ، أن يرفع لشعره ذكره ، ويشرف قدره ،
 مهدياً اليك منه هذه القصيدة في لغة « الضاد » وهي مما قلت في « أنس الوجود »
 ذلك الأثر المحتضر الذي جمع العبر ، ومجاهد الدهر أو كاد . . . » (١)
 ولم يكن أحداً من الشعراء ليجاري شوقي في حضور البديهة ، وسرعة
 النظم ، حتى لقد قال داود بركات ، وهو يومذاك رئيس تحرير جريدة
 « الأهرام » :

« كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً ، فلا يحلّ المساء حتى تُذاع
 بين الجمهور بقصيدة شوقي ، لأنه كان للحوادث تأثير شديد عليه ، يهز
 أعصابه ويستثير نفسه ، ويحفز خياله ؛ وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش
 أو واقف أو جالس إلى أصحابه ، يغيب عنهم بذهنه ، وفكره ؛ فقلما
 يجلس إلى مكتبه للتفكير وعصر الذهن ، فإذا جلس إلى المكتب فلتدوين
 ما يكون قد نظم واستوعبه في ذاكرته ، فبين سيكارة وأخرى يجد فكرته ،
 وبين كلمة وأخرى يجد الظرف الموافق لهيكل الفكرة » (٢) .

وطبيعي أن من كانت هذه حاله ، فهو لا يفرق بين ليل ونهار ، بين
 مكتب أو منزل ، بين قاطرة أو سيارة ، بين شاطئ نهر ، أو روضة
 زهر ، لنظم القصيدة بل القصائد الطوال . اسمع كاتبه أحمد عبد الوهاب
 أبو العز يذكر ذلك فيقول :

« مرة . منذ عشرة أعوام (سنة ١٩٢٢) جاء من منزله في المطرية ، فوجدني
 بالمكتب في الساعة الحادية عشرة ونصف ، فأملئ عليّ ثمانية وعشرين بيتاً
 من قصيدته التي مطلعها : « قمي يا أخت يوشع خبرينا » ، ثم قال لي : « لا تبعد
 عني ، حتى إذا جاءني شيء أمليته عليك » .

وخرج يمشي حول العمارة ، فكان كل بضع دقائق يعود فيُملئ عليّ

(١) راجع « الشوقيات » - الجزء الثاني - صفحة ٥٣ .

(٢) راجع « ذكرى الشاعرين : شاعر النيل وأمير الشعراء » جمع أحمد عبيد - المكتبة العربية

في دمشق - صفحة ٣٧٠ .

خمسة أو ستة ، أو سبعة أبيات ، وأخيراً دخل المكتب ، وجلس على مقعد ، وأخذ يمرّ براحته اليسرى على رأسه ، ففهمت أنه ينظم في سرّه ، لأنه كثيراً ما كان يفعل ذلك أثناء النظم . ثم قال : « اكتب » ، فكتبت ، وكتبت ، ونظرنا الساعة ، فإذا هي الواحدة بعد الظهر ، فقال : « كفى . أعطني ما كتبت ، لأبني على موعد في هذه الساعة مع داود » (١)

فقدّمها له . بعد أن عددت أبياتها ، ووجدتها أربعة وثمانين بيتاً .. وقال لي صديق له : « لقد لازمته في ليلة في مطعم « دي لا برومينات » على كوبري وقصر النيل » ، وكان ذلك قبل الحرب ، فشرع يعمل في قصيدة « النيل » ، وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيّل ، ويسير في الجزيرة بضع دقائق ، ثم يعود إلى المنضدة التي كان يجلس إليها ، فيكتب عشرة أبيات أو اثني عشر بيتاً ، وهكذا حتى انتهت القصيدة في ليلة ، إلاّ بيتاً استعصى عليه ، ولم يتمكن منه إلاّ بعد يومين . . وكان إذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب إليه عملها ، ولم يتذكّرها إلا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ، ابتسم . وطلب أن يتناول ثلاث بيضات نيئة . ثم يبدأ في النظم ، فلا تمضي ساعة ، حتى تكون القصيدة في يده طالها » (٢)

ولقد تستغرب شرب شوقي للبيضات النيئة ، إلاّ أنك متى علمت أن في البيض تغزر مادة الفوسفور . وأن النظم يحتاج إلى أن يصرف الدماغ قسطاً من فوسفوره ، أدركت أية علاقة بين البيض النيء ونظم الشعر لدى شوقي الذي تؤثر فيه الايحاءات والخيالات ، كما تؤثر في غيره من الشعراء ! !

ومن المفيد . وشوقي يتمتع بهذه الموهبة النادرة الفريدة من نوعها في نظم الشعر الجليد بسرعة فائقة . فلا يدع المناسبة تفوته ، كأني به صحيفة تحشى أن تطلع على القراء بغير الأخبار « الطازجة » ، من المفيد ، توكيداً لمتعه

(١) أي داود بركات رئيس تحرير « الامرام » ، في ذلك الحين .

(٢) راجع « اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء » لأحمد عبد الوهاب أبو العز - صفحة ١٩ .

بهذه الموهبة ، أن ننقل ما قاله شاعر القطرين خليل مطران في هذا الصدد :

« إنه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسمي . وحين يشاء . وحيث يشاء . ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلاّ إذا سمع منه . بادئ بادئ . غمغمة تشبه النغمة الصادرة من غور بعيد . ثم رأى ناظره وقد برق . وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصُر به ، وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرّها عليه إمراراً خفيفاً ، هنيهة بعد هنيهة . فإذا قوطع في خلال النظم . انتقل إلى أي حديث يُباحث فيه ، حاضر الدهن صافيه ، جميل البادرة ، كعاداته في الحديث . ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ، ولو بعد أيام طوال . عاد إليه . كأنه لم ينقطع عنه ، مستظهِراً ما تمّ منه ، حافظاً لبقية المعنى الذي يُضمّره . ويكتب القصيدة بعد تمامها ، وربما نسيها شهراً ، ثم ذكرها ، فكتبها في جلسة واحدة » (١)

مقارنات

والواقع أن هذه الحال ليست حال أحمد شوقي وحسب . بل حال سائر الشعراء الذين اتخذوا الشعر هواية يشبعون بها رغائب العبقرية . وأهواء النفس ، أو مهنة يتكسبون بها ، سواء كان تكسبهم مالا يأتيهم من أغنياء . أو إعجاباً يرددهم من قراء . وإنما برزت هذه الظاهرة لدى شوقي أكثر من بروزها لدى سواه ، لأنه أمير للشعراء ، ولأنه يتسم من الشعر مكانة تجعل كل حركة من حركاته ذات أهمية . في نظر المؤرخين ، والنقاد ، والكتاب جميعاً .

ولقد عرفت كثيراً من الشعراء المعاصرين الكبار ، ينظمون القصيدة ، ويسجلون بيتاً منها على ورقة ، وآخر على دفتر . وأحياناً ثلاثة على غلاف

(١) راجع « مختارات المنفلوطي » ، صفحة ٦٨ .

كتاب ، ثم يستظهرون ذلك في سرهم ، ولا تلبث أن تنتظم قصيدة رائعة الجمال .

ومما أذكره عن كبير شعرائنا المعاصرين ، صديقي الشاعر أحمد الصافي النجفي ، أنني زرته ، منذ سنوا ، في منزل كان يقطنه في محلة « الغيري » ، إحدى ضواحي بيروت ، فأقرأني بعضاً من قصائده التي جاءت على مثل ما وصفت ، وكذلك قرأ لي مثلها لما أن ردي الزيارة في منزلي .

والتقيت به مرة في إحدى دور النشر ببيروت ، وقد نشرت له بعض دواوينه ومنها « الأمواج » و « حصاد السجن » ، كما نشرت لي ديوانين هما « شموع المعبد » ، وهو من الشعر الغزلي الوجداني ، و « تحت الرماد » وهو من الشعر الوطني الاجتماعي ، فوجدت النجفي على حاله ، في النظم على أوراق متناثرة ، بعضها متهلهل ، وبعضها الآخر ممزق .

على أن من الواجب أن نسجل لشوقي تمكنه من وضع القصيدة الطويلة ، وسط فوضى النظم التي عرفت عنه ، بينما جاءت معظم منظومات الصديق الشاعر النجفي مقطوعات ، في معظمها ، لا تتجاوز الأبيات المعدادات ، وإن كان ذلك لا ينقص من قيمتها الإنسانية البالغة .

ومن هذا القبيل ما يصنعه الشاعر المهجري الكبير الصديق الأستاذ جورج صيدح الذي ربما نظم أبياتاً من القصيدة في باريس ، وأخرى في لوزان . وثالثة في لوشون ، ومع ذلك تأتي أبياته متسقة ، مترابطة ، منسجمة ، وربما لم يكتف بذلك ، بل عمد إلى التصحيح والتنقيح . وهذا ما حدث لقصيدتين بعث بهما إليّ من فرنسا ، إحداهما في تقرير ديواني « شموع المعبد » وثانيتهما في تقرير ديواني « تحت الرماد » ، ثم مالبث ، في كل مرة ، أن بعث بنسخة ثانية عن كل من القصيدتين ، يصحح وينقح ، احتراماً منه لشعره ، وللشعر العربي إجمالاً .

ولا يفوتني أن أذكر مخالفة صديقي ، شاعر الملاحم العربية ، الأستاذ بولس سلامة لهذه السنة التي يتبعها الشعراء غالباً ، فهو في نظمه لشعره يعمد إلى دفاتر

خاصة . يسجل عليها نقشات خاطره . بعد أن ينتقي أكثرها رواءً وجلالة . ومن هنا صبره على النظم الملحمي الطويل الذي يستر له اتخاف الأدب العربي بملاحمه « عيد الغدير » . وعيد الرياض » و « عيد الستين » . ولربما كانت العمليات الجراحية الأربع والعشرون التي ألزمته فترة طويلة من عمره المديد . بإذن الله ، فراش المرض . فاستحق بسببها لقب « أيوب القرن العشرين » ، هي سبب حرص شاعرنا على تدوين شعره في دفاتره الخاصة .

شوقي والشعر الملحمي

ولقد كان بإمكان أحمد شوقي أن يكون أسبق من بولس سلامة إلى نظم الشعر الملحمي ، بعدما عرفنا عن سهولة نظمه للشعر ما عرفنا . ولكن اتصال شعر شوقي بالأحداث اليومية تقريباً ، وشعوره بأنه يجب أن يلعب دوراً سياسياً وطنياً بارزاً ، طالما أن ذلك ميسور له . هو الذي جعل نفسه ، على طوله . أقصر من النفس الملحمي الذي هبأه الله لأستاذ الجيل بولس سلامة الذي ، وإن أقعده المرض عن الخوض في مشاغل الناس العابرة . فقد صعب على شعراء كثير ، سابقين ومعاصرين ، أن يطاولوا البناء الشعري الفلسفي الأدبي الاجتماعي الذي شيّده ، عبر مؤلفاته . شعراً ونثراً . فاستقام له الشعر . كما استقام لشوقي ، وانصاع له النثر . «طواعاً ، في حين كبا أمير الشعراء ، في حلبة النافرين .

* * *

ومن المتفق عليه ، بعدما أعطى شوقي من الشعر ما أعطى ، أن شاعريته التي أحرز بها هذه المكانة السامية في نفوس المصريين والعرب ، كانت تقوم على ثلاثة أركان : خياله ، وعاطفته . وموسيقاه .

ثم إن شاعريته كانت وقفاً ، قبل منفاه . على القصر ، كما غدّت ، بعد عودته من المنفى وقفاً على الشعب ؛ ولا يناقض هذا الرأي ما نلمحُه من

وجدانية شخصية في بعض قصائده ، وهكذا كان ، على حد قول عدد من نقّاده ، شاعراً غيرياً أكثر منه شاعراً ذاتياً .

ولأن شوقي لم يكن شاعراً إثرياً ، لأنانياً ، ذاتياً ، بل شاعراً غيرياً إثرياً ، فقد خيل لبعض الكتاب ، وعلى رأسهم خصمه اللدود عباس محمود العقاد ، أنه لا مكان للعاطفة في شعر شوقي وقد كتب العقاد ، بهذا الصدد ، يقول :

« في شوقي ارتفع شعر الصنعة إلى ذروته العليا ، وهبط شعر الشخصية إلى حيث لا تبيّن لمحة من الملامح ، ولا قسمة من القسّمات التي يتميز بها إنسان ، بين سائر الناس . وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله ، فمنه ما هو زيف فارغ . لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة ، وليس فيه إلا لفظ ملفّق ، وتقليد براء من الحس والذوق والبراعة . ومنه ما هو قريب إلى الطبيعة ، ولكنه منقول من القسط الشائع بين الناس ، فليس فيه دليل على شخصية القائل ، ولا على طبعه . لأنه أشبه شيء بالوجوه المستعارة التي فيها كل ما في وجوه الناس ، وليس فيها وجه إنسان . ومن هذه الصنعة كانت صنعة شوقي في جميع شعره ، فلو قرأته كلّهُ ، وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنساناً اسمه شوقي يخالف الأناسي الآخرين من أبناء طبقته وجيله ، لأعياك العثور عليه ، ولكنك قد تجد هناك خلقاً تسميهم ما شئت من الأسماء ، وشوقي اسم واحد من سائر هذه الأسماء . وليس هذا بشعر النفس الممتازة . ولا بشعر النفس الخاصة ، إن أردنا أن نضيّق معنى الامتياز ، وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذي هو رسالة حياة ، ونموذج من نماذج الطبيعة ، وإنما ذاك من المصنوعات ، غلاً أو رخص على هذا التسويم » (١)

(١) راجع كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » لعباس محمود العقاد - صفحة ١٥٦ .

ثقافة شوقي

تقرأ سيرة شوقي ، ثم تقرأ ديوانه « الشوقيات » ، ومسرحياته الشعرية التي وضعها في أواخر حياته ، فتطالعك أصداء الثقافة التي كان أحمد شوقي يتمتع بها .

ومنذ فترات الدراسة الأولى ، تلاحظ أن الثقافة التي يجنيها ، إنما كانت موجّهة قصداً . من قبل ذويه ، وخاصة جدته اليونانية ، لتكون ثقافة راقية ، توضع ، فيما بعد ، في تصرف الخديوي . وهكذا عرف شوقي اللغة التركية ، والعربية ، والفرنسية ، وقد يكون ألمّ باليونانية والانكليزية ، نظراً لما ذكرنا عن تمازج الأصول ، في نسب الشاعر ، من جهة ، ونظراً لتحصيله دراسة الحقوق في فرنسا ، وسيطرة بريطانيا ردهاً من الزمن ، على السلطة في مصر ، وحكم الأهالي بواسطة الأمراء الموالين لها حيناً . المعارضين لها حيناً آخر .

وعلى الرغم من إقامة شوقي خمس سنوات في فرنسا ، فهو لم يحصل من الثقافة الفرنسية إلا قسطاً ميسوراً هو القسط اللازم للإنسان المثقف العادي ، أو ، لئلا نتهم بالمبالغة ، للشاعر المتفتح على تيارات الفكر العالمي ، فلم يتأثر بمدرسة من المدارس الفرنسية والأوروبية عامة . وإنما وقف تأثره عند حد الأدباء والشعراء الكلاسيكيين ، وعلى الأخص الفرد دي موسيه ، ولافونتين وفكتور هوغو ، وسواهم .

شوقي وشكسبير

ولقد كتب شوقي عن شكسبير ، عبقرى انكلترا ، فكانت كتابته عنه مثاراً لأكثر من انتقاد ، إذ أخذ عليه النقاد جهله بالشاعر الانكليزي ، وبأفكاره .

ولم يقف نقاد شوقي عند هذا الحد ، بل تراهم يطلبون إلى الشاعر أن يكون متعمقاً في الفلسفة . متمكناً من معطياتها ، وإلا تجرد شعره من كل قيمة فكرية . علماً بأن الشاعر يجيء الوجود ليغني ، لا ليتفلسف . لأن الفلسفة شأن من شؤون أصحابها الذين لا نحسبهم يدعون أنهم خلقوا للشعر ، أو للصيدلة ، أو للهندسة .

فإذا كان لا يضير الفيلسوف أن يجهل الشعر والصيدلة والهندسة ، فلا يضير الشاعر أو الصيدلي أو الفيلسوف أن يكون غير متعمق في العلوم الفلسفية .

ومع أن ذلك هو من المعطيات البدئية التي يعرفها منتقدو شوقي ، فقد أبوا وكابروا ، كأنهم يريدون لشوقي ألا يشذ عن طريقة يتحكمون هم بوضعها ، ويطلبون إليه ألا يحيد عنها قيد أنملة . فهذا الدكتور طه حسين يتعرض لشوقي بسبب قصصياته التي نظمها في شكسبير ، عبقرى انكلترا ، فيقول :

« أقل ما يحسنه قارئها أن شاعرنا لم يعلم من أمر شاعر الانكليز إلا شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف العادي ، وهو على كل حال لم يفهم روح شكسبير ولم يتمثله ، ولم يحس ، بل لم يحاول تصوير هذا الروح . وكل ما في القصيدة مدح لانكلترا أول الأمر ، ثم ثناء على شكسبير غريب ، يشبه فيه أبيات شكسبير بالآيات المنزلة . ويشبه معاني شكسبير بعيسى . ولست أدري ما هذا الحس المشترك بين معاني شكسبير وبين المسيح ، بل لست أدري كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء ، وآداب الشمال الأوروبي ، إلى جانب المسيح ؟ وكيف يشبه أدب شكسبير بالانجيل ؟ إنما هو كلام يقال ، ويعتمد

صاحبه على أن الذين سيقرواونه ستر دعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني ، لأنهم لا يعرفون من أمر شكسبير ، ولا من أمر المسيح والانجيل شيئاً كثيراً .

ثم يقول شوقي إن قصص شكسبير تمثل الحياة ، وكل مثقف يعرف هذا ويقول ، بل كل مادح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا بالحق حيناً ، وبالباطل أحياناً .

ثم يتجه شوقي إلى شكسبير ، فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس منذ قرأوا رثاء أبي العلاء : وعرفوا تصويره ليلي الأجساد في القبور ، ثم يطلب إلى شكسبير الذي أجرى الدم أنهاراً في قصصه أن ينهض ليرى كيف جرى الدم بحاراً في ظل الحضارة الحديثة . ويذم الحرب كما يذمها كل إنسان .

هذا علم شاعرنا بشكسبير . وهذا تصوير شاعرنا له ورأيه فيه ، وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين في شكسبير ؟ ولإني لأعرف محاورات لجوته حول بعض القصص التي تركها شكسبير حول «هملت» مثلاً في « وللهلم مايستر » لا يُذكر معها ما قاله شوقي من الشعر ، ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون علمه بشكسبير أوضح من علم الألمان والفرنسيين في القرن الثامن عشر . لأن فقه الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن تقدماً عظيماً » . (١)

ولاريب في أن هذه الانتقادات ، على وجاهتها وأهميتها ، تحمل الكثير من التحامل ، لأنها ترمي إلى تقنين شاعرية الشاعر ، وإلى تعليلها في إطار العلم والفلسفة . فالمقارنة التي يجريها طه حسين بين شوقي وجوته واقعة في غير محلها ، لأن شوقي كان شاعراً وحسب ، بينما كان جوته شاعراً وناقداً معاً ، فمن الطبيعي أن تكون معلومات جوته ، والحال هذه ، أوسع من معلومات شوقي في هذا المجال .

ثم إن شوقي إنما « يشبه شكسبير » بآيات الانجيل أو بالآيات المنزلة لبيان

(١) راجع كتاب « حافظ وشوقي » للدكتور طه حسين - صفحة ٢٠٣ .

بلاغتها وسحرها وفعلها في النفوس . وقد ذكر الإلهام والإيحاء ، وهما طبيعيان يذكرهما الشعراء ، كما يذكرهما النقاد حين يتحدثون عن الشعر ؛ وذكره لعيسى أثناء ذلك ليس فيه غرابة . فشكسبير مسيحي ، وإن كان متأثراً بوثنية القدماء . وشعره أنجيل الشعر عند الانكليز ، وهم يقدسونه تقديساً لا حد له . حتى ليقولون كلمتهم المشهورة : « لو خيرنا بين شكسبير ومستعمراتنا لاختارنا شكسبير » .

أما قوله إن شكسبير يمثل الحياة . مضيفاً إلى ذلك أن فيه إضحاكاً وإبكاءً ، وأنه يكشف أسرار النفوس . فمن أدق ما وصف به شكسبير بين النقاد ، لأنه من المعروف عندهم أن مآلاته تحوي غير قليل من عناصر الفكاهة ، وأنه بارع براعة لا حد لها في كشف النفوس ونقل أسرارها ، وتمثيل الحياة في مختلف مظاهرها . إذ كانت له عين بصيرة واسعة نافذة استطاعت أن تحول الأعمال والأقوال البشرية . إلى شعر . فلخص شوقي هذه الخصائص في أبياته على طريقة الشاعر الغنائي الذي يوجز ويلمح ويشير من طرف خفي . أما الأسئلة التي سألها شوقي . بعد ذلك لشكسبير عن الموت وما بعد الحياة ، فقدم لها بأنه أبان للناس عن هذه الحياة الدنيا . وما يجري فيها من عواطف ونزعات وأخلاق . فهل له أن يبين لهم عن آخرهم . وما هم ملاقون فيها . وينمضي إليه بما عنده من أسرار » (١)

طه حسين وثقافة شوقي

ويبدو أن للدكتور طه حسين ولعاً خاصاً بالحديث على ثقافة أحمد شوقي ، فتراه في كتابه « حافظ وشوقي » يتحدث عن هذه الناحية ، فيقول :

(١) راجع الدكتور شوقي ضيف في « شوقي شاعر العصر الحديث » - صفحة ١١٥ - ١١٦ .

« كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة . ويشهد في طلبها والتزيد منها ، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين . يسرون في الدرس والتحصيل على غير هدى ، ولا سيما حين يدرسون في أوروبا ، لا يقرأون من الأدب ، مثلاً . إلا ما لا بُدَّ للرجل المثقف من قراءته في هذه الآثار العليا التي فرضت على الناس فرضاً . فأما التألق في الثقافة ، والتماس الترف في الأدب ، فلا حظ لهم منه . وكذلك كان شوقي ، حين ذهب الى فرنسا ، آخر القرن الماضي ، إذا ذكر الشعر الفرنسي . ذكر لامرتين وبحيرته التي ترجمها إلى العربية ، أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلدها في العربية . وإذا ذكر الفلاسفة ، ذكر جول سيمون .

ومن المحقق أن آثار لامرتين ولافونتين آيات في الأدب الفرنسي ، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها . ولكنك تلاحظ أن شوقي لا يذكر بودلير أو فرلين أو سولي بريدوم أو مالارمييه من الشعراء الفرنسيين ، ولا تراه يذكر تين أو رينان أو برجسون من الفلاسفة ، ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافته على هدى ، وإنما يأخذ من الأدب الفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد . وكذلك كان تجايد شوقي متأثراً بهذا الخطّ من الثقافة الفرنسية ، أي أنه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالحديث . ولو قد اتصل شوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من الشعراء الفرنسيين . لسلّك شعره سبيلاً أخرى . ولكنه لم يفعل . ولكنه لم يطلق لطبيعته مما هي عليه حريتها ، بل قيدها وأرادها كارهة على أن تتأثر في انتاجها الأدبي بسياسة القصر حينئذ ، وما كان يحيط به من الظروف . ولو قد أطلقها أو أرسلها لها العنان بعض الشيء . لغيرت حياة الشعر العربي الحديث .

ولست في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك ، فقد كانت طبيعة شوقي من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن من محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة ، وجدت فيها . وكانت توفق أكثر الأحيان

في هذه المحاكاة توفيقاً عظيماً ؛ فلو أن شوقي قرأ الإلياذة والودسة كاملتين وفهماهما حق الفهم ، وأطلق لنفسه حريتها يحاول أن ينشيء الشعر القصصي في اللغة العربية ، لا أقول على نحو ما كانت الإلياذة والأوديسة من الطول ، ولكن على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الفن . ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان ، وتمثيل المحدثين ، وأطلق لطبيعته حريتها ، لعني بالتمثيل شعراً ونثراً في شبابه ، ولأعطى اللغة العربية من هذا الفن حظاً له قيمة صحيحة..

شوقي وارسطو :

ولا يكتفي الدكتور طه حسين بهذا القدر ، بل يتحين الفرصة لإثبات محاذير التمتع بثقافة سطحية : بحيث ينبغي أن ينتج الأدبي خلواً من الدقة ، والعمق ، فضلاً عما يقع فيه صاحبه من أخطاء تاريخية . أو فلسفية فادحة ، تكشف عن ضآلة معلوماته في الموضوع الذي يبحثه .

فلما قام الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بتعريب كتاب « الأخلاق » لأرسطاطليس . انبرى الأدباء والشعراء الى امتداح هذه المأثرة الجليلة ، وبينهم أحمد شوقي . وحافظ إبراهيم وغيرهما .

وبهنا أن نسجل للدكتور طه حسين ذلك الهجوم الذي صبه على أحمد شوقي ، دون ما هوادة أو مهادنة . متهماً إياه : لا بضآلة المعرفة . وقلة الاطلاع ، بل بالجهل المطبق في الفلسفة وتاريخها . وروادها ، بحيث نسب في قصيدته التي امتدح بها المعرب . والمعرب له . أفكاراً لأرسطاطليس . هي في الحقيقة لأفلاطون .

ففي « حديث الأربعاء » . وبعد مقدمة طويلة . يخلص الدكتور طه حسين إلى القول :

(١) راجع كتاب : « حافظ وشوقي » للدكتور طه حسين - صفحة ٢٠٠ طبعة ١٩٣٣ .

« وربما كان شوقي أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب في هذا الموضوع . نعم ! هو أحقهم بالعتب ، فهو من بينهم قد تعلق بأرسطاطاليس وأراد أن يشيد بذكره ، ويرفع من شأنه ، وخص له من قصيدته أكثر مما خص للاستاذ المترجم . ولعلك تدهش ، ولعل شوقي نفسه يدهش ، إذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرسطاطاليس ، وإنما مدح أفلاطون . نعم ! أراد عَمَرًا ، وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عَمَرًا بالخير ، فأنصرف هذا الخير عن عمرو إلى خارجة لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل إلى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبعها ، لكان من حق أرسطاطاليس أن يخاصم شوقياً وأن ينفس على أفلاطون ، أستاذه ، هذا المدح الذي جاءه من حيث لا يحتسب ، أراد شوقي أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون . ولست في حاجة إلى أن أطيل القول في أن شوقياً لم يمدح أرسطاطاليس ، فيكفي أن نقرأ قصيدة شوقي لنرى أنه يصف أرسطاطاليس بأنه سبق إلى التوحيد ، فأعانه قبل البنية والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً ، وبأنه قدسي الروح ، وبأن « لطفى » (١) صدى صوته الأخير . وبأن رسائله كالسلافة إذا جرت في جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق إلى إعلان التوحيد ، فليس هو أرسطاطاليس ، وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً ؛ فقد سبق فلاسفة اليونان إلى إعلان التوحيد في القرن الخامس قبل المسيح . ولكن الشيء الذي يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفاً يونانياً يقرن إلى المسيح . وتعتبر فلسفته أصلاً من أصول الديانة المسيحية . ومصدراً من مصادرها . وليس هذا الفيلسوف أرسطاطاليس ، وإنما هو أفلاطون صاحب المثل ، أفلاطون الذي أمعن في طلب المثل الأعلى ، والذي استطاع أن يرقى بالنفس الإنسانية ، والفكرة الإلهية إلى حيث لم يسبقه ، ولم يدركه فياسوف بعده ؛ أما أرسطاطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد في السماء ، ولهذا لم يصعد أرسطاطاليس في السماء . ولعله لم يرفع بصره إلى

(١) أي أحمد لطفى السيد ، معرب كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس .

السماء ، وإنما خفضه إلى الأرض ؛ ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء ، وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف ثلاثم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً ، فهذا هو أفلاطون لا أرسطاطاليس . فلو عرف شوقي إله أرسطاطاليس . هذا الإله العاجز الجاهل المفتون بنفسه ، المنصرف إلى جماله عن كل شيء . الذي لا يعلم إلا نفسه ، ولا يفكر إلا في نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه .. أقول لو عرف شوقي إله أرسطاطاليس هذا ، لرثى لهذا الإله ، ولرثى لأرسطاطاليس نفسه ، ولما استطاع أن يقول :

مَنْ كَانَ فِي هَدْيِ الْمَسِيحِ وَكَانَ فِي رَشْدِ الْكَلِيمِ
وَعَدَا وَرَاحَ مَوْحِداً قَبْلَ الْبَنِيَّةِ وَالْخَطِيمِ

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء في فهم المذاهب الفلسفية . وإنما أريد شعراءنا خاصة — وأعذر شوقي وغيره إذا خيل إليهم أن توحيد أرسطاطاليس يشبه توحيد المسيح أو توحيد المسلمين . فهو توحيد على كل حال . وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا في أن يدرسوا ما بعد الطبيعة . ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه ، ولا أن أعذره ، هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد . فيُخيل إليهم أن أرسطاطاليس كان حلو النثر ، رخم الصوت . قدسي النفحات ، تشبه آثاره بالسلافة . صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون ، فلن تبلغ من وصفه ما تريد . ولكن لا تصف بها أرسطاطاليس . فكلم كدّ نثر أرسطاطاليس عقولاً ، وصدع رؤوساً ... » (١)

تبقى لنا كلمة أخيرة حول ثقافة شوقي .

(١) راجع « حديث الأربعاء » الجزء الثالث للدكتور طه حسين ، صفحة ٨٦ وما بعدها — دار المعارف بمصر .

فقد تناول نقاد شوقي بالبحث . عدم تعمق الشاعر في مطالعته وتأثراته بالآداب الأجنبية — وعلى الأخص الأدب الفرنسي ، كما أخذوا عليه عدم وضوح معلوماته ودقتها فيما عني الذين كتب عنهم شعراً من الأدباء والشعراء الأجانب .

وقد يكونون محققين في بعض انتقاداتهم . كما قد يكونون مخطئين أو متحاملين في بعضها الآخر .

إلا أن ما لم يشر إليه النقاد . ولو إشارة خاطفة . الثقافة القانونية التي يتمتع بها أحمد شوقي . بعد أمضى سنتين ، في بداية عهده بالدراسة الجامعية ينهل المعين القانوني في مدرسة الحقوق بالقاهرة . ثم سنتين آخرين في مونبلييه بفرنسا . وستين أخيرتين في باريس إلى أن حصل على الاجازة في الحقوق .

وصحيح أن شوقي لم يتجه إتجاه المحاماة . ولا غاص في أصول المحاكمات المدنية والجزائية . ولا في اعداد الموائح . ما بين ادعاء او دفاع . ولكنه لبث أبدأ مدافعاً عن القضية التي يقف شعره من أجلها . هكذا كان دأبه ، يوم كان بوقاً للخديوي . يرد الحجة بالحجة ، ويذود عن موقف القصر بما أوتي من حجة ومنطق وثقافة قانونية عالية . وهكذا كان دأبه أيضاً ، يوم اتجه وجهة الشعب . بعد عودته من المنفى . فدافع عن قضايا مواطنيه ، وأثار فيهم دعاوى الحق والخير والجمال . ودفعهم دفعاً إلى ارتياد سبل الفضيلة ولا ريب . عندنا ، أن الرصانة التي تشيع في مجمل شعر شوقي عائدة إلى هذه الثقافة القانونية التي نهل معيها ، وتسلح بحججها ، في نظم قصائده الوطنية والاجتماعية على السواء .

شوقي بين التقلب والتجديد

عاش شوقي في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ؛ وقد أمضى الفترة الأولى من حياته في أجواء مصر ، ثم ما لبث أن يمم ، في بعثة دراسية ، شطر فرنسا ، حيث أمضى أربع سنوات ، عاد بعدها إلى وطنه ، لينفى ، بعد مدة ، إلى بلاد الأندلس ، حتى إذا وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، عاد إلى بلاده يمضي فيها ما تبقى له من سني عمره .

هذه المعاصرة لجزئين من قرنين ، وهذا التنقل بين مصر ، وبلاد الغرب ، فضلاً عما تخلله من سفرات توجهه فيها إلى بلدان الشرق ، وعلى الأخص تركيا والبلاد العربية ، جعلت لشعر شوقي طابعاً خاصاً يتأرجح بين القدم والحداثة ، كأني بشوقي ذلك الشاعر المخضرم الذي يتجاذبه تياران : حفاظ على القديم ، بعراقته وأصالته من جهة ، ومن جهة ثانية ، اقبال على الحديد بما فيه من مغريات . فلقد كان شوقي في ما نظمه ، محافظاً على أصالة الشعر العربي ، متمسكاً بعموده ، حتى جاءت معظم قصائده عصماء ، يندر أن تأخذ عليها مأخذاً لغوياً أو فنياً .

ولكن شوقي لم يقف عند حد المواضيع القديمة التي راح شعراؤنا القدماء وعلى الأخص شعراء العصر العباسي الثالث ، وبصورة أدق ، شعراء عصر الانحطاط ، يلوكونها لوكاً ، ويجترونها اجتراراً ، في إطار من التعابير المنحوتة من صخر ، البادية الصنعة والتكلف ، وهكذا رأيت أمير الشعراء يقبل على شؤون لم يكن للشعر ، من قبل ، عهد بها . فبالإضافة إلى أغراض الشعر

التقليدية من مدح وغزل وثناء وفخر ووصف ، نظم أحمد شوقي في المخترعات الحديثة . ونظم في الاساطير والأمثال متأثراً ، على الأخص ، بالشاعر الفرنسي لافونتين ، صاحب الحكايات الشهيرة ، (١) التي لا زدري مدى تأثير صاحبها بالقصص الفهلوي (أي الفارسي القديم) والسنسكريتي (الهندي القديم) الذي استوحى منه عبد الله بن المقفع الشيء الكثير عندما وضع أو ترجم كتاب « كليله ودمنة » إلى لغة الضاد (٢) ؛ ولم يكتف شوقي بذلك وحسب ، بل وقف السنوات الخمس الأخيرة من عمره للنظم المسرحي الذي جاء يسد فراغاً كبيراً في الأدب العربي بعدما ظل خلواً ، حتى ذلك الحين ، من الأدب المسرحي بمعناه الكلاسيكي ، من حيث ضرورة توافر ثلاثة عناصر في المسرحية ، مأساة كانت أو ملهاة ، وهذه العناصر هي :

(١) وحدة المكان *Unité de lieu*

(٢) وحدة الزمان *Unité de temps*

(٣) وحدة العمل (أو الموضوع) *Unité d'action*

تأثير شوقي بالأدب العربي والآداب الأجنبية :

ثم إن شوقي قرأ الأدب التركي ، والأدب اليوناني ، وخاصة المسرح الأغريقي الذي استوحى منه أدباء الغرب عديداً من مسرحياتهم ، وقرأ الأدب الانكليزي ، فتأثر بكل ما قرأ ، غير أن تأثيره بالأدب العربي (وقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض تأثيراته بالأدب الأندلسي) ، بقي أقوى وأظهر ، في شعره ، من كل أدب آخر . على أن تأثير شوقي بالأدب العربي ، إلى هذا الحد والمعارضات الشعرية التي وضعها ، على أساس الوزن والروي اللذين تقوم عليهما قصائد من عارضهم شوقي ، جعل بعض النقاد لا يرون في

(١) راجع مجموعة : *les fables de la Fontaine* منشورات لاروس

(٢) راجع كتابنا « الأعلام والفنون الأدبية » - طبعة ١٩٦٦ - دار الكاتب العربي ،

ومقدمتنا لكتاب « كليله ودمنة » الذي حققناه - منشورات « الشركة اللبنانية للكتاب » - طبعة ٦٩

الأدب الشوقي أي تجديد يذكر ، أو بالأحرى ، أي تجديد يمكن أن يلفت إليه الأنظار .

وفي مثل هذا المعنى . يرى أحمد الاسكندري أن شوقي « ما كان بدعاً من الشعراء . ولا خرج بشعره ثائراً على القدماء . وإنما تأدب بأدبهم ، وسار على دربهم ، وما زال شعره كشعرهم تتألف القصيدة منه من أبيات مستقلة في اللفظ والمعنى ، على وزن واحد ، وتركب من أخلية جزئية ، لا من خيال كلي مفصل الأجزاء . شأن الشعر القصصي الأوروبي ، واتباع شوقي هذه الطريقة العربية حتى في المقطعات الكبيرة من مسرحياته . والذي حدا به أن يكون عظيماً في الشعر العربي ، اطلاعه على شعر البارودي البليغ وسماعه إعجاب الناس به » (١)

من مقدمة « الشوقيات »

ويبدو أن أحمد شوقي كان يشعر ، فيما بينه وبين نفسه ، أن وقوفه عند حدود التقليد لاساليب الأقدمين ولما تعاهدوه من الموضوعات التي كادت أن تبذل وتهترئ ، لكثرة ما عولجت ، عبر عصور الأدب العربي ، من شأنه أن ينتقص من مكانته الشعرية ، وأن لا يبلغه ، بالتالي ، ذلك المقام الذي كان يعد نفسه به ، عنيت به « إمارة الشعر » التي انعقد له لواؤها ، فيما بعد .

وهكذا أطلق شوقي ، في مقدمته لديوانه « الشوقيات » ، صفارة إنذار تؤكد بأن الشاعر قد اعتزم قطع الصلة بينه وبين ما اعتاده القدماء من مديح وزلفى ، وأنه لذلك ، سيضرمها ثورةً فكريةً بناءً ، تجعل للأدب العربي المعاصر مشارف ومطلات جدداً ، فيقول :

« إن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ، ولا تقوم بغيره ، تجزئة يجل عنها ، ويبتراً الشعراء منها ؛ ألا أن هناك ماكاً كبيراً ما خلقوا إلا ليغنوا بمدحه ، ويتفننوا بوصفه ، ذاهبين فيه كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ،

(١) راجع مقالة أحمد الاسكندري « أثر الأدب العربي في شعر شوقي » في عداد مجموعة محمد خورشيد وعنوانها : « أمير الشعراء شوقي ، بين العاطفة والتاريخ »

وهذا الملك هو الكون . فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى ، يقلب إحدى عينيه في الذر ، ويحيل أخرى في الذرى ، يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجراد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة الطل ، ويمر بالعراء مرور الويل ، فهناك ينفسح المجال له للتخيل ، ويتسع له مكان القول . »

ثم يقول :

« أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة أن يحيا المتنبي ، مثلاً ، حياته التي بلغ فيها الى أقصى الشباب ، ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر ، تسعة أشعارها لممدوحيه ، والعشر الباقي هو للحكمة والوصف للناس ؟ هنا يسأل سائل : وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله ؟ ولا أجدر أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها ، وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمي في البلاد ، فما زلت أتمنى هذه المنزلة ، وأسمو اليها على درج الاخلاص في حب صناعتي ، واتقانها بقدر الامكان ، وصونها عن الابتذال ، حتى وفقت بفضل الله لإيها . ثم طلبت العلم في أوروبا ، فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم ، وعلمت أنني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه . وأني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحدد . وإذا كنت أعنقد أن الاوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأنفوان ، لا يطاق لقاءه . ويؤخذ من خلف بأطراف البنان ، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا ، مملوءة من جديد المعاني ، وحديث الأساليب ، بقدر الامكان ، إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق قصيدتي التي أقول في مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الشناء

وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية ، وكان يحرق

هذه أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان ، فدُفعت القصيدة إليه ، وطُلب منه أن يسقط الغزل وينشر المديح ، فودّ لو أسقط المديح ونشر الغزل ، ثم كذلك كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر . فلما بلغني الخبر ، لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الحديد دفعة واحدة إنما كان في محابه ، وان الزلزل معي إذا أنا استعجلت . ثم نظمت روايتي « علي بك أو فيما هي دولة المماليك » معتمداً في وضع حوادثها على أقوال الثقات من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا . وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي (باشا) ليعرضها على الحديوي السابق ، فوردني منه كتاب باللغة الفرنسية ، يقول في خلاله :

« أما روايتك ، فقد تفكك الجنب العالي بقراءتها ، وناقشتني في مواضع منها وناقشته ، وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح . ويجب ان لا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك ، وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب الغربية » .

وترجمت القصيدة المسماة بالبحيرة من نظم لامتريين ، وهي من آيات الفصاحة الفرنسية ، ثم أرسلتها إلى الباشا المشار اليه في كراس وبعض كراس ، ليطلع الجنب الحديوي عليها . وإذ كنت لاأخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده ، بعد العودة إلى مصر ، ثم عدت دون ذلك عواد . وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير . وفي هذه المجموعة « شيء من ذلك » .

* * *

تجديد ، فالكفاء :

غير أن من يتتبع شوقي ، في الأجزاء الأربعة من ديوان « الشوقيات » أو في مسرحياته الشعرية ، أو حتى في نثره ، يتبين بكثير من الجلاء أن ثورة

شوقي لم تكن ثورة تجديديه تلقائية ينهض بها الشاعر ، بداءة ، وإنما هي في حقيقتها دعوة إلى الثورة ، موجهة إلى الآخرين ، كما هي موجهة إلى ذاته .

ولو كانت ثورة مجددة حقاً ، لافترضنا أن شوقي خطط لتلك الثورة ، ووضع لها «روزنامة عمل» ، أو منهاجاً واضحاً ، ثم دأب على تنفيذ مخططاته ؛ وإن هي ، في رأينا ، إلا نفثات شاعر يرغب رغبةً صادقة في التجديد ، ويومئ ، بكثير من الإخلاص ، إلى المناهل الغربية التي يستطيع شعراء العربية ، ولا يستثنى نفسه منهم ، أن يرتادوها ؛ ليسلكوا من ثم سبيل التجديد ؛ أما أن يكون رائداً مجدداً ، فقد كان ذلك ، على الأقل ، متعذراً على شوقي .

وإذا استثنينا من ذلك بعض المحاولات الشوقية التي تحمل ، في ثناياها ، بذور التجديد الحقيقي ، فأننا لا نلبث أن نتبين ذلك الموقف السلبي الذي وقفه من محاولات شوقي ، بعض الكتاب المصريين ؛ وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذه الواقعة ، فيقول : « وبينما كان شكري (١) والمازني (٢) والعقاد (٣) يقودون هذه الحركة ، وقع تصادم بينهم ، أو قل بين المازني وشكري ، فقد هاجم شكري في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، المازني ، واتهمه باغارته على شللي وهبني وغيرهما . ووضعت الحرب أوزارها . ورجع شوقي من منفاه ، وكان شعره في رأي المازني وصاحبه العقاد يجب أن ينبذ ، لأنه لا يجري على سنن المذهب الجديد . ويظهر أن بعض الصحف الأسبوعية ، وخاصة « صحيفة عكاظ » أخذت تشيد بشوقي وشعره ، وتحط من العقاد وصاحبه ، واستطالت عليهما بالشتم ، وغيرتهما بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأوه » .

(١) عبد الرحمن شكري

(٢) عبد القادر المازني

(٣) عباس محمود العقاد .

وكان ثمرة ذلك كله أن ألف العقاد والمازني كتيباً سميّاه « الديوان » وأخرجاه منه حلقتين تناولوا في الحلقة الأولى منه شوقي وشكري ، وفي الثانية شوقي والمنفلوطي .

وانصب العقاد على شوقي سَوَوطَ عذاب ، فأنكر تقليده للشعر القديم ، وأنكر صورته الأدبية في رثاء محمد فريد ، وعثمان غالب ، ومصطفى كامل ، والأميرة فاطمة ، وتجاوز الاعتدال في نقده إلى غير قليل من العنف ، وكأن شوقي استحال أمامه إلى صنم ينبغي أن يحطمه ، . بينما ذهب المازني على شكري والمنفلوطي وطريقتهما في الشعر والكتابة « (١)

موقف العقاد من شوقي :

والحقيقة أن ما أصاب العقاد والمازني من نقد جارح أطلقته صحيفة « عكاظ » وغيرها ، انعكس حقداً — ولا نقول نقداً — يشتعل في صدر العقاد ، حتى لقد غدت كتاباته عن شوقي بالذات لوناً من التعريض والتهجم الذي لا ينظر إلى المصلحة الأدبية الفكرية إلاّ لمأماً .

وبتين لنا ذلك الواقع ، لو اطلعنا على ما خاطب العقاد به أحمد شوقي ، في الحلقة الأولى من كتاب « الديوان » المشار إليه ، ففيه يقول العقاد ، مخاطباً شوقي :

« اعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعدّها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع ،

(١) راجع « شوقي شاعر العصر الحديث » للدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بمصر -

ولأننا همهم أن يتعاطفوا ، ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس لإخوانه زبدة ما رآه وما سمعه ، وخلاصة ما استطابه أو كرهه .

وإذا كان وكذلك في التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر، ثم تذكر شيئاً أو أشياء مثله في الاحمرار ، فما أن زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء يدل شيئاً واحد ، ولكن التشبيه أن تطيع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والألوان فإن الناس جميعاً يرون الاشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور لهذه الاشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ، ونفاذه إلى صميم الأشياء ، يمتاز الشاعر على سواه ..

وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطيء في نقد الشعر هو ارجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس ، فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر المطر ، فذلك شعر الطبع القوي ، والحقيقة الجوهرية . « (١)

ولا يغيب عن ذهن القارئ هذا النقد الذي يبقى إلى التهجم والتهشيم أقرب منه إلى العمل البناء الذي يرمي إلى المصلحة الأدبية العامة .

فلئن كان العقاد محقاً في ضرورة انسياب الشعر من الشعور ، بل مما هو أعمق من الشعور ، فليس صحيحاً أن التوفيق لا يحالف التشبيه ، إذا ما اعتمده الشاعر ، إلا إذا انطبع في وجدان القارئ ، إذ كثيراً ما يجهل القارئ تجربة الشاعر الفنية ، ولا نحسب الناقد يجهلها ، في أي حال .

موقف نعيمة من شوقي :

ولقد تسنى لنا ، في حديثنا عن شوقي ، بعد المنفى ، أن نستشهد بأبيات من قصيدته البائية التي كانت أولى قصائده ، بعد عودته إلى الوطن ، وأن نكشف عن مواطن العاطفة الحياشة التي تعمر بها تلك القصيدة ، سواء نحو الأندلس ، أو نحو مصر وبنيتها الذين استقبلوا الشاعر ، إذ عاد ، استقبالاً مؤثراً حقاً .

ولكن بعض النقاد العرب ، وفي طليعتهم ناسك الشخروب الأديب الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة ، لم يجد في هذه القصيدة أي أثر من آثار التجديد ، رغم وجدانيتها ، وبعض أبياتها التي تلمع كالنجوم في سماء الشعر المعاصر . فقد عقد ميخائيل نعيمة عام ١٩٢٠ بحثاً حول هذه القصيدة ، وجهه عدداً كبيراً من الانتقادات إليها ؛ ويمتاز بحث نعيمة بأنه ، وإن كان قاسياً في أكثر من موضع ، لون من البحث الموضوعي المتجرد ، جرياً على عادة الكاتب في إطلاق أحكامه النقدية والأدبية عامة .

وبعد أن يقدم ميخائيل نعيمة لبحثه ، مشيراً إلى التوطئة التي زف بها صاحب « الهلال » ، جرجي زيدان ، « الدرّة الشوقية » ، أول قصيدة لأمير الشعر العربي ، وأخبر قراءه كيف « تهللت مصر باستقبال شاعرها الكبير ، وطفحت قلوب الأدباء فرحاً بعودة رئيسهم وزعيمهم وحامل لوائهم » (١) يوضح أن القصيدة الشوقية قد « نظمت لاحتفال أقيم في دار الأوبرا السلطانية » غرضه « إنشاء جمعية تعاون لمساعدة الفقراء » في القطر المصري .

ثم يقول : « ما وقع بصري على هذه القصيدة ، بعنوانها الدرّي ، حتى التففتها التقاف الجائع للرغيف ، وانفردت بنفسي لأنعم روحي بجمالها ، دون رقيب أو مزاحم . واختليت « بأمير » الشعر لأسكر بسحر معانيه ، وأرتعش

لرّنة قوافيه ، وأسبح في جوّ خياله ، وأطوف في جنبات عالم أفكاره ،
وأغطس في بحر تأملاته ، فأخرج من خلوتي ، ودرّة شوقي درقي ؛ لأن
بنات الشعر متى برزن من مخيلة الشاعر ، أصبحن بنات كل مخيلة قادرة
أن ترافق مخيلة الشاعر ، في كل أدوار الحمل والمخاض والولادة .

لقد سمعت « بدر » شعرية كثيرة . ولما أعملت فيها طرف المبرد ،
وجدتها صدفاً لماعاً . وقد حدثني الكثير ، كما حدثني الكتب عن « معجزات »
شعرية ، ولما فحصتها ، وجدتّها خزعات عرضية تبهر البسيط ، وتخضع
المغفل . وقد عودتني جرائدنا ومجلاتنا المباركة أن أسمع كل يوم تقريباً
بشاعر « لا يُشَقُّ له غبار » . وحين عرفف هؤلاء الشعراء ألفتهم وغبار
الدهور الخالية فوقهم قامات كأنهم ليسوا من أبناء اليوم ، ولا يشعرون بدق
أنباض حياة اليوم . لذلك أصبحت شديد الحرص ، كثير الشكوك ، كلما
سمعت « بدرة » جديدة . ولولا ما « للهِلال » عندي من الاعتبار والثقة
بحسن ذوق صاحبه الفني والأدبي ، لما أقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » .
لكن للهِلال ، في عيني ، منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد
العربية . فقد تعودت منذ أيامي المدرسية ، أن أصدق ما يقوله الهِلال ، وأن
أعتبر من يعتبره ، وأحتقر من يحتقره . لذلك ، عندها رأيته يقدم إلي درّة
قلت : لا شك أنها درّة . وعندما سمعته ينعت صاحبها بأمير الشعراء ،
قلت : لا شك فهو أمير الشعراء . أولم يقل فيه كذلك زميله « شاعر القطرين » (١)
بأنه :

كالبحر يهدي كل يوم درّة
أزهى سنيّ من أختها الحسناء

وهكذا « فعلی ذمّة » صاحب الهِلال ، وشاعر القطرين ، جلست أقرأ

(١) شاعر القطرين (لبنان ومصر) ، هو خليل مطران

وفي قلبي نار شوق مستعرة إلى ما سيتجلى لعيني من الرسوم ، والرموز ،
والخيالات ، والأفكار الشعرية . فقرأت :

أنادي الرسم لو ملك الجوابا

وأجزيه بدمعي لو أثابا

ووقفت قليلاً لأؤكد مما إذا كنت أطلع قصيدة جاهلية أم عصرية ، إذ
تبادرت في الحال ، إلى ذهني ، أبيات كثيرة فيها « أطلال » و « رسوم »
و « دموع » . « لعل أطلال . . . » . « قفا نبك . . . » . « عفت الديار . . . »
إذا وقف امرؤ القيس ، وبكى واستبكى « من ذكرى حبيب ومنزل » ،
ففي وقفته ، وفي ذكراه ، وفيما يلي من وصفه ، ما يُبكي . فلا تكلف
في بكائه ، ولا تصنع . لكن ماذا الذي يبكيه أحمد شوقي ؟ — عزّ الأندلس ؟
مجد العرب ؟ — لا شك أن في أشباح عروش نُلت ، وفي رسوم مجد باد ،
وفي بقايا مدنية درست ، ما يقبض على القلب ، ويعصره ، فيطلق دمع العين
لكن عيناً ترى الأشباح والرسوم والبقايا ، لا تسكب عليها دمعاً إلا إذا
تجسّمت تلك الخيالات أمامها في وصف راوٍ أو رسم رسّام أو نحت نحات
أو حركات ممثل . وما الشاعر إلا راوٍ يقص في قالب جميل عن انفعالات
نفسه ، وتموجات عواطفه وآماله ، وتقلبات أفكاره في كل ما يسمعه ويراه
ويشعره . وشوقي ، بعد أن صرف سنوات في الأندلس ، عاد إلى مصر
ووقف يخبر أهلها بما شاهده ، ويقاسمهم عواطفه وتأثيراته التي ولّدتها فيه
تلك المشاهد ، لينقل إلى قلوبهم بعض الانفعالات التي تسربت إلى قلبه ،
يوم كان واقفاً بين تلك « الدمن البوالي » .

فماذا قال لهم ؟

قام ينادي الرسم و « يجزيه بدمعه » ، ويقول إن العبرات « قلّت لحقه » ،
وأنهن — يعني العبرات — « ستبقى مقبلات الترب » عنه ، وإنه « نثر الدمع

في الدمن البوالي » ، وبكلمة أخرى بكى . ولماذا ؟

لو بقيت شهراً بل عاماً أقول للناس : « يا ناس إني بكيت ! » لما بكى
معي أحد ، ولما رقّ لحالي مخلوق . غير أنني لو أدخلتهم قلبي ، وقد خيّم الحزن
لما بكى معي أحد . ولما رقّ لحالي مخلوق . غير أنني لو أدخلتهم قلبي ، وقد
خيّم الحزن فيه . وفتحت أمامهم أبواب نفسي ، وقد علقت في شرك
البأس ، لتبالت مع عيني عيون ، ولا تقبضت مع قلبي قلوب ولا كدّت
مع نفسي نفوس . وهذه هي مهمة الشاعر ، إن قصر فيها ، فهو وزان
وليس بشاعر . وكم هم الشعراء بيننا ، الذين يستعوضون عن وصف عاطفة
بذكر نتيجتها الخارجية ، فإن حزنوا ، قالوا : « بكينا ، وان فرحوا ،
قالوا : « ضحكنا » . كأن لا سبيل لوصف الحزن إلا بالدموع ، أو لوصف الفرح
إلا بالضحك ؟ فما أغزر الدموع في مآقينا ، وما أسخى مآقينا بسكب الدموع !

في « الدرة الشرقية » أمثال كثيرة من هذا الوصف السطحي الذي لا
يحرك فكراً في رأس . ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في
قلب . غير أن فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم
يكن ضائعاً بين أبيات جاءت حشواً ، فبان كضمة من الزهر في حقل من
العوسج .

فمن ذاك الوصف تعبيره عن شوقه إلى مصر ، وجهه لها ، حيث يقول :

ويا وطني لَقَيْتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ
كَأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ بِكَ الشَّبَابَا

ولو أَنِّي دَعَيْتُ لَكُنْتَ دِينِي
عَلَيْهِ أَقَابِلُ الْحَتَمِ الْمَجَابَا ،

أُديرُ إِلَيْكَ قَبْلَ الْبَيْتِ وَجْهِي
إِذَا فَهْتُ الشَّهَادَةَ وَالْمَتَابَا

ومن الحشو قوله ، بعد البيت الأول من هذه الفقرة :

وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَعُودُ يَوْمًا
إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةَ وَالْإِيَابَا (١)

فلا فرق عندي بين هذا البيت ، وبين قول القائل :

الليلُ ليلٌ والنهارُ نهارٌ
والأَرْضُ فِيهَا الْمَاءُ وَالْأَشْجَارُ (٢)

ومن الحشو قوله كذلك ، بعد الأبيات الثلاثة السابقة :

وَقَدْ سَبَقْتُ رُكَّائِي الْقَوَافِي
مَقْلَدَةً أَزَفَّتْهَا ، طَرَابَا
تَجُوبُ الدَّهْرَ نَحْوَكَ لَا الْفِيَا فِي
وَتَقْتَحِمُ الْيَلَالِي ، لَا الْعُبَابَا
وَتَهْدِيكَ الثَّنَاءَ الْحَرَّ تَاجًا
عَلَى تَاجِكَ مُوتَلِقًا عَجَابَا

(١) وردت في «الشوقيات» : «سيؤوب» ، بدل «سيعود» ، والمعنى واحد .

(٢) ومن سخيّف ما يروى من شعر الانحطاط ، قول أحدهم :

الأرض أرض ، والسماء خلافتها والريح بين الجانين تجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة فالأرض تثبت والفصون تميل .

فماذا يؤهل هذه الأبيات لأن تدعى شعراً ؟ إذ لا رسم فيها جديداً ، ولا فكر مبتكراً ، ولا عاطفة حيّة تزيد على العاطفة التي وصفها في الأبيات السابقة . بل جلّ ما يقال فيها : إنها ، لو قام الخليل (٣) من قبره لقال إنها محكمة النظم من البحر « الوافر » .

ومن وصفه الشعريّ أيضاً قوله ، حيث يشكر للاندلس أنه في مدة إقامته فيها ، تخلص من وجوه الممالئين والأغبياء المدعين :

فَأَنْتَ أَرْحَتْنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ
كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انتِصَابَا
وَمَنْظَرِ كُلِّ خَوَّانٍ يِرَانِي
بِوَجْهِ كَالْبَغِيِّ رَمَى النِّقَابَا

ومن الحشو قوله بعد هذين البيتين :

وَلَيْسَ بَعَامِرٍ بَنِيَانُ قَوْمٍ
إِذَا أَخْلَقَهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

فعلام هذا الانتقال الفجائي الغريب من نقدٍ عنيفٍ مرّ ، إلى « حكمة » مبتذلة لا حكمة فيها ؟ أما كان الأحرى به أن يتمم صورة حالة قومه الاجتماعية حتى إذا تجلّت أمام أعين سامعيه ، بكل خطوطها وألوانها ، قالوا من تلقاء أنفسهم : « لا والله ؛ فلا يعمر أبداً بنياننا ما دامت أخلاقنا خراباً ؟ » .

لئن غفرنا للشاعر أبياتاً ما حشأ بها القصيدة إلا لزيادة العدد ، فإن نغفر له تناقضاً فاحشاً في المعاني . فوالله لنعجب من أمر شاعر يشكر الغربية لأنها أراحته من كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا ، ومن منظر « كل

خوان» يراه «بوجه كالبغيّ رمى النقابا» ، وينذر قومه بأن بنيانهم لا يقوم «إذا أخلاقهم كانت خراباً» ، ثم يعود بعد لحظة ، يخاطب وطنه : وأولئك القوم أنفسهم بهذه اللهجة :

وحياً الله فتياناً سماحاً
كسوا عطفَيَّ من فخرٍ ثيابا
ملائكة إذا حفُّوك يوماً
أحبَّك كلُّ من تلقى ، وهابا
وإن حملتك أيديهم بحوراً ،
بلغت على أكفِّهم السحابا ،
تلقّوني بكلِّ أغرّ زاه ،
كأنَّ على أسرَّتِه شهابا
تري الإيمان مؤتلقاً عليه ،
ونورُ العلم والكرم اللبابا
وتلمحُ من وضاعة صفحتيه
محياً مصر ، رائعة ، كعابا

فبلدٌ ، فتيانُه ملائكة إذا «حفوه يوماً» أحبه وهابه كل قادم إليه ، وإن حملته «أيديهم بحوراً» بلغ السحاب ؛ وبلدٌ ترى على أوجه فتيانِه شهاباً ، وترى الإيمان «مؤتلقاً عليها» ، ونور العلم والكرم اللبابا» لبسكند سعيد ، وأهله لقوم مهما جاز أن يُقال فيهم : فلا يصح أن يُقال إن «أخلاقهم خراب» أم

هي « الدرر » ، لا تكون كاملة ، ما لم يتخللها قليل من النقد ، وقليل من الإطراء ، وقليل من الفخر ، وقليل من الحكم ، سواء تألفت معانيها أم تنافرت ؟ بل هو الموقف . فلا يجب أن ننسى أن القصيدة « نظمت لاحتفال أقيم في دار الأوبرا السلطانية ، غرضه إنشاء جمعية تعاون لمُساعدة الفقراء » .

وكيف يمكن شاعراً أن يتلو قصيدة ، في اجتماع ، تلك غايته ، بدون أن يندد ، ولو قليلاً ، بالأغنياء ، والتجار ، ويحنن القلوب على الفقير والجائع والبائس ؟ وكيف يمكن شاعراً استهل قصيدته بمناداة الرسوم ، ونثر العبرات بين « الدمن البوالي » ، أن يتخلص من خرابات الأندلس إلى غلاء المعيشة ، إلى شقاء الفقير ، إلا إذا غالى في إطراء سامعيه ، فوصفهم بالملائكة ، وحينئذٍ صاح فيهم :

شباب النيل إنَّ لكم لصوتاً
يُلبِّي ، حين يرفع ، مُستجاباً
فهزُّوا العرش بالدعوات حتَّى
يخفَّف عن كنانته العذابا

أمنَ حرب البسوس إلى غلاء
يكاد يعيدها سبعاً صعباً !

هذا ما يدعون « حسن التخلص » . لكن شاعرنا ما بلغ بنا هذا الحد ، إلا بعد أن دار بنا ألف دورة لولبية أنستنا أول الطريق ونصفها . مع ذلك ، فقد سِرنا معه حتَّى الآن ، فلنسير معه حتَّى النهاية :

بعد أن تخلص الشاعر إلى الغلاء والضنك ، وقف يُعاتب ربّه على ما ما أنزله بمصر : « أنيلاً سقت فيهم أم سراباً » ؟ ثم يضرع إليه :

حنانك ، واهدٍ للشلى تجاراً
 بها ملكوا المرافق والرقابا
 ورقّق للفقير بها قلوباً
 محجّرة ، وأكبّاداً صلابا

ومتى انقلب الشاعر ، فجأة ، من نائح يبكي « الدمن البوالي » ، إلى ناقد
 يسخر بأدعاء قومه وجهلهم ، إلى مغرم يتغزل بحب وطنه ، إلى مادم يرى
 في قومه ملائكة يتلأأ على وجوههم نور العلم والإيمان والكرم ، إلى شيخ
 أو قسيس يُعاتب ربّه ويسترحمه ، إلى عالم اجتماعي يناضل عن الفقير ،
 إلى فيلسوف لا يرى « مثل سوق الخير كسباً » ، ولا كتجارة السوء اكتساباً »
 وأخيراً إلى لاهوتي يفسّر لنا غاية الله من إرساله الأنبياء على الأرض :

ولولا البرّ لم يُبعث رسولٌ

ولم يحمل الى قوم كتابا

متى تغلب الشاعر هذا القلب السريع بين مطاع القصيدة وختامها ، ولم يترك
 في النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار في أمره الناقد ، وسدّت في وجهه
 السبل ، فلا حول ولا !

قال دعبل :

إني إذا قلتُ بيتاً ، مات قائله

ومن يُقال له ، والبيت لم يمّت

ولعمري سواء أصدق دعبل بقوله في شعره أم كذب ، ففي البيت أفضل
 مقياس للفصل بين جميل الشعر ورديئه . وبين غثّه وسمينه . فالشعر الذي

يحق أن ندعوه شعراً لا يموت ما دام في الأرض بشر تتحرك في قلوبهم عواطف وتجول في رؤوسهم أفكار . فهل قصيدة شوقي شيء من هذا النوع من الشعر ؟ ودرر الشعر لا تحل بها الغيرُ . ولا يسلبها الزمان رونقها . فهل « درة » شوقي من هذه الدرر ؟ أم ما هي إلا صدفه برّاقة ؟ إني أترك الجواب للقراء . وأخاف أنني تعديت الحدود المرعية في شرع الكثير من أدبائنا . إذ أنني جسرت أن أرفع عينيّ الخاطبتين إلى عرش « أمير الشعر » وما كنت لأجد من نفسي جرأة على ذلك ، لولا علمي بأن بيبي وبين الأمير وأعوانه بشراً بل بجهلاً لا إخالهم قادرين أن « يرفعوها على أكفهم ! » (١)

شوقي ووصف المخترعات الحديثة :

ولما حاول شوقي التجديد . عن طريق معالجة الموضوعات الحديثة . فيما اسجد من آلات ومخترعات . وقف العقّاد . وكأنه وكّل نفسه بالخصومة الحاقدة على شوقي . وراح يهاجم هذا التجديد الذي عمد إليه شوقي والشوقيون . فهذا هو يصف الشعراء الذين انتهجوا النهج المذكور . وفي طليعتهم أحمد شوقي بأنهم « ظنوا في حيرتهم أن الشعر العصري هو وصف المخترعات الحديثة من بخار وكهرباء وطيّارات . وأمثال ذلك من آلات ناطقة . وصور متحركة . ومعجزات لهذا العصر الحديث ، لم يتقدم بوصفها المتقدمون ، فقلنا لهم : لا . لو كان هذا هو الشعر ، لوجب على كل شاعر أن يظل على اتصال بالمصانع ، تنفحه « بالكتالوجات » أولاً فأولاً . ليسابق سواه في العصرية . ويكون في شعره « على آخر ساعة » ، كما يقولون في لغة التجارة والصناعة .

(١) راجع كتاب « الغريال » لميخائيل نعيمة - صفحة ١٤٥ وما بعدها - الطبعة السابعة -

وبعد ، فهؤلاء شعراء أوروبا وأمريكا لم يجتمع مما نظموه في وصف المخترعات ما يملأ كراسة صغيرة ، وفيهم الشعراء . جدد الشعراء في الوصف وفي سائر الفنون القصيدة ، فهل يزري بهم ذلك أو يدخلهم في عداد الأقدمين والمقلدين ؟ كلا ! وإنما أنتم تولعون بالطيارات وما أشبهها ، لأنكم تقيسون الشعر بمقياس القديم ، وتأثرون الجاهليين ، وأنتم تزعدون أنكم تأخذون بالحديث ، فقد وصف الجاهليون الناقة . فوجب أن تصفوا أنتم الطيارة ، لأن الأقدمين كانوا يركبون النوق ، والعصريين يركبون الطيارة . فكأن الشاعر لم يخلق في الدنيا ، إلا لينظم في وسائل المواصلات ، كيفما تبدلت بها الغير ، وتقلب بها الأحوال .

وظنوا وظن معهم بعضهم المطلعين على طرف من العلوم الحديثة أن الشاعر شاعر الأخلاق والاجتماعيات ، لا يكون ابن عصره إلا حين تقرأ في ديوانه قصيدة لكل حادثة من حوادث السياسة والاجتماع في أيامه ، ولو أن هؤلاء راجعوا ديوان « جوته » مثلاً . لما عثروا فيه على بيت في وصف الزلازل السياسية التي أحقت بألمانيا في حياته ، وهو هو بأجتماع النقاد ، شاعر وطنه العظيم ، والرجل الذي كان له أثر في نقطة ألمانيا الأدبية . يُعَدُّ في طليعة الآثار .

فللشعر في إيقاظ الأمم طريق غير طريق السياسة ودعاة الاجتماع ، ولليقطات النفسية مسالك ومسارب لا يستدل عليها بعناوين الحوادث السياسية والدعوات الاجتماعية التي تكتب فيها الصحافة ، ويتحدث بها اللاغظون بالموضوعات اليومية » (١)

موقف اليازجي من شوقي :

مثل هذا الهجوم ، بل مثل هذا التهجم ، لم يكن لبني شوقي عن مسيرة

(١) راجع « ساعات بين الكتب » لعباس محمود العقاد - صفحة ١١٩ - طبعة ١٩٢٩ .

التجديد ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، لم يكن ليوفر لشوقي العوامل المشجعة على المضي ، بقدوم ثابتة ، في الطريق التي اختطها ، وتبعه فيها بعض الشعراء . ومن المحاولات التجديدية التي قام بها شوقي ، وضعه لبعض الروايات والمسرحيات التي وقف منها بعضهم وقفة المتهيب ، حيناً ، وأحياناً وقفة المنتقد ، المنكر على شوقي معرفته بأصول الأدب المسرحي ، حتى لقد قالوا إن شوقي ، في مسرحياته غنى ولم يمثل ، بمعنى أن ما يهتم شوقي بإبرازه هو الشعر الغنائي الوجداني أكثر من السرد والتمثيل المسرحي ، وحبك الفصول ، ولو كان ذلك على حساب الناحية الفنية ، في الكتابة المسرحية . لقد وضع شوقي ، على سبيل المثال ، رواية « عذراء الهند » ، فانتقدها الكاتب اللغوي اللبناني الشهير الشيخ إبراهيم اليازجي ، فقال : « انتهت إلينا نسخة من هذه الرواية العذراء ، لحضرة منشئها الأديب المتفنن أحمد بك شوقي ، الشاعر المشهور . . وهي رواية غرامية غريبة السرد ، تنتهي وقائعها إلى زمن رعمسيس الثاني . . والذي تبين لنا ، بعد تصفح جانب منها أن مؤلفها لم يقصد من وضعها إلا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات »

وعلى الجملة فإن هذه الرواية كلها غرائب ، وأغرب ما في تلك الغرائب صابورها عن مثل المؤلف ، على ما اشتهر به من التقدم في الأدب ، وطول مزاولته لصناعة القلم . وما نخسبه إلا قصد مراعاة النظير بين موضوع الرواية وعبارتها ، حتى تكون كلها غريباً في غريب » (١)

موقف طه حسين من شوقي :

وتحدث الدكتور طه حسين عن مسرحيات شوقي ، فقال : « أما عن التمثيل ، فقد غنى شوقي ، فأطرب ، وأثر ، واكتنه لم يمثل ، لأن التمثيل

(١) راجع كتابنا « الأعلام والفنون الأدبية » صفحة ١٤٣ - طبعة ١٩٦٦ دار الكاتب

العربي .

لا يُرتجل ارتجالاً ، ولا يهجم عليه ، وإنما هو فنٌ يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة . . . فكان تمثيله صوراً تنقصها الروح ، وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء » (١)

ولم يتخلص شوقي ، حتى في مسرحياته ، من شواظ العقّاد الذي قال : إن الروايات التي نظمها شوقي قد خلّت من الشخصيات ، والتبست منها ملامح الأبطال أيما التباس . . مع أنها كلها أو بعضها تاريخية ، ليس في تحضيرها أو تصورهما فضل كبير بالقياس إلى فضل الإنشاء والإبداع . » (٢)

شوقي والمسرحية الشعرية العربية :

والواقع أننا لو حاولنا أن نحصّر تجديد شوقي ، في موضوع معين ، لاستطعنا أن نقول إن محاولات أمير الشعراء المسرحية ، فضلاً عن محاولاته في « حكاياته » الموضوعية على ألسنة البهائم والطيور ، هي أهم ما قام به شوقي من تجديد في موضوعات الشعر العربي المعاصر . لذلك لا نرى ضيراً في إثبات طرف من بحث للدكتور عبد المحسن عاطف سلام ، عن « المسرحية الشعرية العربية » (٣) ، يوميء فيه إلى فضل شوقي ، وأثره فيمن تلاه من الشعراء الذين عالجوا الشعر المسرحي . فهو يرى أن « أحمد شوقي يعتبر ، في عرف النقاد والباحثين الأكاديميين ، الرائد الأول للمسرحية الشعرية . ولا يرجع ذلك التقدير الضخم لإنتاج شوقي ، برغم ما وجّه إليه من نقد لاذع في بعض الأحيان ، إلى إنتاج مسرحي غزير أنتجه ، كما لا يرجع إلى درامة مسرحية أبدأها ، فيما كتب من مسرحيات ، ولكنه يرجع في الأغلب

(١) راجع كتاب « حافظ وشوقي » للدكتور طه حسين . صفحة ٢٢١ .

(٢) راجع كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » لباس محمود العقاد - صفحة ١٦٦

(٣) راجع عدد « الهلال » الممتاز عن « المسرح » - أول أغسطس ١٩٦٥ - السنة ٧٣ -

العدد ٨ - صفحة ١١٣ وما بعدها ، في مقالة بعنوان « المسرحية الشعرية العربية » للدكتور عبد المحسن عاطف سلام .

إلى أن شوقي قد استطاع أن يفرض هذا النوع الشعري على الأدب العربي ودارسيه ، واستطاع أن يخلق له جمهوراً يعجب به ، ويطرب ، ويستمتع . وكان جمهوره هو نفس الجمهور الذي اعترف بعبقريته ، شاعراً غنائياً جماعياً معبراً عن آمال الوطنية والمسلمين والعرب ، في أرجاء العالم الإسلامي كله . واستطاع أن يجعله نوعاً شعرياً أدبياً يدرس في المدارس والجامعات والمعاهد . وأزال عن الانتاج التمثيلي ما كان يضيف عليه من سوقية كانت تنزل به وبمنتجيه ومثليه ومخرجيه .

وقد استفاد شوقي ، دون شك ، من جهود من سبقه من الكتاب المسرحيين والمترجمين . فقد كشفوا عن بعض المشكلات التي كان عليه أن يواجهها لأول مرة ، عندما يكتب مسرحية . كما ذلوا له بعض الصعوبات التي كانت تعترض كل كاتب لمسرحية بالشعر .

وقد سار شوقي على الدرب الذي سلكه من سبقه . فاختار موضوعاته من التاريخ العربي والإسلامي والمصري والحياة الاجتماعية المصرية . فقد كتب شعراً : « مصرع كليوباترا » ، و « مجنون ليلى » ، و « عنتره » ، و « علي بك الكبير » ، و « الست هدى » . وكتب مسرحية ثرية واحدة هي « اميرة الأندلس » ووافته منيته قبل أن يتم مسرحيتين أخريين ، وهما « البخيلة » و « محمد علي الكبير » (١)

وقد نالت « مصرع كليوباترا » و « مجنون ليلى » شهرة عارمة ، ومثلتا غير مرة وشغف بهما كثير من الشباب ، ويروى كثير منهم أجزاء من هاتين المسرحيتين ، وبخاصة تنمة القطع الغنائية الخالدة التي ضمنها شوقي مسرحيته .

(١) عقد الدكتور شوقي ضيف في كتابه « شوقي شاعر العصر الحديث » فصلاً خاصاً عن ملهاته مخططة لشوقي اسمها « الست هدى » ، ولم يذكرها الدكتور سلام في بحثه .

ولا يخضع مسرح شوقي ، فيما لاحظ نقاده ودارسوه ، لمدرسة أدبية معينة ، فما هو بكلاسيكي ، ولا هو برومانسي ، ولا هو غير ذلك . وإنما هو شوقي الذي يعبر الحدود ، ويخطم القيود ، ويشخص ببصره إلى كل شيء .

ولا يعني هذا أنه قد استطاع أن يكتب مسرحيات إنسانية خالدة ، كما فعل شكسبير وكورناي وراسين وموليير ، ولا يعني أنه استطاع أن يخاق شخصاً خالدة في تاريخ الخيال البشري كما فعل كبار كتّاب الشعر التحليلي ، فشوقي أبعد من أن يحقق ذلك . ولكن ملاحظتنا تدل على أنه لم يكن يلتزم في خلقه اتجاه معيناً . على الرغم من أنه كان على صلة بهذه التيارات الأدبية التي كانت تستخدم في أوروبا إبان دراسته فيها ، وظالت تستخدم ، من بعد ، حتى يومنا هذا .

كما تدل أيضاً على أنه لم يعن نفسه لاكتشاف أصول جديدة لمسرحية شعرية تناسب الذوق العربي . وكل ما نعلمه أنه تخلص من قيود الكلاسيكية التي تحتم وحدة الزمان ووحدة المكان ، وسار مل الرومانسيين في غدم إصراره على الوحدة الدقيقة للموضوع . ونهج نهجهم أيضاً عندما ملأ مسرحياته بالانفعالات الفياضة . والمناظر البراقة . وفي عرضه اكل شيء .

ونكاد نقول إنه سار مع الرمزيين . عندما حاول أن يكشف عن أعمق أعدايق الشخص . ولكنه كان كلاسيكياً أيضاً لانقائه نوعاً واحداً من الشخصيات التي امتلأت حياتها بألوان البطالة النفسية والأخلاقية والوطنية ، « أو هكنا يصورها ويفهمها » .

وكان كلاسيكياً . لأنه يحاول . ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . أن يصور ألواناً من الصراع بين التقاليد والأخلاق . وبين قوى نفسية وأخلاقية ، متعارضة . وكان كلاسيكياً لأنه ارتفع بشعره إلى سماوات خطابية عليا عندما يصف الأحداث أو فعالها في نفوس شخصوه .

ويمتاز شعر شوقي التمثيلي بأنه شعر غنائي مطرب ، لايهتم كثيراً بالفعل المسرحي ، ولا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الحدث ، ونموه ، وحاجة الشخص إلى الحركة . وقد أطال شوقي إطلاات كبيرة في مواقف الفخر والثناء والحزن والتأمل والمرح والشكران . وبعض هذه المقطوعات مقطوعات غنائية خالدة ، مثل خطاب أنطونيو لروما في « مصرع كليوباترا » التي أولها :

« روما حنانك ، واغفري لفتاكِ

أَوَاهِ مِنْكَ ، وَآهِ مَا أَقْسَاكَ »

ومقطوعة :

« أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ؛

ما لروحينا عن الحب غني »

ومقطوعة :

« اليوم أقصر باطلاً وضاللي »

وغير ذلك من مقطوعات نجدها في مسرحياته المختلفة :

ولم يلتزم شوقي في شعره التمثيلي وزناً واحداً ، كما حاول ذلك كل مَنْ سبقه من كتاب المسرح الشعراء . فقد كان يتنقل في الحوار الواحد ، من وزن إلى وزن ، ومن قافية إلى أخرى ، دون مراعاة لشيء ، إلا مقتضيات الحوار نفسه ، وقد خلّص ، بذلك ، الشعر المسرحي من قيد كان يمكن أن يكبله ، فلا يستطيع أن يتطور ، وأعطى للكاتب المسرحي حرية كبيرة للتعبير .

ولقد درس مسرح شوقي غير دارس ، ونقده غير ناقد . وإلعل أهم نقد وجه إليه ، أنه لم يستطع أن يحافظ على وحدة الموضوع ، أو ما يُعرف بالحبكة ، محافظة دقيقة ، وأنه لم يستطع أن يجعل العمل المسرحي عملاً داخلياً يتطور بالشخصيات ومن خلالها ؛ وأنه أضاف قصائد غنائية طريفة كانت

توقف في كثير من الأحيان تطور الفصل المسرحي ونموه (١) ، وأنه لم يستطع أن يجعل من المسرحية كائناً عضوياً متكاملًا ، يتعاون أعضاؤه ، من شخوص وحوار وغناء ومناظر على أداء وظيفة واحدة ، مما أدى إلى وجود تفكك في بناء المسرحية ، وانفصام في تركيبها .

موقف الدكتور محمد مندور :

وقد أرجع ذلك بعضُ النقاد ، وعلى رأسهم المرحوم الدكتور محمد مندور إلى أن شوقي كان يستجيب لطبيعة الشعر العربي القديم ، ولتراث قدمه ، وحب جمهوره للطرب والغناء . ومن ثم أنتج مسرحيات لو كان أتيح لها من كبار الموسيقيين مَنْ يلحنها ، لنجحت نجاحاً كبيراً ، ولأصبحت غذاءً فنياً ممتعاً للكثيرين ، ولصارت خير «أوبرات» أنتجها أكبر شعراء عصره .

ويستدل على ذلك بالنجاح الذي لاقته مقطوعات «مصرع كليوباترا» و «مجنون ليلي» التي لحنتها وغناها الأستاذ محمد عبد الوهاب .

وقد وجه العقاد إلى شوقي نقداً من نوع آخر . . فزعم أنه لا يلتزم بالملامح التي يذكرها التاريخ للأحداث والشخصيات التي يوردها في مسرحياته .

ونقد مندور ، نقدٌ صحيح ؛ ونضيف إليه أن الغناء لا يستطيع أن يُصلح من بناء المسرحية ، ولكنه قد يغطي على ما في المسرحية من تفكك ، ويصرف النظر عن متابعة التطور الدقيق للحدث .

أما نقد العقاد ، فنقد فيه شيء كثير من التعسف . فليس على الشاعر أو القاص أن يلتزم بالحقائق التاريخية الدقيقة مادام لا يفاجئ الناس بمخالفة جريئة لحقيقة راسخة في أذهانهم .

وكما أثر شوقي في كثير من الشعراء الغنائيين من بعده ، أثر في الشعراء

(١) وقد أشرنا ، من قبل ، إلى نقد كل من طه حسين وعباس محمود العقاد لمسرح شوقي .

المسرحيين أيضاً ، فساروا جميعاً على الدرب الذي سار عليه ، وجمع بعضهم بين الشعر الغنائي والشعر المسرحي كما فعل ، وكما يفعل كثير من الشعراء الأوروبيين ، ونذكر من هؤلاء : علي محمود طه ، وعزيز أباظة ، ومحمد فريد أبو حديد ، وعلي أحمد باكثير .

ويذكر الدكتور سلام أن عزيز أباظة يتفوق في شعره الدرامي على شوقي نفسه ، ويرجو أن يستمر أباظة في إنتاجه « حتى تبلغ مسرحياته عدداً يجعله الرائد الحقيقي لهذا النوع الشعري في تاريخنا أدبنا العربي » .

وقبل أن نلج باب الحديث عن تجديد شوقي في « الحكايات الخرافية » ، نرى أن نضع بعض النقاط على الحروف ، بالنسبة لما أوردناه من أقوال عباس محمود العقاد ، بصورة خاصة ، عن شوقي .

إن النظرة الأولى للمعركة التي ألهمها العقاد ضد شوقي وأمثاله ، تجعلنا نعتقد أن ثمة خصوصية شخصية بين الرجلين ، أو أن للعقاد ثأراً لدى شوقي . ولكن استقراءنا لأحداث تاريخ مصر ، في تلك الحقبة الملكية ، يجعلنا نلمح فيما وراء هجوم العقاد على شوقي ، هجوماً آخر يشنه على أولياء نعمة شوقي ، وعلى الأخص الملك أحمد فؤاد ، والد الملك فاروق . « فإذا هو — كما يقول عبد الرحمن صدقي — المنازل العنيد لحصم عتيد من الأدباء أو الشعراء ، وايكن هذا الحصم شاعر القصر ، المفاخر بقلبه :

« شاعر العزيز وما بالقليل ذا القلب »

الذي يملك من كان في مثل منصبه . بحكم اتصاله بالسلطة العليا . الاستفادة من تسخير الدعاية الصحفية لمولاه ، فيخرج منها بنصيب لنفسه حين تنشر مدائحه الرسمية ، بالثناء على شعره ، والتمجيد لصاحبه . والنيل من غيره ، منادين بتفضيله حتى على شاعر العربية « المتنبي » الذي قيل في وصفه إنه

« ملأ الدنيا وشغل الناس » والذي كتب عنه ، قبل ذلك ، فيلسوف العربية الشاعر أبو العلاء المعري كتاباً سماه « معجزة أحمد » ، والذي كان في القرن العاشر يقول حين يمدح ، مهتماً كافور الإخشيدي الجالس ، وقتذاك ، على عرش مصر :

« وأنا منك ، لا يهنيء عضو
بالمسرات سائر الأعضاء »

على حين جاء مزاحمه ، شاعر القرن العشرين ، ليقول للخديوي :

« فاسمع لعبدك ، وابن عبدك ، منطقتاً
متطائراً بك في القوافي صيته » (١)

رأي صالح جودت :

والواقع أن مسرحيات شوقي التي أقامت أدباء مصر والبلاد العربية وما أقعدتهم ، وإن نالها الكثير من الانتقادات المحقة حيناً ، المتسمة بـ « يسيم التحامل والتجريح حيناً آخر ، تبقى في مكانة عالية من الأدب العربي ؛ ولعل خير ما يمثل النظرة الموضوعية إلى مسرحيات شوقي ، قول الشاعر صالح جودت : « لم يعرف المسرح العربي المسرحية متكاملة المقومات إلا حينما نزل شوقي إلى ميدانها سنة ١٩٢٧ ، وكان إلمامه الواسع بالأدب الفرنسي ، وليدنيه الطويلة في مسارح باريس وهو يطلب العلم هناك ، أيام شبابه ، ولا

(١) راجع « الهلال » العدد الرابع - السنة ٧٥ - أول إبريل ١٩٦٧ - صفحة ٧ ، مقالا لعبد الرحمن صدقي بعنوان : « ذكريات في ذكرى العقد ».

سيما مسرح « الكوميدي فرانسيز » (١) وما شاهده على خشبته من روائع كورناي ، وراسين ، وموليير .. كان كل هذا عده في الاقدام على هذه الخطوة الرائدة في تاريخ المسرح العربي ، وفي تاريخ الأدب العربي جملة ، فكتب مسرحياته : « مصرع كليوباترا » ، و « علي بك الكبير » ، و « قمبيز » و « مجنون ليلى » و « عنتره » ، و « أميرة الأندلس » وملهاة « الست هدى » التي تميزت بلون جديد ، هو المحلية ، والروح المصرية المرحية ، واللغة المصرية الفصحى ، أي اللغة السهلة التي لا تخرج عن حدود القاموس العربي ، مع تطعيم يسير ببعض الألفاظ والتعبيرات القاهرية ، بحيث يستسيغ القصة كلها ، ويستوعبها كل قارئ أو مشاهد ، سواء أكان من الخاصة أم العامة .

وقد تغنى شوقي ، من خلال الحوار الشعري ، في هذه المسرحيات ، بالحب العنيف في « مجنون ليلى » ، وبالعاطفة والبطولة في « عنتره » وبحرية مصر وكفاحها ضد الاستعمار في « مصرع كليوباترا » ، و « محمد بك الكبير » و « قمبيز » ، وبأبجاد العرب في « أميرة الأندلس » وبنقد المجتمع في « الست هدى » . . .

ولذا كانت حرفة المسرح في هذه الروايات تعرضها لناحية من النقد ، في بعض المواقف ، فإن روعة الشعر ، وانسياب الموسيقى ، وضخامة الموضوع تظني على أكثر من هذا النقد ، وتضع هذه الأعمال في مكان خفي من تاريخ الأدب العربي » (٢)

ولقد نكون أطلنا في عرض بعض آراء كتابنا ومفكرينا حول مسرحيات شوقي ، غير أن الدويّ الهائل الذي أحدثته تلك المسرحيات ، باعتبارها

Le Théâtre de la comédie Française

(٢)

(٢) راجع : « الهلال » - العدد التاسع - السنة ٧٤ - أول سبتمبر ١٩٦٦ ، مقالا لصالح جودت بعنوان « شوقي أمير الشعراء » .

حدثاً جديداً في تاريخ الأدب العربي ، يجعلنا نعتقد بأن ما أثبتناه ، هو في حقيقة الأمر ، جزء يسير من أصداء ذلك الدوي .

ولئن كنا نلاحظ هذا التباين في الآراء ، تجاه الشعر المسرحي ، لدى شوقي ، فذلك التباين نتيجة طبيعية جداً ، إذا ما عرفنا قيمة شوقي ومكانته الأدبية ، وقديماً قيل : « ما اختلف اثنان على امرىء إلا كان عظيماً » .

الخرافات والأمثال :

ولا تقف عظمة هذا العمل التجديدي ، لدى شوقي ، عند حدود مسرحياته ، وإنما تعتبر أمثاله وخرافته وحكاياته الشعرية لوناً آخر من ألوان التجديد الأدبي ، وذلك على الرغم من كونها مستوحاة من الآداب الأجنبية ، وقد لفتنا إلى ذلك أكثر من مرة . في فصول هذا الكتاب .

وكان من الميسور على الأمثال والحكايات الشعرية أن تدخل إلى صفوف الطلبة في مدارسهم ، من الباب الواسع ، بحيث يحفظها الأحداث ، ويلقونها ، ويتداولون ما فيها من حكم تعليمية مفيدة لمن كان في عمرهم ، لا سيما وقد سبق لشوقي أن نظم لطلاب المدارس عدداً من الأناشيد والأدعية ، تمتاز بالوزن الرشيق ، واللفظة العذبة ، والإيقاع الموسيقي المطرب .

ومن الأمثلة على أناشيده ، نشيد وضعه على لسان المدرسة ، يقول فيه :

| | |
|--------------------|-----------------------|
| أنا المدرسة أجعلني | كأَمْ ، لا تملّ عني ، |
| ولا تفزع كما أخوذ | من البيت إلى السجن |
| كأنّي وجه صياد | وأنت الطير في الغصن |
| ولا بدّ لك اليوم ، | وإلاً فغداً ، عني |
| أو استغن عن العقل | إذن عني تستغني |

ومن أناشيده أيضاً « نشيد مصر » ، ومنه قوله :

بني مصرٍ مكانكمو تهيا
فهيّا مهّدوا للملك هيّا
خذوا شمس النهار له حليّا
ألم تكُ تاجَ أوّلكم مليّا !

على الأخلاق خطّوا الملك وابنوا
فليس وراءهما للعز ركنُ
أليس لكم بوادي النيلِ عدنُ
وكوثرُها الذي يجري شهيا !

لنا وطنٌ بأنفسنا نقيّه
وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيّلت الأرواح فيه^(١)
بذلناها كأنّ لم نعطِ شيّا

ومن الواضح أن ما في هذا الشعر من الوزن الرشيق ، واللمظة العذبة ، والإيقاع الموسيقي المطرب ، لا يخفي سطحية الأفكار والمعاني الواردة فيه ، ولعلّ ذلك عائد إلى أن شوقي نظم هذا الشعر في أول عهده بالكتابة ، إذ لا يُعقل أن ننسب شعراً من هذا الطراز إلى المرحلة الذهبية من عمر شوقي ، ولا إلى

(١) سilt : سلت .

المرحلة الأخيرة من عمره التي أبدع فيها مسرحياته الشعرية الرائعة .
وإذا كانت الهند هي التي احتضنت المثل الخرافي ، قديماً ، وهو ما يزال
في مهده . وإذا كان قد اشتهر بنظم الأمثال الخرافية كل من « ايزوب »
لدى اليونان ، و « فيدر » لدى الرومان . و « لافونتين » لدى الفرنسيين ، فقد
كان مثل هذا الفن الشعري في الأدب العربي هو أحمد شوقي ، بلا منازع ، على
الرغم من المحاولات التي قام بها آخرون ، قبله ، كالنابغة الذبياني ، أو بعده ،
من أمثال محمد الهراوي ونقولا أبي هنا وسواهما . .

فقد ألف شوقي ما يربو على الخمسين أسطورة ، ابتكر بعضها ، واستوحى
بعضها الآخر . وكم كنا نود أن يتسع المجال لإجراء مقارنات دقيقة بين
ما كتبه شوقي ، في هذا المجال ، وما سبق أن كتبه الهنود (وكليمة ودمنة
مليء بالأمثال الخرافية) . وايزوب وفيدر ولا فونتين ، ولكن لا يفوتنا
أن نشير إلى أن مثل هذه المقارنة تصلح موضوعاً لدراسة مطوّلة أخرى .

وهذه الأمثال الخرافية ذات « قيمة أخلاقية واجتماعية لا تنكر ، على
حد قول الأب حنا الفاخوري » (١) . فهي تتناول الأغراض التي يتناولها
الشعر التعليمي عادة من حض على الفضائل . لا سيما النشاط في العمل ، وحفظ
الوفاء في الصداقة . وتدبر الأمور قبل وقوعها ، وتقبيح الرذائل ، ولا سيما
الحمول والغدر والتهاون . كما تتناول بعض الموضوعات السياسية من مثل
تنظيم البلاط ، واختيار الأعوان « الأسد ووزيره الحمار » .

أما قيمتها الأدبية ، فهزيلة إجمالاً ، فإمّا عمل متناقل الخطو ، أو عقدة
رخوة الإحكام ، تافهة المتعة ، أو تصوير للأشخاص بعيد عن الطبيعة
والدقة ، أو تعبير لا يلائم الموقف ؛ فإن اتصفت أسطورة من تلك الأساطير
بالرشاقة . وخفة الروح . وحسن سياق القصة . وحفظ المتعة . فما ذاك
إلا في القليل النادر ، كما في قصة حمار السفينة :

(١) راجع الجديد في الأدب العربي « للأب حنا الفاخوري - الجزء الخامس - طبعة ١٩٦٢ ،

سقطَ الحمارُ من السفينةِ في الدُّجى
فبكى الرِّفاقَ لِفَقْدِهِ ، وترحَّموا
حتَّى إذا طلعَ النهارُ ، أتتْ بهِ
نحوَ السَّفينةِ موجةٌ تتقدَّمُ
قالتْ : « خذوه كذا أتاني سالماً ،
لم أبتلِعه ، لِأَنَّهُ لَا يَهْضَمُ »

ونذكر ، على سبيل المثال أيضاً ، مثل « الثعلب والديك » وفيه يقول :

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| برز الثعلب يوماً | في شعار الواعظينا |
| فمشى في الأرض يهدي | ويسبُّ الماكرينا |
| ويقولُ : « الحمدُ لِلَّـهِ | هـ ، إِلَه العالمينا |
| يا عباد الله توبوا | فهو كهفُ التائبينا ، |
| وازهّدوا في الطَّيرِ إِنَّ | العيشَ عيشُ الزَّاهدينَا |
| واطلبوا الديك يودُّنُ | لصلاة الصُّبحِ فينا » |
| فأتى الديك رسولُ | من إمام النَّاسِكينا ، |
| عرض الأمر عليه | وهو يرجو أن يلينا ، |
| فأجاب الديكُ : « عذراً | يا أضلُّ المهتدينَا ، |
| بلغِ الثَّعلبُ عني | عن جدودي الصالحينا ، |

عن ذوي التيجان مَنُ دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا ، وخيرُ القول قولُ العارفينَا :
مُخْطِيٌّ مَن ظنَّ يوماً أَنَّ لِمَتَعَلَّبٍ دينَا !»

معارضات شوقي :

ولقد أشرنا أكثر من مرة إلى معارضات شوقي لقصائد الشعراء القدامى ، مما حمل بعض النقاد على اعتباره . لهذا السبب ، مقلداً لا مجدداً . والحقيقة أننا نستغرب استغراباً تاماً كيف يكون اتخاذ شوقي لوزن وقافية سبق أن نظم شاعر قديم قصيدته على أساسها ، هو بمثابة تقليد أعمى لذلك الشاعر . فالأوزان والقوافي لا يمكن أن تصبح ملكاً حلالاً زلالاً لشاعر معين ، إذا نظم قصيدة بهذه الأوزان والقوافي ، بمعنى أن آلاف القصائد لآلاف الشعراء يمكن أن تنظم على ذات الوزن ، وذات الروي . مع تشابه أو تباين الموضوعات التي يعالجها هؤلاء الشعراء ، فلا يكون الشاعر مقلداً أو مجدداً بسبب استعاضته عن وزن بوزن ، أو عن روي بروي . لأننا لو قلنا بذلك لحصرنا الشعر في إطار النظم وحده ، ومعلوم لدينا أن الشعر هو نظم من ناحية ، وتعبير عن شعور أو فكرة من ناحية ثانية .

ثم لو أننا طلبنا إلى الشعراء أن يقلعوا عن أوزان وقوافي سبقوا إليها ، اكان ذلك يعني أن الفكر العربي كان ينبغي أن يخلو من الشعراء ، منذ عهد عنتره ابن شداد ، صاحب الكلمة الشهيرة : « هل غادر الشعراء من متمدّم ؟ »

نعم ! عارض شوقي كثيرين من الشعراء ، كالأبوصيري ، وابن زيدون والبحتري ، والمتنبي ، ونقل بعض المعاني الواردة في شعر ابن الرومي وأبي تمام . وأبي خالد بن محمد المهلب ، وسواهم . ولكن شوقي في جميع معارضاته ، واقتباساته لبث متفوقاً على الذين عارضهم أو اقتبس معانيهم .

صحيح أن الشيخ أحمد الاسكندري يحاول إبراز تفوق الأقدمين على شوقي حين يقول : « والحق أن المباراة التي عقدها بين نفسه والفحول من الشعراء ، قد انجلت عن أن السابق في الزمن مازال سابقاً في الشعر » (١) ، ولكن مثل هذا الرأي اليتيم يبقى قليل الأهمية فيما عني تجديد شوقي في معارضاته .

وقد علق أحمد زكي على قصيدة « نهج البردة » تعليقا يؤكد أن أحمد شوقي في معارضاته لقصائد السابقين من الشعراء : لم يكن مجرد ناقل أو مقلد ، وإنما كان يتخذ من القصائد المذكورة ، وبكلمة أدق من أوزان القصائد المذكورة ورويا ، مرتكزا لتنظم قصائده الجديدة الملائى بألوان العاطفة ، الصادقة ، والمفعمة بالمعاني المبتكرة ، بحيث تكاد قصيدة شوقي أن تغطي على سائر ما عارضه من قصائد . ومما قاله أحمد زكي :

« طالما عارض الناس بردة الأبوصيري في القديم وفي الحديث ، بمئات ومئات من المنظومات ، لكن الصيت بقي لهذه البردة وحدها ، إلى الآن . على أن قصيدة شوقي ، وإن لم ترحزها عن مكانتها ، فإنها قد نالت شرفا ليس له نظير ، ذلك بأن الأستاذ الأكبر الذي انتهت إليه وبه سلسلة الحديث النبوي في مصر ، الشيخ سليم البشري ، مع جلالة قدره ، وسمو مركزه ، ورفع مقامه ، قد تولى بنفسه وقلمه شرح هذه القصيدة ، وقد صاغها شوقي وهو لا يزال في سن الفتوة وطراءة الشباب ، ولكن براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها ، ويقدر ناظمها ، ثم يتوفر على شرحها ، وما رأى الناس لذلك مثيلا قبل شوقي » (٢)

كما يدلي شاعر القطرين خليل مطران بدلوه ، في هذا الموضوع ، فيقول

(١) راجع كتاب : « ذكرى الشاعرين : شاعر النيل وأمير الشعراء » - صفحة ٣١٨ - المكتبة العربية - دمشق .

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٣١ .

عن شوقي : « إنه يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه أن يبرزهم . لا يُجهد فكره . ولا يكده في معنى أو مبنى ؛ فأما المعنى ، فيجثه على مرامه أو على أبعد من مرامه . ولا ينضب عنده . لأنه يستخلص من عقل فوّار الذكاء ، ومعارف جامعة ، إلى أفانين الآداب في لغات الافرنج والعرب ، فلسفة الحقوق ، وحقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استفادها من مطالعته في صنوف الكتب ، واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب ، وأما المبنى ، فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحري ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيّار . وفي المجموع تجدد صفة عامة للنظم ، وهي أنه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبقري والتفوق » (١)

أزجال شوقي :

ولا نرغب في إنهاء هذا الفصل ، قبل الإشارة إلى محاولة طريفة لشوقي ، كان في غنى عنها ، لو شاء ، ولكنه سلك سبيلها لئلا يُقال إن فناً من الفنون الأدبية بقي مغلقاً دون أمير الشعراء .

لقد نظم أحمد شوقي الأزجال ، باللهجة المصرية العامية ؛ ولكن أزجاله جاءت من اللون المثقف الرفيع ، تضج بالأحاسيس المؤثرة ، من حنين وحنان وشوق ومحبة ، كما تضجّ بالألوان الزاهية الزاهرة ، فضلاً عما في هذه الأزجال من موسيقى جعلتها تغدو أغنيات تتردد على شفاه المنشدين .

(١) راجع « مختارات المنفلوطي » صفحة ٦٨ .

اسمع هذا المطلع الشعري الزجلي . في أغنيته الذائعة : « في الليل لما خلي » . إذ يقول :

الفجر شأشأ وفاضُ على سوادِ الخميْلَه
لَمَحَ كَلَمَحِ الْبَيَاضِ من العيونِ الكحيلَه
والليل سَرَحَ في الرِّياضِ أدهمُ بغُرّه جميلَه

ونستميع القارئ عذراً ، لنعيد كتابة هذه الأبيات مرة ثانية ، مع تقديم أو تأخير بعض الكلمات في السطر الواحد ، ودون مراعاة للوزن :

« شأشأ الفجرُ وفاضُ على سوادِ الخميْلَه ،
« لمحَ كالمح البياضُ ، من العيونِ الكحيلَه
« والليل أدهمُ ، سَرَحَ في الرِّياضِ بغُرّه جميلَه »

فإن سأل سائل لمَ إعادة كتابة الأبيات ، على هذه الصورة غير الموزونة لأجبتنا ببساطة : ذلك للتأكيد بأن شعر شوقي الزجلي ، بمجمله ، كان شعراً فصيحاً ، غير محرك . كأنني بشوقي أراد إقناع القارئ العادي . والمستمع الشعبي ، بأن الزجل لا يحتاج إلى الكلمات العامية المبتذلة حتى يصبح زجلاً ، ولكن تسكين الألفاظ الفصحى . فقط ، يجعل الكلام الفصيح في متناول المستمع الشعبي الذي يلهه سماع الزجل .

ألا ليت الشعراء ينهضون لمثل ما نهض اليه شوقي ، والأخطل الصغير بشاره عبد الله الخوري في أغنيته الشهيرة ، ومطلعها :

« يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك »

ولو فعلوا ، لأغفروا الآذان والأذواق من سماع هذه السخافات التي يسمونها شعراً يُذاع مُلحّناً . ومغنى . بعدما يدّعي أصحابه أن هذا اللون

الباهت يتجاوب والذوق الشعبي العام . ولقد يكون الذنب ذنبَ المطرب أو الملحن ، أو ذنب الإذاعة والتلفزيون ، غير أن المسؤولية الأولى والأخيرة ، في رأينا ، تقع على عاتق الشعراء الذين تمهر القصائد بأسمائهم الكريمة . فنعكس مدى شاعريتهم ، وذوقهم الفني .

ومن هنا أننا حملنا لواء الدعوة ، منذ عشر سنوات ، إلى تبديل أنماط هذه الأغاني التي تفسد الشبيبة وتُحَنِّثُها ، وتشوِّه أذواقها ، وتسيء في الوقت ذاته إلى الفن الإذاعي ، والأصالة الأدبية . ومما نذكره أن أحد كبار المطربين في لبنان ، وهو صديق عزيز ، استمع إلى أغنية فصحي معروفة كنا نظمناها ، ومطلعها :

سكر اللحنُ وجُنَّ الوترُ وتشتَّتْ في الجفون العبرُ
ما خفرتُ العهدَ ، يا عهدَ الهوى

لا ولا عني تغيبُ الذكرُ !!

وكان يقرأ حملتنا على الأغنيات الرخيصة التي تذاع ، فاتصل بنا طالباً أن ننظم له أغنية باللغة العامية عن «الريف المهجور» حتى يقدمها للإذاعة ؛ وبعدما أنهينا نظم الأغنية التي نقول فيها :

هونيك ، عَ شَوَّار السَّما شميْلَةُ بَيوتُ

فوقا النجوم منتَفِسه شالاتها

بسقوفها ناسج بيوتو العنكبوتُ ،

والحزن متشلقح على سطوحاتها

ما في حدا بيزورها غير السكوتُ

وغير نَسَمِه مكسَّره جناحاتها

وغير طَيْرٌ بيشفقَ عَلَيْهَا وبيفوتُ

يشربُ لَهَا مَنْ عيونُها دمعاتها.

حملها إلى الإذاعة لنيل الموافقة على تلحينها ، فأبوا الموافقة إلا بعد
تبديل عدد من الألفاظ والأبيات ، فرفضنا الوصاية ، والرقابة في آن ، لأن
المطلب وارد في غير محله .

وكان صديقنا المطرب الكبير يحدّثنا في ذلك ، والراديو يذيع إحدى الأغنيات
التي . مع احترامنا لناظمها ومغنيها . لا تعتبر من الشعر في قليل أو كثير ،
فقلنا له : من الطبيعي جداً أن تُرفض أغنيتنا ، في إذاعةٍ تعتبر أن من أغنياتها
العصماء :

يا قوموره ، يَمَّ أَلَقَدَّ شو جدّ عليك شو جدّ

جيتي الجمعة ، وجيتي السبت

وليش ماجيتي نهار الحسد !!

وللقارئ غير اللبناني نشرح المعنى « العميق » الذي ربما استغلق عليه في
البيت الثاني ، ومؤداه مخاطبة الحبيبة : « جئت يوم الجمعة . وجئت يوم
السبت ، ف « ليش » ؟ أي لماذا ماجئت نهار الأحد » ؟
حقاً إنه الشعر العذب السلسيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

وبعد ، فقد كان أحمد شوقي مجدداً : وكان داعية إلى التجديد في الأدب
العربي ، ولكن في إطار الأصالة التي لا تقطع الصلة بالقديم ، فتأخذ منه
جمالياته ومحاسنه ، وتضيف إليه محاسن الجديد وجمالياته ، وبذلك اعتُبر
شوقي أحد رواد عصر النهضة الأدبية الحديثة .

احمد شوقي ومعارك الصحافة

أشرنا فيما سبق من فصول إلى بعض المواقف التي اتخذها أدباء وشعراء ونقاد معروفون ، من شوقي ، فمنهم من ظاهر وناصر ، ومنهم من هاجم وعنت ، كل ذلك على مرأى من شوقي ومسمع منه .

والعارفون بحياة شوقي يؤكدون أن شاعرنا كان يخشى أعظم الخشية من النقد والنقاد ، ولذلك فقد كان يعمل على استرضاء أولئك الذين يتناولون أمير الشعر من قريب أو بعيد ، بكل ما وسعته إمكانياته ، حتى عرفت هذه النقطة من الضعف فيه ، وشاعت بين الصحفيين الذين أصبحوا يسترزقون من وراء انتقاداتهم المحقة وغير المحقة ، أو من وراء التلويح بكتابة مثل هذه الانتقادات .

وفي ذلك يقول أحمد محفوظ : « كان شوقي ، على عظيم مكانته ، وعلى قدمه الراسخة في الفن ، لا يستقر من الدأب بين دور الصحف ، كذلك مائدته لا ترفع أطباقها ، ولا يطوى غطاؤها ، فهي دائماً محفوفة بالصحفيين وغيرهم ممن نخشى أقلامهم ، ويخاف نقدهم ، وفي الحق أنه هو الذي صب على نفسه هذا البلاء . فقد أغرى به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء السادة ، فقد عرفوا ضعفه في هذا السبيل ، فاستغلوه .

.. وقد غضب عليّ مرة غضباً شديداً لأنني كنت قرأت في إحدى الصحف نقداً لشعره ، فقال لي : « يا أخي ، هل من اللازم أن تبلغني شتيمتي ؟ أنا لا أقرأ هذه الصحف » . ولم يكن صادقاً ، فقد كان حريصاً على قراءة هذه

الصحف ، ودليلي أنه أرسل إلى صاحب هذه الصحيفة ، في اليوم التالي لنشره النقد ، وأعطاه ، وخلع عليه .

ولم أره جازعاً يوماً ، كيوم ظهور كتاب « الديوان » للعقاد والمازني وفي الحق أن العقاد لم يكن يعني لإرضاء الفنّ في هذا النقد بقدر ما كان يعني شيئاً آخر : كان يعني الشهرة على حساب هذا النقد ؛ وقد أطلق شوقي أصحاب الصحف الصفراء الذين كانوا عبيد ماله على هذه الجماعة ، فأعملوا في أعراضهم تمزيقاً ، وفي أدهم هدماً ، وكان هذا ما يبغيه لأنه كان سبيلهم إلى الشهرة » (١)

شوقي وعبد الوهاب

فإذا كان هذا هو شأن شوقي ، الخائف دوماً من النقد والنقاد ، فلا ندرى مدى صحة ما يروى عن موقف شوقي من الصحافة التي عمدت إلى الطعن والتجريح في فن المطرب الأستاذ محمد عبد الوهاب ؟ وخلاصة تلك الرواية أن أحمد شوقي كان يُعنى بمحمد عبد الوهاب ، في مطلع حياته الموسيقية ، عناية فائقة ، ويوسع له في بيته « كرامة ابن هانيء » . مكاناً يحل فيه على رحب وسعة ، وينظم له القصائد التي يلحنها ويغنيها في المحافل .

وسواء كان هذا الاعتناء لمصلحة شوقي ، أو لمصلحة عبد الوهاب ، فقد كان مما يلفت انتباه الصحفيين والنقاد الفنيين الذين راحوا يشنون حملة لا هوادة فيها ، على « الموسيقار الكبير »

وجاء محمد عبد الوهاب ذات يوم ، متأبطاً عدداً غير قليل من الصحف التي تتضمن حملات مسعورة عليه ، وقدمها إلى شوقي متبرماً شاكباً . فلما أن رآه شوقي ، وسمع شكايته ، طلب إليه أن يرمي بتلك الصحف

(١) وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذا الكتاب في فصل سابق .

في الأرض . ففعل . ثم طلب اليه أن يقف فوقها : ففعل . فقال شوقي له لي عند ذلك : « هل رفعتك هذه الصحف أم هبطت بك » ؟ قال عبد الوهاب : « لا بل رفعتني » فقال شوقي : « إذن . سيبك : دا كلام جرايد » .
 فإمّا أن تكون هذه الرواية ملفقة (ولا نظنها كذلك خصوصاً وأنها معروفة من العديد من الناس) ، وإما أن يكون ما يروى عن خوف شوقي من الصحافة ونقادها أمراً مبالغاً فيه ، وهذا الرأي ، في حسابنا هو الأرجح .

مفهوم النقد عند شوقي :

ومع أن شوقي كان يخاف إلى حد معين ، من النقد والنقاد ، فقد كان له . على أثر المعركة التي نشبت في مصر بين دعاة القديم ودعاة الحديث ، رأي ، في النقد ، صريح يرجع الخلاف بين الشعراء إلى الاختلاف بين مشاربهم وأهوائهم . فهو يقول : « ليس بين الشعراء قديم ولا جديد مادام الشاعر يروي في كل عصر ، فهو ابن الماضي والحاضر والمستقبل . والشعر وحي يهبط على نفوس الشعراء . وليس اختلاف هؤلاء إلا اختلاف نفوسهم في الحس والأهواء والنزعات ، وأولئك الذين يطلبون أدباً مصرياً غير شائع في العالم العربي : ولا يستوحى الأدب العربي القديم ، إما أن يخلقوا لمصر لغة أخرى يسخرونها ويعبثون بها كما يشاؤون ، وإما أن يستوحوا للأدب المصري المزعوم لغة من لغات الغرب ، ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علماً مزيفاً على مسمى لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا » .

معركتان :

وقد عقد الأستاذ أنور الجندى في مجلة « الهلال » (١) بحثاً عن « المعارك

(١) راجع « الهلال » العدد ١١ - السنة ٧٦ - نوفمبر (تشرين الثاني ١٩٦٨) .

الأدبية بين شوقي ونقادها ، تحدث فيه عن ملامح كثيرة من شخصية الشاعر ، باعتباره كان عاملاً هاماً في معارك النقد التي أثارت حول شعره وحول شخصيته ، وبين محاولات شوقي ، بعد عودته من المنفى وتخلّصه من القصر ، في استرضاء جميع الأحزاب التي كانت بدورها تتصارع وتتعارك على استرضائه وتقريبه ، وكان كتاب الشباب في تلك الفترة ، يلتصقون من نقده وسيلة إلى الشهرة . كما يجد بعض الصحفيين من نقده وسيلة إلى الكسب ، وبذلك لبث شعر شوقي موضع نقد الكتاب وتقريظهم طوال حياته .

ثم يفصل وقائع تلك المعارك الأدبية ، مبرزاً معركتين هامتين هما : معركة « الديوان » ، ومعركة تكريم شوقي ، بحيث « يمكن القول بأن أولى المعارك وكبرائها هي معركة الديوان . فقد أصدر العقاد والمازني كتاباً تحت عنوان « الديوان » عام ١٩٢١ (صدر منه جزءان فقط ثم توقف) ، وقد ضم دراسة مطولة لشعر شوقي ، ودراسات أخرى عن المنفلوطي وعبد الرحمن شكري » وقد هاجم العقاد شوقي في هذه الدراسة هجوماً شديداً حيث قال :

« كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين ، فنمر بها سكوتاً ، كما نمر بغيرها من الضججات في البلد ، لا استصخاماً لشهرته ، ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فإن أدب شوقي ووصفائه من أتباع المذهب العتيق ، هدمه في اعتقادنا ، أهون من الهيئات . ولكن تعفّفنا عن شهرة يزحف إليها زحف الكسح ، ويصنّ عليها من قوله الحق صنّ الشحيح ، وتطوى دقائق أسرارها على الصريح ، ونحن في ذلك الفريق من الناس الذين إذا أرادوا شيئاً بسبب يقنعهم ، لم يبالوا أن يطبق الملاء الأعلى والملاء الأسفل على تبجيله والتنويه به ، فلا يعنيننا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . فإذا استطاع أن يقمّم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير ، والطبول والزمور ، في مناسبة وبغير مناسبة ، وبحق أو

بغير حق ، فقد تبوأ مقعد المجد ، وتسمّ معقد الخلود ؛ وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقاً للمقدرة والإنصاف ، وُبعداً للحقائق والظنون ، وتباً للخجل والحياء . فإن المجد سلعة تُتقنى ، ولديه الثمن في الخزانة ؛ وهل للناس عقول ؟ ومن كان في ريب من ذلك ، فليتحقق في تتابع المدح لشوقي ، ممن لا يمدح الناس إلا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة ، شأن تلك الحرق المنتنة تعنى بها بعض الصحف الأسبوعية ؛ وعرف من لم يعرف أنها ماُخلقت إلا لسلب الأعراض والتسول بالمدح والذم ، وأن ليس للحشرات الآدمية التي تصدرها ، مُرتزق غير فضلات الجبناء ، وذوي المآرب ، خبز مسموم تستمره تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة ، كما تحركها الهوام وخشاش الأرض ؛ هذه الصحف الأسبوعية ، وهذا شأنها ، وتلك أرزاق أصحابها ، تكيل المدح جزافاً لشوقي في كل عدد من أعدادها ، وهي لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تمحل الأسباب ، واقتسار الفرص ، فإن ظهرت له قصيدة جديدة ، وإلا فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف .

ولقد استخف شوقي بجمهوره ، واستخف ، واستخفّ ، حتى لا مزيد عليه ، ما كفاه أن تسخر الصحف ، سرّاً ، بسوّفه اليه ، واختلاس ثقته ، حتى يسخرها ، جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذي يؤدي بيده أجرة سوقه واختلاسه .

إن امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ ، لا يدري ممّ يستنكف في سبيل بغيته ، وأي باب لا يطرقة تقريباً إلى طلبته ، والحق أن تهالك شوقي على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ، ورد به كل مورد ، وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب .

هذا نموذج من نقد العقاد لشوقي ، وقد بلغ هذا النقد ٩١ صفحة في جزئي «الديوان» ، وتناول عشرات المواقف من شعر شوقي ، من خلال ميزان

حدّده العقاد في أمرين : الأول ، أمر وحدة القصيدة ، وعنده أن أي قصيدة لشوقي يمكن تغيير مواقع أبياتها ، فلا يؤثر ذلك في وحدة نظمها . والثاني : قدرة الشعر على مضمونه إذا ترجمه إلى أي لغة أخرى ، وعنده أن شعر شوقي لا يثبت لهذا العمل .

رد شوقي على نقاده :

والمعروف أن شوقي لم يكن يواجه مثل هذه الحملات بالرد الصريح ، بل كانت له صحف وكتاب ينفق عليهم ، ومن أهم هذه الصحف مجلّتان هما : « عكاظ » لصاحبها الشيخ فهم قنديل ، و « الصاعقة » لمحررها أحمد فؤاد . وقد واجهت مجلة « عكاظ » ظهور « الديوان » بحملة متصلة تحت عنوان : « القافلة تسير » في عشر مقالات تحت أسماء (النزلة الأولى ، الثانية ، الثالثة .) وقد وسمت فيها « العقاد والمازني » باسمي « البربري والقزم » . وقالت « عكاظ » إن من أكبر أخطائها أنها هي التي أخرجت للناس العقاد والمازني من حشرات الأرض :

« أردنا أن نمدد لهما طريق الرزق ، وأن نخرجهما من حياة البطالة والكسل ، ونعوّدهما العيش في طرقه الشريفة ، فألحقناهما بتحرير « عكاظ » في أول نشأتها ، واحتملنا في سبيلهما وفي سبيل ما كانا ينشرانه من المطاعن والمثالب فلما امتلأت البطون ، ظهر اللؤم والانحطاط . وما نسي الناس من شيء ، فلن ينسوا طيش المازني وخفته ، ولا رعونة العقاد وحماقته » .

ثم أشارت إلى أن المازني والعقاد كانا يمدحان شوقي أولاً ، ثم استخدمهما حافظ إبراهيم « للنيل من النبوغ والعبقرية ومن فخر الناطقين بالضاد في ذات أمير الشعراء شوقي » ، وقالت : « لم يغتبط أمير الشعراء قبلاً بمدح العقاد له ، بل غضب وتألّم ، ولم يشعر بذمه الآن ، بل ضحك وتبسّم » . وقالت : « إن العقاد والمازني يطعمان في الشهرة ، ويدعوان إلى مذهب لا يُعرف ، ويقولان شعراً لا يفهم ، ونثرّاً لا يُهضم » . وقالت إنهما يهاجمان شوقي ، « وشوقي

لا شاعر اليوم مثله ، أجمل الأقدمين بمتانة لفظه ، ونصاعة أسلوبه . وإن شوقي ليس في حاجة إلى التنويه بمجده ، ولا الدفاع عن شعره ، « وهتفت تقول : « يا شوقي ، يا شمساً مشرقة وقمرأ منيراً ، يا كمالاتاً مطلقاً ، وكتاباً قيماً » .

وفي مجال نقد العقاد لشوقي ، أورد الشيخ فهمي قنديل (١) قولاً لشوقي : « أنا لا أدفع أجراً لمن يمدحني ويطعن في غيري » وقال ان هذا هو ذنب أمير الشعراء في نظر عباس العقاد و ابراهيم المازني وفي مقال آخر ، قال : أليس من الجنون والحماسة أن يحاول مائعان كالعقاد والمازني — وهما من نعرف — إنزال شوقي من العرش الذي يتبوؤه في قلوب الناس ؟

وقال : « إذا قرأت « أوراق الشتائم » (٢) ، حسبت أن صاحبيهما ينقدان شوقي أمير الشعراء . فإذا بحثت عن قياسهما وحجتهما وجدتهما يتهمان الشعر العربي كله بالقصور والضعف ، فإذا شئت أن تصل إلى غاية الناقدين ، فانظر إلى القياس الذي جعلاه حداً بينهما وبين الشاعر ، تراهما لا يقيسانه بمقياس عربي ، ولا بأصول معرفة يقاس بها شعراء العرب عامة . ولو اتبعنا طريقتيهما في النقد ، وأتينا بكثير من شعر المتنبي ومعانيه وأخيلته ، وكلّفنا من نقلها إلى الأوروبي بلغته ، وجعلنا حسن استقباله إياها موقوفاً » على أنه لا ينكرها لقلب القياس ، واتهم العرف ، وأنكر أكثر الشعر العربي »

معركة تكريم شوقي :

ويشير الاستاذ الجندي في مقاله الى المعركة الأدبية الثانية التي نشبت غداة معركة تكريم شوقي ، حين هاجم العقاد ، في افتتاحية « البلاغ » وكان يومئذ الكاتب الاول لحزب الوفد ، حفل تكريم شوقي ، وذلك تحت عنوان « تكريم

(١) هو صاحب « عكاظ » .

(٢) أي كتاب « الديوان » .

النوايغ » ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك في الفصول السابقة . ومما قاله العقاد ، في ذلك المقال الافتتاحي الذي صدر يوم التكريم بالذات :

« إذا كان الاكرام حثاً لكل نابغ من نوايغ العلوم والفنون ، فقد يكون الشعراء والادباء ورجال الفنون الجميلة أحق به من سائر النوايغ . لهذا نستبشر بالتفات الشرقيين إلى تكريم الشعراء والعلماء ، ونود أن نرى تكريماً كريماً ، لا إعلاناً » يُشترى بالمال أو بالمصانعة والمجاراة .

وإن لنا في شعر شوقي ، وفي صاحب الشعر رأياً معروفاً لا يحولنا عنه ما يحول الناقدون والكاتبين في هذه البلاد .

أما الشعر ، فمجمل رأينا فيه ، أنه لم يرتفع بنفس قاريء واحد الى أفق فوق أفقه ، ولم يفتح لقاريء واحد نهجاً من الإحساس أوسع من نهجه ، ولم يعلم أحداً كنه الحياة ، ولا زين لأحد شيئاً من صور الحياة .

أما صاحب الشعر ، فمجمل رأينا فيه أننا لم نَرَ ، ولن نرى ، ولم نسمع ، ولن نسمع برجل مثله نصب للتكريم في أمة تفهم معنى الكرامة والرجولة . ولا نظنه ، على الرغم من كل شيء ، يستوجب من أحد عرفاناً بحق ، أو تنويهاً بفضل ، فإنه هو لا يعرف حقاً لإنسان ، ولا يطبق أن ينوّه بفضل انسان وقال العقاد أيضاً : « إن ضجة التكريم من بدايتها الى نهايتها إن هي إلا دعاية شوقية يقوم بها الرجل لنفسه ، ويستخدم فيها ماله ووسائله التي ما بقيء يستخدمها في بث الدعاية ، وشراء الثناء . وبهذا نفسر كيف أن جميع البادئين بالدعوة إلى « التكريم » هم أصحاب شوقي ، وزملاؤه في « المعية الخديوية » ، ومن لا علم لهم بالشعر ، ولا اشتغال لهم بالأدب . فشفيق باشا ، ومحمد علي دولار ، وأمين واصف ، وحافظ عوض ، وغيرهم ، قوم لا جامعة بينهم إلا أنهم زملاء شوقي في المعية الخديوية .

ويبقى بعد ذلك ، دليل الإجماع من الصحف المأجورة على الترويج والتجبيذ ونفخ المزامير ودق الطبول . فلو أن هذه الصحف المأجورة أكرمت

أحدًا قط ، لفضلٍ ماثور ، أو لسجية محمودة ، أو لو أنها ذكرت غير شوقي مرة ، كلما ذكرت شوقي عشرًا ، لقلنا : صحف تعرف الحق ، وتهتم بالشعر ، وتجلّ من يستحق الإجلال .
ولكن السر واضح من ذلك ؛ وشأن هذه الصحف أظهر من أن يخفى على إنسان .

بل ما لنا لا نقول إن شوقي ما برح يحتال على الصحف اليومية ، منذ سنة ، ليُسكتها ، أو ليسير بها في زفة التكريم والتهليل ، بل ما لنا لا نقول إن هذا الرجل لا يعرف الوفاء ، ولا يبذل من عاطفته شيئاً إلا في غرض من أغراض الأنانية والإعلان ، ولسنا نذكر التقلب في السياسة ، ولا التذبذب بين الزعماء ، ولا الرياء الذي تكشّف حتى صار من الصدق الصراح ؛ فهذا كله من صفات شوقي التي بطل فيها القول ، واتفق عليها الخصوم والأنصار .

رأي المازني في شوقي :

وبمناسبة تكريم شوقي أصدرت « السياسة » الأسبوعية ، عدداً خاصاً عن شوقي ، حوى ما ألقى في حفلة التكريم ، وإلى جانبه خمسة وعشرون مقالا ودراسة ؛ وقد تنوعت هذه البحوث من أقلام متعددة في دراسة جوانب شوقي ، وكلها التقدير والتقريظ ، ماعدا مقالين : أحدهما للعقاد ، والآخر للمازني .

أما المازني فقد كتب يقول : « لا ياسيدي هيكلكل » (١) : تقيمون كل هذه الضججات والضوضاء حول شوقي ، وتحفون بالزمر والطبل من أرجاء المعمورة كلها ، ثم تعمدون إلى رجل خفيض الصوت مثلي ، وتدعونه أن ينهض وسط هذه الزفات المجلجلة ليُفْضِي لَكُمْ برأيه الصريح . لقد خطر لي في هذه الورطة ، أن أنقل صفحات مما كتب العقاد في نقد شوقي وأذيلها بكلمة أقول فيها :

(١) الدكتور محمد حنين هيكلكل ، رئيس تحرير « السياسة » يومذاك .

« ليس بعد هذا كلام لناقد ، وناقل الكفر ليس بكافر » . وأخرج أنا ، ولا لي ، ولا عليّ ؛ وأدع العقاد مورطاً مكاني ..

إني سيء الظن بهذه الحفلات ؛ وإنها لا تدل على شيء . ليس الخلود هو الشهرة أو دهان الاخوان ؛ إنما الخلود هو أن تبقى روح الرجل في خواطر الناس ونفوسهم . وما أحق من تصفح أذنه هذه المعاني الجليلة ، أن يشيح بوجهه عن ضججات الثناء المجلوب ، وأن يتجافى بنفسه عن الزهو بها .

وليس شوقي ، عندي ، بالشاعر ولا شبيهه ، وإنه لقطعة قديمة متلكئة من زمن غابر لا خير فيه ، يغني عنه كل قديم ، ولا يُضيف هو إلى قديم أو حديث ؛ وما أعرفني قرأت له شيئاً إلا أحسست أني أقلب جثة مُلئت صديداً وشاع فيها الفناء علواً وسفلاً .

لهذا نقول : إن مقياسنا كان ولا يزال «أن الجيد في لغة ، جيد في سواها» والأدب شيء لا يختص بلغة ، ولا زمان ، ولا مكان . فمن كان يكابر بالخلاف في أن شعر شوقي كما تصيفُ ، فما عليه إلا أن يتناول خير ما يذكر له ، وأبرعه في رأي أنصاره ، ثم فلينقله إلى لغة أخرى . ولينظر بعد ذلك مبلغه في الفساد والاضطراب والاعتساف والشطط والسفه والغلو من الصدق والعجز عن صحة النظر . وليت كل عيب شوقي أنه لا يسمو عن المطروق ولا المألوف والمبتذل ، إذن لكانت له على الأقل ، مزية الفطنة إلى ما كانت له في زمنه طلاوة الجدة ، فإن المطروق اليوم كان مبتكر الأمس . والمرء إما أن يكون شاعراً أو لا يكون ، ولا وسط هناك . . .

موقف أنصار شوقي :

وما كاد عدد « السياسة » الأسبوعية يصدر ، حتى واجه حملة ضخمة من النقد من أنصار شوقي . فأصدرت مجلة « عكاظ » عدداً خاصاً بتكريم شوقي ، وكتبت مقالا تحت عنوان « حساد شوقي » ، ثم نشرت مقالا مطولا آخر في العدد التالي ، وكان مما قاله الشيخ فهمي قنديل :

« نجحت مصر في تكريم شوقي بك ، وما يرجع الفضل في هذا إلى شفيق باشا ، ولا إلى حافظ عوض ولا إلى نعمان الأعصر ، ولا إلى أضرابهم وأشباههم ، وإنما يرجع إلى نبوغ شوقي وعظمة شوقي .

أما أهل الثقافة ، والقائمون بأمر « السياسة » ، أما أعداء النبوغ وخصوم العبقرية ، أما السفهاء والأدنياء ، أما السفلة الطغام والفجرة اللثام ، أما هؤلاء الحاقدون جميعا ، فقد طلّعوا ينبحون ، وخرجوا يعربدون . كيف تنهيا الفرصة ، ولا ينتهزها فلان للطعن في شوقي ، وللنيل من شوقي ، ولهما عند شوقي أجور لم تسدّد ، وحقوق لم تردّ .

كيف تريدون من رجلين (١) كانا وما يزالان يطمعان في مال شوقي ، ولهما ثأر قديم عند شوقي ، ولم يُعرفا إلا عن طريق الطعن في شوقي ، كيف تريدون من هذين الرجلين ، وقد دعتهما « السياسة » إلى ذم شوقي ، أن يتورعا عن ذم شوقي ؟

وكيف يكون شوقي أمير الشعراء ، وسيد الأدباء ، وهو يأبى أن يُعطي الشعراء والأدباء ، وهو لا يجعل ماله نهبا يتقاسمه الشعراء الخلعاء . ما يقصد هؤلاء الفجرة انتقاداً أدبيا ، ولا إصلاحاً لغويا ، وإنما يقصدون الازدراء والعيب وشفاء حرارة الحقد .

إنكم طلاب نكاية ، لا هداية ، أتتالون من شوقي ؟ أتتهجبون شمسهُ ؟ أم تطفثون نوره ؟ أتهدمون الجبل . . . »

هيكَل في المعركة

ولم يلبث الدكتور هيكَل أن دخل المعركة ، فكتب مقالا عنيفا تحت عنوان : « أخلاق شاعر الأخلاق : نحن وشوقي بك » ومما قاله : « على أثر ظهور عدد « السياسة » الأسبوعية الخاص بتكريم شوقي بك ، رأيتُه مغتبطا

(١) أي العقاد والمازني .

به ، راضيا عنه ، مؤثراً لإياه على ما يذهب في الهواء من ضجيج الطاعمين الكاسين ؛ ثم رأيت ، بعد أيام من ذلك ، جرائد تأخذ على السياسة الأسبوعية لإباحتها نقد شوقي بك في العدد الذي خصصته لتكريمه ؛ وسمعت من أقرب الناس إلى شوقي ترديداً لنفحات هذه الصحف ، وأسرّ إليّ بعضهم ، في مجلس كان شوقي بعض حضوره ، ما يعبر عن دعر أمير الشعراء من أن يظهر عدد السياسة الذي يلي يوم التكريم ، وفيه شيء من مثل النقد الذي ظهر في عدد التكريم . فعجبت كيف انقلب اغتباط شوقي ذعراً ، وكيف بلغ به خوف النقد هذا المبلغ ، وهو الذي طالما أخبرني أن النقد لا يهزّ مجدداً مكوثنا .

وبعد أيام علمت أن شوقي لفتّ بعض أخبار عن « السياسة » ومحرريها ، وانطلق جماعة من صبيانه يذيعونها في المقاهي ، وفي الطرقات ، فأصغرتُ ذلك منه ، وأعرضتُ عنه ، وأبَيْتُ أن أحدثه فيه كيلاً أخرج به أن أصارحه بهذا التبدل إلى حضيض الخلق . وبقيت بمعزل عنه ، راجياً أن يثوب إلى رشاده يوماً ، ولكنه لم يقف عن رواية أخباره الملفة ، وإرسالها على ألسن صبيانه ، بل جرت السفاهة على صفحات كثيرة ينفق عليها لتصفق له ، ويدير تحريرها باسم مستعار لتتال من أعراض من يحسبهم خصومه (١)

بإزاء ذلك ، لم يكن بُدُّ من أن أبيين للرأي العام ما حدا بشوقي إلى نزول هذه المنزلة ، وإني ليحزني ، عليم الله ، أن أقف من شوقي هذا الموقف ، ولو اضطررت إليه اضطراراً ؛ فلست بالرجل يهدم الماضي ، ويهدم الصداقة ، ويحنت في حق ما أكرم يوماً من الأيام . ولشوقي يدٌ عندي ، يحزني أن تشوبها شائبة وكنت أود أن تظلّ مقدسة قداسة الذكرى التي تثيرها في نفسي .

وبعد ، فما الذي أثار حفيظة شوقي وأغضبه ، حتى جعله يتبدل إلى ما تبدل إليه ! (وذكر هيكल كيف عرضوا على شوقي إدار عدد خاص من

(١) وأشار الدكتور هيكل ، بعد هذا ، إلى ما ورد في صحيفة « عكاظ » .

السياسة) ، وقال : « واعتبط شوقي لذلك اغتباطاً ، وبعث الينا ، كي يزاد هذا العمل كمالات ، ببعض صور له لم تكن نشرت ، وتردد علينا أثناء إعداد العدد للطبع ، وطلب الينا ، فأجبناه إلى عدم نشر مقال معين . ثم ظهر العدد مقدماً بكلمة « السياسة » الأسبوعية : « شوقي بك ، علم البيان في الشعر العربي ، في هذا العصر الحاضر » .

وقف شوقي من هذا العدد الموقف الذي أشرنا إليه . ففهمَ كان الاغتباط ، ثم الفزع ، ثم الاضطراب والتلفيق ، أنا لا أستطيع أن أجد لهذا التطور العجيب مبرراً من رويّة أو تفكير ، وإنما هو إسلام النفس للبطانة من الصبية ، وسوس اليه الصبية المتملقون أنهم لا يرضون عن أن يُنقد ، ويعتبرون أي نقد له جناية على مجده ، تكاد تشلّه ، ففزع ، ثم اضطرب ، ثم لفق ، ثم لجأ إلى الاسم المستعار .

كنت أودّ ألا يطلع الناس من شوقي إلا على شعره ، وأن يقفوا من شخصه ، عند سماعهم به ؛ ولكن حركته الدائمة : وحركة صبيانه ، وهذا الاسم المستعار الذي يتستر وراءه ، لا يصح أن يُترك بغير حساب . ولا يطمئن شاعر الأخلاق أنّنا لا ننازله في الميادين التي يعرفها ، فهو يعلم أننا نعلو عن ذلك علواً كبيراً ، وما زلت أرجو أن يرتدّ جانب من الحكمة التي استظهرها في الشعر إلى قلبه ، فيرد إليه صوابه ، وأن تبرد الأيام غلته ، فيرى عبث من اصطنعى من بطانته ، فيعاوده شيء من حسن التقدير وسلامة الحكم » .

وهجوم على هيكل

وعادت « عكاظ » إلى مهاجمة « السياسة » الأسبوعية ، والدكتور هيكل بالذات ، وقالت : « إن الدكتور هيكل من المعروفين بالتقرب إلى شوقي ، والسير في ركبته ، والإشادة بذكره ، فماذا جرى حتى ينقلب الإعجاب استخفافاً ؟

لو أن رجلاً غير الدكتور هيكل ، كان في مكانه في تحرير « السياسة »

وهبط عليه الوحي ، كعادته في كل يوم ، بأن يحول الدقة من مدح شوقي إلى ذمه ، قبل أن يحف مداد مدحه ، لتريث كثيراً ، ولكنه رجل مثله مثل البوق في فم النافخ ، لأنه لا إرادة له في شيء ؛ ونحن نعلم أنه طالما دلف إلى « كرمه ابن هانيء » ، وانحشر في زمرتها . وذاق طعامها وشرابها .

هل يستطيع رئيس تحرير (السياسة) أن يذكرنا أين كانت تلك المثالب التي يحاول أن يحبط بها سمعة أمير الشعراء ، يوم كتب مقدمة ديوانه ، ويوم تطوع للاشتراك في تكريمه ، واستنغار الأقطار العربية لإرسال وفودها ؟ وأين كان يوم جمعت « السياسة » ورئيس تحريرها على شوقي ، فضائل الدنيا ، وأنزلته منزلة الملائكة والقديسين ؟

يادكتور هيكل : كان أجدر بك أن تكون آخر من يذكر الأسماء المستعارة ، والصحف المأجورة ، وآخر من يقف أمام شوقي بك موقف المخاصم أو البذيء .

وطه حسين أيضاً

وقد أشرنا فيما سبق إلى ألوان من الانتقاد ، وجهها الدكتور طه حسين إلى شوقي ؛ ويحسنُ بنا ، والحديث حديث الدكتور هيكل وعلاقته بشوقي أن نذكر رأي الدكتور طه حسين في المقدمة التي وضعها الدكتور هيكل « للشوقيات » حيث قال : « لغيري أن يمدح شوقي بلا حساب ؛ أما أنا ، فلا أريد أن أمدح ، ولا أريد أن أذم ، وإنما أريد أن أنقد ، وأن أوثر القصد في النقد . وأظن أني أجلُّ شوقي وأكبره بالنقد ، أكثر من إجلالي إياه بالتقريض والثناء ، وقد شبع شوقي ثناء وتقريظاً ، وأحسبه لم يشبع نقداً ، بعد . وليس شوقي ، فيما أعلم منه ، شرهاً إلى حسن الحديث ، وطيب المقالة .

قرأت مقدمة هيكل لديوان شوقي ، وكنت أظن أنني سأظفر بشيء في العقيدة الشعرية لشوقي ، فيما كتب هيكل ، أترى أن مصدر ذلك أن ليس

لشوقي عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها ، أم ترى أن مصدر ذلك أن هيكل لم يُعنَ بشعر شوقي عنايته بنثر أناطول فرانس ؟

الواقع أنني لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة في الشعر، وما أرى أنه قد حاول أن يكوّن لنفسه هذه العقيدة ، وما أرى أنه فكر في الشعر إلا حين يقوله ، وإنما هو ، كما يقول هيكل في شيء من الدهاء « مجدّد حيناً ومقلّد حيناً آخر » ؛ وهو في تجديده وتقليده ، لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التي يتهاى فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذي يقرض فيه الشعر ، ليس غير .

والحرج ظاهر في مقدمة هيكل كلها ، وإن شئت ، فقل : إن المجاملة ظاهرة .

.. كان شوقي مجدداً ملتوي التجديد ؛ ويمضي الزمن ، فإذا تجدد شوقي يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد ، حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة ، كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقديما من الشعراء لا يتسرّ فيه ولا يحتاط ، ينشيء القصيدة ، فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة ، لتجد انقصيدة القديمة التي يحاكيها .

تبدل آراء النقاد بعد وفاة شوقي

هذه السهام التي كانت، في بعض الظروف، قادرة على أن تصيب من شوقي أكثر من مقتل ، انقلبت بعد وفاته عام ١٩٣٢ إلى ضروب من الإنصاف بحق أمير الشعراء ، وإلى ألوان من إكبار ذلك الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس فها هو المازني يقول :

« إن شوقي كان من أنضج شعراء طبقته ، وكان أدقهم تعبيراً ، وأبلغهم وما زال رأيي في شعره كما كان ، وهو أنه كان في صدر حياته أشعر منه في أخرياتها ، ولكنه في العهد الأخير كان أبلغ عبارة ، وأعلى بياناً ، وانه كان ذا حيوية عجيبة ؛ ومن ذلك أنه اقتنع في شيخوخته بأن نظم القصائد على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ، فتحول إلى وضع الروايات

الشعرية التمثيلية ، وطمع في أن يكون في الأدب العربي كشكسبير في الأدب الانكليزي .

رحم الله شوقي ، فقد كان عنواناً ورمزاً لمصر في الشرق العربي كله ، وأكبر ظني أن اسمه سيظل مذكوراً في تاريخ عصره ، مهما بلغ اختلاف الناس في أمره .

وكذلك عدل العقاد رأيه في شوقي فقال عنه : « هو إمام مدرسة نستطيع أن نسميها بمدرسة التقليد المبتكر أو التقليد المستقل . لم يكن شوقي من المقلدين الآلين الذين يلتزمون حدود المحاكاة الشكلية ، ولا يزدون ؛ ولم يكن من المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير » ولكنه كان يقلد ويتصرف ، وكان تصرفه يخرج من زمرة الناقلين الناسخين ، ولكنه لا يسلكه في عداد المبدعين الخالقين الذين تنطبع لهم « ملامح نفس مميزة » على كل ما صاغوه من منظوم أو منثور ؛ فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة ، والمعاني المكررة ، ولكنه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة إلى شعر الشخصية الخاصة التي لا تخفى معالمها ، ولا تلبس بغيرها ؛ وخلاصة القول فيه أنه مقلد مبتكر ، أو أنه مبتكر مقلد . فهو لا يقتفي آثار الأقدمين ، ولا هو ينفرد بملاحه الشخصية ، في التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه .

وفي حديثه عن ذكرياته مع شوقي ، عاد الدكتور هيكل فكتب عن أمير الشعراء : « إن شوقي كان يضيّق بالنقد ، ولا يطيقه ، ولعله كان يحسبه عيباً في ذات أمير الشعراء كالعيب في الذات الملكية » .

ويروي الدكتور هيكل أن شوقي كان يقول له ، كلما أقر نقداً موجهاً إليه من طه حسين في جريدة « السياسة » الأسبوعية : « ما الذي يقصده صديقك طه في توجيه النقد إليّ في كل مناسبة ؟ أظن أنه قدير على أن يهدمني ؟ قل له إنني « مجدّ تكون » ، ومن المستحيل هدم مجدّ تكون ؛ وإنه ينطح صخرة لا تستجيب له » .

ثم يقول الدكتور هيكل معلقاً : « ولم أعجب لهذا الكلام ، وإنما كان عجبني لأن شوقي كان يُسرع إلى مقاطعة من ينقدونه ، ثم كان يُسرع إلى استرضائهم بكل وسيلة مستطاعة » .

والمواقع أن الدكتور طه حسين كان أكثر نقاد شوقي تمسكاً بالروح العلمية ، وبالفن الرفيع في توجيه الانتقادات ، لذلك رأيناه ، بعد حين ، ينصف شوقي ، فيقول عنه : « إنه ، بعد أن عاد إلى مصر من المنفى ، تحوّل تحوُّلاً خطيراً حقاً ، لا نكاد نعرف له نظيراً عند غيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أدبنا العربي ؛ وتحول من ناحيتين خطيرتين :

فأما إحداهما : فهي أن شعره التقليدي تحرَّر من التقييد بظروف السياسة ، فانطلق ؛ كان شعره يصبح صورة لأهواء الشعب من حوله وميول هذا الشعب ، بكل قوة وبكل حرية ، كأن الشعب إنما كان ينطق بلسانه .

والناحية الثانية : هي أنه فجأة استكشف نفسه ، وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجدداً ، فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته ، فأدخل في اللغة العربية ، وفي الشعر العربي خاصة ، فناً جديداً لم يسبقه أحد إليه ، وهو فن التمثيل الشعري .

ومهما يكن من شيء ، فحسب شوقي أنه قد ردَّ إلى الشعر العربي قوَّته ورسالته ومثاقه ، وحسبه أنه ، بعد البارودي ، الشاعر الذي ردَّ الشعر العربي إلى حياته الأولى » .

ومهما يكن من أمر هذا الانصاف يأتي الشاعر من أخصام الأوس ، فهو ، وإن جاء بعد فوات الأوان بالنسبة إلى شاعر أغمض عينيه مبارحاً هذا الوجود ، يبقى وثيقة ذات قيمة تاريخية جلييلة في تقرير المكانة الرفيعة التي احتلها شوقي ، على صعيد الفكر والشعر ، حياً وميتاً ، والتي أشار إليها شفيق جبري في مهرجان المجمع العربي بدمشق الذي أقيم لتكريم شوقي بتاريخ العاشر من آب عام ١٩٢٥ ، حيث قال ، مخاطباً أمير الشعراء :

أَلَقْتُ إِلَيْكَ الْعَبْقَرِيَّةَ سَرَّهَا
وَحَنْتُ عَلَيْكَ وَجَرَّرْتُ أَذْيَالَهَا

لِلَّهِ شَعْرُكَ فِي الْقُلُوبِ ، فَإِنَّهُ
بَلَغَ الْقُلُوبَ ، فَهَزَّهَا وَأَمَالَهَا

شَوْقِي أَمِيرُ الشَّعْرِ ، غَيْرُ مُدَافِعٍ
غُرَّرَ الْقَرِيضُ خَلَّتْ لَهُ ، وَخَلَا لَهَا

هذا حصاد سريع لصور شيقة عن المعارك الفكرية التي أثّرت حول شاعرية شوقي وشخصيته . ولقد يكون بعضها منصفاً ، ولقد يكون بعضها الآخر مجحفاً ، إلا أن القارئ المتجرد يلمس بسهولة بالغة أن بعضها كتب بروح موضوعية علمية تهدف إلى النقد الفني العالي ، وأن ما تبقى مكتوب بدوافع مادية رخيصة ، أو شخصية نفعية ، أو لأسباب قد تمت إلى كل شيء إلا إلى النقد الفني الموضوعي المتجرد .

وكل هذه الانتقادات تؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن شوقي لم يكن صلحوكاً يعيش على هامش الأدب ، ولكنه كان في ميدان الفكر ، فارساً بطلاً انتقادات له الأعتة ، وأحرز في الشعر العربي قصب السباق ، فصدق فيه قول القائل : « ما اختلف اثنان على رجل إلا كان عظيماً » .

شوقي شاعر الوطنية والفضائل الانسانية

لئن انتمى شوقي نسباً ، إلى أعراق غير عربية ، فكان كردي الأب ، تركي الأم ، شركسي جدته لأبيه ، يوناني جدته لأمه ، فقد كان ولاؤه الوطني موضع تجاذب بين مصر ، والعروبة ، والإسلام .

السياسة والشعر

وإذا كان من شأن السياسة ، ومقتضياتها ، وظروفها القاهرة ، أن تمسكت الشاعر ، إما مداراةً ، وإما محاباةً ، فلقد كان لوجود شوقي وسط الأجواء السياسية المحمومة ، في مصر ، أكبر أثر على نفسيته ، وأكبر انعكاس على شاعريته ، فإذا به ، على سبيل المثال ، يتردد في رثاء صديقه الحميم مصطفى كامل الذي كان في أواخر أيامه ، على علاقة غير طيبة بالقصر بسبب تقرب الخديوي من المعتمد البريطاني . ولكن شوقي سرعان ما تاب إلى رشده ، ورثى صديقه بقصيدة عصماء وهي من عبون الشعر العربي ومطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان

قاصيهما في ماتم والداني

ومنها هذه الأبيات :

جار التراب وأنت أكرم راحلٍ

ماذا لقيت من الوجود الفاني ؟

إِنْ كَانَ لِلْأَخْلَاقِ رُكْنٌ قَائِمٌ
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَانْتِ الْبَانِي
 وَجَدَانِكَ الْحَيُّ الْمَقِيمُ عَلَى الْمَدَى
 وَلَرُبَّ حَيٍّ مَيَّتِ الْوَجْدَانِ ..
 دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ :
 إِنَّ الْحَيَاةَ : دَقَائِقُ وَثَوَانِي
 فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا
 فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانِي .

وَفِي الْقَصِيدَةِ ، يَحَاوِلُ شَوْقِي أَنْ يَبْرِّرَ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَالَتْ دُونَهُ وَدُونَ
 رِثَاءِ مُصْطَفَى كَامِلٍ ، عِنْدَ وَفَاتِهِ ، وَكَأَنَّهُ سَمِعَ أَصْوَاتًا تَهْمَسُ بِذَلِكَ ، عَاتِبَةً
 أَوْ لَائِمَةً ، فَيَقُولُ :

لَوْلَا مَغَالِبَةُ الشَّجَوْنَ لَخَاطَرَنِي
 لِنُظِمْتُ فِيكَ يَتِيمَةً الْأَزْمَانِ
 وَأَنَا الَّذِي أَرِثِي الشَّمْسُ إِذَا هَوَتْ
 فَتَعُودُ سِيرَتُهَا إِلَى الدُّورَانِ
 قَدْ كُنْتُ تَهْتَفُ فِي الْوَرَى بِقِصَائِدِي
 وَتُجِلُّ فَوْقَ النَّيِّرَاتِ مَكَانِي

ماذا دهاني ، يومَ بنتَ ، فعقني
فيكَ القريض ، وخانني إمكاني ..
هونَ عليك ، فلا شَمَاتَ بميت
إنَّ المنيَّةَ غايَةٌ الإنسان !!

ومهما حاول شوقي التبرير والاعتذار ، فإن السمة العامة لقصيدته الرثائية هي البُعد عن العاطفة العميقة ، نظراً لما فيها من مبالغات ، والاقتراب ، بالتالي ، من الحكمة الانسانية ، والنظرة المتفلسفة إلى الحياة والموت .
وقد كان موقف شوقي من أحمد عرابي ، قائد الثورة العربية الشهيرة ، بوحى من موقف المتصر منه ، موضع انتقاد مرير من جانب كل مَنْ قرأ القصيدة التي « استقبل » الشاعر بها ذلك القائد الشعبي العظيم ، بعد عودته من منفاه ، ولا سيما قوله في مطلعها :

صَغَارَ في الذهابِ وفي الإيابِ
أهذا كلُّ شأنِكَ يا عرابي ؟

ذكرى دانشواي :

ومن القصائد التي انقدها الكثيرون ، قصيدة شوقي في « ذكرى دانشواي » التي نظمها بعد مرور سنة على الحادثة . وملخصها أن جنود الاحتلال الانكليزي مروا عام ١٩٠٦ بقرية « دانشواي » المصرية ، وصادوا حمامها الداجن ؛ وقد حاول الأهالي اقناع الجنود بالإقلاع عن ذلك ، فظن أحدهم أن الأهالي يريدون به سوءاً ، فجرى هارباً حتى أصيب بضربة شمس مات على أثرها .

وكان اللورد « كرومر » الذي أوردنا ذكره في فصل سابق ، قد وجدها فرصة مناسبة لمحاكمة أهالي القرية بصورة وحشية ، فصلبت طائفة منهم ،

وعذبت طائفة ثانية . وسجنت طائفة ثالثة . ؛ فلم يهتز شوقي لذلك الحادث
المحزن إلا بعد عام ، حيث أطلَّ على قراء الجريدة الرسمية بقصيدة عادية
فيها موسيقى شجية ، ولكن لا عاطفة حزينة في ثناياها :

يادنشواي على رُبَّاك سلامُ

ذهبتُ بأنسِ ربوعك الأيَّامُ

شهداء حكمك في البلاد تفرَّقوا

هيهات للشمل الشتيت نظامُ

عشرون بيتاً أقفرتُ وانتابها

بعد البشاشة وحشةٌ وظلامُ

ياليت شعري في ألُّبروج حمائمُ

أم في البروج منيَّةٌ وحِمامُ

نيرون ! لو أدركت عهد كرومر

لعرفت كيف تنفَّذ الأحكام

نوحى حمائمَ دنشواي وروعي

شعباً بوادي النيل ليس ينامُ ..

في كلِّ ناحيةٍ وكلِّ محلَّةٍ

جزعاً من الملائِ الأسيِّف زحامُ

وعلى وجوه الثاكليْن كآبةٌ

وعلى وجوه الثَّاكَلاتِ رغامُ

وهكذا ينهي شوقي القصيدة ، وكأنه يرغب ، وحسب ، في رفع العتب عنه ، فلا تجيء الخاتمة ، كعهدنا بقصائد شوقي ، قوية ، مؤثرة ، آسرة .

ولكن هذه الهنات القلائل التي نعتقد أن المبرر الوحيد لها هو انغماس شوقي في سياسة القصر ، ومشاكل القصر ، تتضاءل أهميتها أمام الوطنية الصافية التي أبداهها شوقي ، وأمام الولاء الذي خص الشاعر به مصره ، وعرويته ، وإسلامه .

ولاء شوقي لمصر

أما مصر ، فلعل قصيدة شوقي الملحمية : « كبار الحوادث في وادي النيل » التي قدمها للمؤتمر الدولي المنعقد في مدينة جنيف في أيلول سنة ١٨٩٤ ، بصفتها مندوباً للحكومة المصرية ، تدل دلالة واضحة على ما يكنه شوقي لوطنه ، وما يحضه إياه من ألوان الولاء والوفاء .

ونكتفي ، في هذا المقام بقوله ، وهو في المنفى :

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعني إليه في الخلد نفسي

وبقوله بعد عودته من منفاه :

ويا وطني لقيتك بعد يأس

كأنني قد لقيت بك الشبابا

ولو أنني دُعيتُ لكنتُ ديني

عليه أقابل الحتمَ المجابا

أدير اليك ، قبل البيت وجهي
إذا فهتُ الشهادة والمتابا !!

ففي هذه الأقوال وأمثالها ، مما تضحّج به جوانب « الشوقيات » دليل لا يرقى
اليه الشك على وطنية شوقي ، وولائه لبلده مصر .

ولاء شوقي للعروبة :

وأما العروبة ، فشوقي شاعرها ، ورسولها ، والمؤمن بها إيماناً عميقاً ،
حتى لتهزّه كلل نكبة تصيب قطراً عربياً ، ويؤثر فيه كبل مجدٍ يرى فيه
موضعاً للفخر .

فالأمة العربية ، هي في نظر شوقي :

أُمَّةٌ ينتهي البيان إليها
وتوول العلوم والعلماء
جازت النجمَ واطمأنت بأفق
مطمئن به السنا والسَّناء
كلَّما حثَّت الركابَ لأرضٍ
جاور الرشد أهلها والذكاء
فلمن حاولَ النعيمَ نعيمٌ
ولمن آثرَ الشَّقاءَ شقاءٌ .

وفي نكبة دمشق التي رميت بضروب القنابل ، لآثر الثورة الدرزية على

الانتداب الفرنسي ، يخاطب دمشق بقوله ، مذكراً بالدولة العربية التي امتدت ما بين المحيط الأطلسي والخليج العربي :

وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
لَهَا مِنْ سَرْحِكَ الْعُلُوي عِرْقُ
سَمَاوِكَ مِنْ حُلَى الْمَاضِي كِتَابُ
وَأَرْضِكَ مِنْ حُلَى التَّارِيخِ رَقُ
بَنِي الدَّوْلَةِ الْكُبْرَى ، وَمَلَكاً
غِبَارُ حَضَارَتِهِ لَا يُشَقُّ
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامُ وَعَرْسُ
بَشَائِرِهِ بِأَنْدَلُسٍ تَدَقُّ .

إلى أن يقول :

دُمُ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا
وَتَعْلَمُ أَنَّه نُوْرٌ وَحَقُّ ..
بَنِي سُورِيَّةَ أَطْرَحُوا الْأَمَانِي
وَأَلْقُوا عَنْكُمْ الْأَحْلَامَ أَلْقُوا
وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنْ شِئْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشْقُوا

وللأوطان في دم كل حر
يَسْدُ سَلَفْتُ ودينٌ مستحقُّ

ومن يسقي ويشرب بالمنايا
إذا الأحرارُ لم يُسْقُوا وَيَسْقُوا

ولا يبني الممالك كالضحايا
ولا يُدْني الحقوقَ ولا يُحِقُّ

وللحرية الحمراء باب
بكلِّ يدٍ مضرجةٍ يُدَقُّ

ويتحدث شوقي عن لبنان ، البلد الذي أحبَّ شوقي ، والذي أحبه
شوقي ، فيقول ، بعدما زار مصيف (بكفيا) :

لبنان والخلدُ اختراع الله لم
يوسمَ بأزينَ منهما ملكوته

هو ذروة في الحسن غير مرومة ،
وذرى البراعة والحجى بيروته

ملك الهضاب الشمِّ ، سلطان الربى
هَامُ السحاب عروشهُ وتخوته .

وكأنَّ أيامَ الشباب ربوعهُ ،
وكأنَّ أحلامَ الكعاب بيوته !

وله في « زحلة » جارة « البردوني » التي عرفت فضل أمير الشعراء عليها ،
فأقامت له تمثالاً في ساحتها ، تخليداً لذكراه ، أبيات مترفة المعاني ، أنيقة
المباني ، ومنها :

يا جارة الوادي ، طربتُ وعادني
ما يُشبه الأحلام من ذكراكِ
مثّلت في الذكرى هوائكِ ، وفي الكرى
والذكريات صديّ السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة
غنَاءً ، كنتُ حيالها ألقاكِ ..
لم أدِرِ ما طيبُ العناقِ على الهوى
حتي ترفقَ ساعدي فطواكِ
وتأودت أعطافُ بانكِ في يدي ،
وأحمرَّ من خفريهما خدّاكِ
ودخلتُ في ليلين : فرعك والدجى
ولثمتُ كالصبح المنورِ فاكِ ..
وتعطلتُ لغةُ الكلام وخاطبتُ
عينيَّ في لغةِ الهوى عيناكِ ..
لا أمسٍ من عُمر الزمان ، ولا غدُّ ،
جُمعَ الزَّمانُ ، فكانَ يومَ رِضاكِ .

وأما ولاء شوقي للإسلام ، ولتركيّا ، مركز الخلافة الاسلاميّة ، في أيامه ، فأمر نراه في غير حاجة إلى دليل أو إيضاح . وحسبك أن تقرأ قصائده الدينيّة التي يدعو فيها إلى الاعتصام بحبل الدين ، ورفع الشعارات الاسلاميّة ، والقضاء التخلّف ، والابتعاد عن التعصب الطائفي الأعمى ، وحيث يندد بالذين يتاجرون بالدين وشعاراته ، إلى أي دين انتموا ، ومن أي وطن كانوا .

ففي « نهج البردة » ، نرى شوقي يمدح الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام ، فيقول :

محمّد صفوة الباري ، ورحمته
وبُغْيَة الله من خلق ومن نَسَمِ
وصاحب الرسل ، يوم الرسل سائلة
متى الورود ، وجبريل الأمينُ ظمي
سناؤه وسناه الشمس طالعة
فالجِرم في فلك ، والضوء في علم ..
نُموا اليه ، فزادوا في الورى شرفاً
ورُبَّ أصلي لفرعٍ في الفخار نُمي
لما رآه «بحيرا» قال : نعرفه
بما حفظنا من الأسماء والسِّم ..
ونودي : اقرأ ، تعالى الله قائلها
لم تتصل قبل من قيلت له بفم ..

هناكَ أَذَّنَ لِلرَّحْمَنِ فامْتَلَأَتْ

أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قَدْسِيَّةِ النِّعَمِ

ثم يتحدث شوقي في القصيدة ذاتها عن « ليلة الإسراء » ، فيخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا :

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكَهُ

وَالرَّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمٍ

جُبَّتِ السَّمَاوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ

عَلَى مَنْوَرَةٍ دَرِيَّةٍ اللَّجْمِ ..

مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعُهُ

وَقُدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشُّكِّ وَالْتُّهَمِ

حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارَ لَهَا

عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يَسْعَى عَلَى قَدَمٍ

وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَتْبَتِهِ

وَيَا مُحَمَّدُ ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ !

وفي قصيدة « ذكرى المولد » أكثر من آية شعرية على ولائه للدين ولتعاليمه ، واستجابته لحكم الله عز وجل :

فَلَمْ أَرْ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمًا

وَلَمْ أَرْ دُونَ بَابِ اللَّهِ بَابًا ..

وإنَّ البرَّ خيرٌ في حياةٍ
وأبقى بعد صاحبه ثوابا..

وفي قصيدة « ولد الهدى » آيات أخر ، تدل على عمق الإيمان لدى شوقي ،
فالإسلام في نظره :

دينٌ يشيد آيةً في آية
لبنايه السُّورَات والأضواء
الحقُّ فيه هو الأساسُ ، وكيف لا
والله جلَّ جلاله البناء ؟ !

إلى أن يقول في النظام الاسلامي ، مخاطباً الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم :

فرسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحدهُ
والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يُسرُّ والخلافةُ بيعةُ
والأمرُ سُورى ، والحقوقُ قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء..

أنصفت أهل الفقر من أهل الغني
فالكلُّ في حقِّ الحياة سواء
فلو أنَّ انساناً تخيَّرَ مَلَّةً
ما اختار إلا دينك الفقراء

شاعر الأخلاق

ولاريب في أن ولاء شوقي لمصر والعروبة والإسلام ، لم يجعله منعزلاً
عن غير مصر ، من بلاد العروبة ، ولا عن غير الغروبة ، من البلاد الأجنبية ،
ولا عن غير الإسلام ، من الأديان السماوية .

ذلك أن شوقي هو شاعر الإنسانية ، بمعناها الشامل الواسع ؛ ونكاد لا نبالغ
إذا قررنا ، في هذا الصدد ، أن الإنسانية والأخلاق ، في عرف شوقي
توأمين لا يفترقان ، وأن الدنيا إذا شاعت الأخلاق فيها . أصبحت في مثل
غنى عن الأنظمة والقوانين والشرائع ؛ ففي قصيدته « واد المدي » التي
أثبتنا ، منذ قليل ، بعض أبياتها ، يخاطب محمداً الرسول الذي قال :
« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » :

يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعُلَا

منها ، وما يتعشَّق الكبراء

لو لم نُقِم ديناً ، لقامت وحدها

دُنْيَا تضيءُ بنوره الآناء

ثم إن شوقي هو صاحب البيت الشهير :
وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتُ
فإن هم ذهبَ أخلاقهم ذهبوا

وصاحب البيت القائل :

وليسَ بعامٍ بنيان قومٍ
إذا أخلاقهم كانت خرابا

وشوقي يعتبر أن بنيان الوطن لا يغدو عامراً إذا أصيب الخلق بالوهي والوهن ، لأن الوعي والوهن يصيبان ، إذ ذاك ، أسس البنيان :

وإذا ما أصاب بنيان قومٍ
وهي خلقٌ ، فإنه وهي أسٌ
والأخلاق ، عنده ، هي التي تحقق المهابة ، وإلا فإنها تصيب أركان
كل بناء بالاضطراب والخراب :

وما للمسلمين سواك حصنٌ
إذا ما الضرُّ مسَّهُم ونابا
بنيت لهم من الأخلاق ركناً

فخافوا الركن ، فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيباً
وللأخلاق أجدر أن تُهابا !!

ولعلَّ موقف شوقي من الأخلاق، ودعوته إلى الاعتصام بعروثها الوثقى ،
يتجسّد في هذين البيتين :

صَلاحُ أَمركُ للأَخلاقِ مرجعُهُ
فَقومُ النفسِ بالأَخلاقِ تستقيمُ
والنفسُ من خَيرِها في خَيرِ عَافيةٍ
والنفسُ من شَرِّها في مَرعٍ وخَمِـ

التجارة بالاديان

فإذا لمس شوقي تهاوناً في المثل الخلقية أو الوطنية أو الدينية ، فإنه يعلنها
ثورة هوجاء لا تُبقي ولا تذر . لقد نظر إلى الغربيين الذين راحوا يدعون
تمدن الشعوب ، باسم الطائفية ، محاولين تفرقة العرب بل الشرق كله إلى
مسلمين ونصارى ، فإذا به يقف مندداً بتجار الديانة ، في مخاطبته للسيد
المسيح ، رسول الرحمة والتسامح والسلام ، فيقول :

عيسى ، سبيلك رحمةٌ ومحبّةٌ
في العالمين ، وعصمةٌ وسلامٌ
ما كنتَ سَفَّاكَ الدماءَ ، ولا امرأً
هان الضُّعافُ عليه والأيتامُ
يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلامُ
أنت الذي جعلَ العبادَ جميعهم
رحمًا ، وباسمك تُقطع الأرحامُ ..

واليوم يهتف بالصليب عصابُ
هم لِّلإله وروحِه ظلامٌ ،
خلطوا صليبك والخناجر والمدى
كلُّ أداةٍ للأذى وحمَامُ
أوما تَراهم ذَبَحوا جيرانَهم
بين البيوت كأنهم أغنامُ
كم مرضعٍ في حجرِ نعمتهِ غدا
وله على حدِّ السيوفِ فِطامُ ..

إلى أن يقول هذا البيت الذي يجري مجرى الحكمة :

إِنَّ الْغُرُورَ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةٌ
كالزَّهْرِ يُخْفِي المَوْتَ ، وهو زَوَامُ

شاعر الحكمة

لقد كان شوقي شاعر الانسانية بكل معانيها ، شاعراً يتألم فيرثي ويأمل
فينثر قوافيه بشائر سعادة ، وأغاريد نشوة ، ونحن لم نقرأ لشاعر ، قبل شوقي
أو بعده ، عدداً يماثل عدد قصائده التي نظمها في مناسبات ، بعضها مفعم
بالأمل ، وبعضها الآخر ممتلىء بالألم ، رثاء لأحبابه الذين استوعب البكاء
عليهم الجزء الثالث بكامله من « الشوقيات » .

وانسانية شوقي تتجلى فيما نثره هنا وهناك من الحكمة الرائعة التي جاءت
نتيجة عقل نير ، وعاطفة مستعرة ، وتجربة عميقة في الحياة ، ومن فيها ، وما

فيها ؛ أليس هو القائل :

وما نيلُ المطالب بالتمني
ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال

إذا الإقدام كان لهم ركابا

ولعل أوضح صورة يمكن لشاعر أن يرسمها عن نفسه ، هذه الصورة التي بدا فيها شوقي ، في رثائه لخرجي زيدان ، مؤسس الهلال ، اللبناني الأصيل ، وكأنه يرثي نفسه :

لي دولة الشعر ، دون العصر ، وائلة

مفاخري بين حكمي فيها وأمثالي
إن تمش للخير أو للشر بي قدم
أشمرُ الذيل أو أعثر بأذيالي
وإن لقيت ابن أنثى لي عليه يد
جحدت في جنب فضل الله أفضالي

الى أن يقول :

وما علمت رفيقاً غير موثني
كالموت للمرأة في حل وترحال
أرحت بالك من دنيا بلا خلقي
أليس في الموت أقصى راحة البال !

ولقد مات شوقي ، وبلغ أقصى راحة البال ، كما يقول .
أغمض عينيه على النظرة الأخيرة إلى الدنيا الفانية حوالي الساعة الثانية من
ليلة ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ ، ليترك في كل عينٍ أحبته دمة ،
وفي كل قلب أرقصته قوافيه ألماً وحزناً .
مات ولسان حاله يقول :

والمجدُّ في الدُّنيا لأوَّلُ مبتنٍ
ولمن يشيّد بعده ، فيطيلُ

ومثلما أجمعت الأمة العربية على مبايعة شوقي أميراً للشعر ، أجمعت
بالسنة شعرائها وأدباؤها ، على تكريم الشاعر العبقرى الذي قال ، عن نفسه ،
صادقاً ، يوم مبايعته بإمارة الشعر :

كان شعري الغناء في فرح الشَّرِّ
قِ ، وكانَ العزاء في أحزانهِ

شاعر يرثي شاعراً

ولقد كانت وفاة شوقي حزناً ، لم يكن شعر شوقي فيه عزاء ، إلا أن أبلغ
عزاء في حزن شوقي ، تمثل في قصيدة الأخطل الصغير بشاره عبدالله الحوري ،
وقد قال فيها :

قف في ربي الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهى أدنى منابره
وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
أشعة ألوحى شعراً من منابره

إِلَهَةُ الشَّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ
 وَرَبَّةُ النَّثْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَاسِرِهِ
 وَالْحَوْرُ قَصَّتْ شَعُوراً مِنْ غَدَائِرِهَا
 وَأَرْسَلَتْهَا بَدِيلاً مِنْ سَتَائِرِهِ
 أَتْرَابُ مَرْيَمَ تَلْهَوُ فِي خِمَائِلِهِ ،
 وَرَهْطُ جَبْرِيلَ يَحْبُو فِي مَقَاصِرِهِ
 وَالْمَلْهُمُونَ بَنُو « هُومِير » مَاتَرَكُوا
 لَمَّا أَهْلًا لَهُمْ سَجْعًا لَطَائِرِهِ
 قَالَ الْمَلَائِكُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقِيلَ لَهُمْ :
 هَذَا هُوَ الشَّرْقُ ، هَذَا ضَوْؤُهُ نَاضِرُهُ
 هَذَا الَّذِي نَظَّمَ الْأَرْوَاحَ فَانْتَضَمَتْ
 عَقْدًا مِنَ الْحُبِّ ، سَلَكُ مِنْ خَوَاطِرِهِ
 هَذَا الَّذِي رَفَعَ الْأَهْرَامَ مِنْ أَدَبٍ
 وَكَانَ فِي تَاجِهَا أَعْلَى جَوَاهِرِهِ
 هَذَا الَّذِي لَمَسَ الْآلَامَ فَابْتَسَمَتْ
 جِرَاحُهَا ، ثُمَّ ذَابَتْ فِي مُحَاجِرِهِ
 كَمْ فِي ثُغُورِ الْعَذَارَى مِنْ بَوَارِقِهِ
 وَفِي جَفُونِ الْيَتَامَى مِنْ مَوَاطِرِهِ

سل جنة الخلد كم ودّت أزاهرها
لو استحالت عبيراً في مجامره
وصادح الطير لو سألت حناجرها
مع الصباح نشيداً في مزاهره
والزهر لو كُنَّ أزراراً مفضضةً
على الذبول الضواحي في مآذره
مابدة سِعدت بالنهر يغمرها
بكلّ أزهر حالي العود، ناضره
بالبلبل المتغني في ملاعبه
والسُّنبل المتشني في غدائره
بالحقل ترعى به ألقطعان هائنة
والنحل يرضع من ثديي أزاهره
يستقبل الفجر أهلوها بغُرته
ويغرقون الليالي في سرائره
ناموا على سرر الأعراس وانتبهوا
على صباح بكّي الطرف، غائره

على مآتم من طير ومن شجر
خرساء كالقبر ، غرقى في دياجره
ياللرزية .. غال النهر غائله

وغار في لهوات من هواجره
فلا الصباح ضحوك في شواطئه
ولا المساء لعوب في جزائره
وأسلم الزهر أجیاداً منضرة

للشوك جفت على دامي أظافره
والناس في غمرة عمياء ، لا وتر

لناشديه ، ولا نجم لسامره
ماالخطب بالنهر ، مجري الروح في بلد

فرد رقيق حواشي الذكر ، دائره
كالخطب يدوي له كَوْنٌ بِجُمْلَتِهِ

إذا أصاب الردى شعباً بشاعره

....

ما للملاعب في لبنان مقفرة
وللمناهل عطلاً من حرائره

وللمآذن في الفيحاء كاسفةً
 كخاشع السَّرو في داجي مقابرهِ
 وللأصائل والأسحار أثخنَها
 عاتٍ من الريح إرهاباً بحافرهِ
 وللجداول أناتٌ مجرَّحةٌ ،
 كأنَّها حملٌ في كفٍّ ناجِرهِ
 وللنَّدى في الثرى جهشٌ ووسوسةٌ
 كأنَّها همساتٌ في ضمائرهِ
 أودى القريضُ فللاًحزانٍ ما لبستُ
 على سليل الدَّراري من عباقرهِ

...

«شوقي» ، أتذكرُ إذ «عاليه» موعداً
 نمنا وما نام دهرٌ عن مقادرهِ (١)

(١) في هذا المقطع يشير الأخطل الصغير إلى حادثة وقعت لأحمد شوقي ، أثناء انتقاله إلى «عاليه» في لبنان ، وقد روى لنا الاخطل الصغير تلك الحادثة ، وأخبرنا أن شوقي ، بعد أن أصيب بالحادثة واستدعى الطبيب لمعالجته عل وجه السرعة ، قال للأخطل الصغير : « كنت ريثني ، يا أبا عبدالله ! » ، فجاء جواب الأخطل ، في تأبين شوقي : « خذه من كبدي ... » .

وَأَنْتَ تَحْتَ يَدِ الْآسِي وَرَأْفَتِهِ
 وَبَيْنَ كُلِّ ضَعِيفِ الْقَلْبِ خَائِرِهِ
 وَلَا بَتْسَامَتِكَ الصَّفْرَاءُ رَجَفَتْهَا
 كَالنَّجْمِ خَلْفَ رَقِيقٍ مِنْ سَتَائِرِهِ
 وَنَحْنُ حَوْلَكَ عَكَافٌ عَلَى صَنَمٍ
 فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مَاضِي الْبَطْشِ قَاهِرِهِ ؟
 سَأَلْتَنِيهِ رِثَاءً ، خُذْهُ مِنْ كَبْدِي
 لَا يُوْخَذُ الشَّيْءُ إِلَّا مِنْ مُصَادِرِهِ

• • •

تَغْرَبُ الْحَسَنُ وَالْإِحْسَانُ فَالْتَمَسَا
 وَجْهًا مِنَ الْأَرْضِ هَشَّاشًا لَزَائِرِهِ
 لَا يَسْتَوِي الْمَجْدُ إِلَّا فِي مَفَارِقِهِ ،
 وَلَا يَصْفُقُ إِلَّا فِي ضَفَائِرِهِ ،
 مَا غَادَرَا بَلَدًا إِلَّا إِلَى بَلَدٍ
 وَالْحَرُّ يُلْهَبُ مِنْ خَدَّيْ مُسَامِرِهِ
 حَتَّى أَطْلَأَ عَلَى مَصْرِ فِرَاعِهِمَا
 مَا زَخَرَفَ النِّيلُ مِنْ إِبْدَاعِ سَاحِرِهِ

فَأَلْقَيْتَا بِعَصَا التَّرْحَالِ ، واعتصما
بِضَفَّتَيْهِ ، وهاما في حواضِرِهِ !
فَأُطْعِمَ الْجُودَ مِنْ كَفِّي مَسَاوِرِهِ
وَاشْرَبَ الْحُسْنَ مِنْ عَيْنِي جَآذِرِهِ
يَا مَصْرُ مَا انْفَتَحَتْ عَيْنٌ عَلَى حَسَنِ
إِلَّا وَأُطْلِعَتْ أَلْفًا مِنْ نِظَائِرِهِ
وَلَا تَفْتَقَتْ الْأَفْكَارُ عَنْ أَدَبِ
إِلَّا وَأَنْبَتَ رَوْضًا مِنْ بَوَاكِرِهِ
لُبْنَانُ ، يَا مَصْرَ ، مَصْرُ فِي مِطَامِحِهِ
كَمَا عَلِمْتَ ، وَمَصْرُ فِي مِفَاخِرِهِ
هَلْ كَانَ قَلْبُكَ إِلَّا فِي جَوَانِحِهِ
أَوْ كَانَ دَمْعُكَ إِلَّا فِي مُحَاجِرِهِ
أَوْ كَانَ مَنِبْتُ مَصْرِ غَيْرَ مَنِبَتِهِ
أَوْ كَانَ شَاعِرُ مَصْرِ غَيْرَ شَاعِرِهِ
قِيْثَارَةُ النِّيلِ كَمْ غَنِيَتْ قَافِيَةً
فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ مَسْرَاهَا وَخَاطِرِهِ

لو عاد فرعون كانت من ذخائره
أو ختم الخلد كانت في خناصره (١)

* * *

ولا ريب عندنا أن شوقي ترك فراغاً كبيراً في الأدب العربي المعاصر ، إلا أن الرجل وفّى قسطه للعلی ، ونام قرير العين ، مطمئن البال ، يُغضي على النقد ، بعد موته ، كما أغضى عنه في حياته ، مؤمناً بأنه لو لم يكن في مقام رفيع من الشعر والفكر ، لما أثار حول شاعريته خلافات ابتدأت ولم تنته حتى الآن .

ولسوف تشهد الأجيال القادمة في شعر أحمد شوقي ، كما شهدنا نحن ، ألواناً وضروباً من الفن الشعري الممتاز الذي يستأثر بالاهتمام ، نظراً للمكانة الأدبية السامية التي يحتلها أحمد شوقي ، رحمه الله ، في تاريخ الأدب العربي المعاصر .

(١) راجع « شعر الأخطل الصغير » لبشارة عبدالله الحوري - دار المعارف ببلبنان - صفحة ٨٩ وما بعدها طبعة ١٩٦١ .

مراجع الكتاب

- ١ - الشوقيات لأحمد شوقي
- ٢ - شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور شوقي ضيف
- ٣ - شوقي أو صداقة أربعين سنة للأمير شكيب أرسلان
- ٤ - ذكرى الشعراء: شاعر النيل وأمير الشعراء لأحمد عبيد
- ٥ - مجلة «الهلal»: مجموعات ١٩٢٠ و ١٩٢٦ و ١٩٢٩ و ١٩٦٥ و ١٩٦٦ و ١٩٦٧
- ٦ - أسواق الذهب لأحمد شوقي
- ٧ - مجنون ليلي لأحمد شوقي
- ٨ - اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء لأحمد عبد الوهاب أبو العز
- ٩ - ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد
- ١٠ - المسرحية من شعر شوقي لمحمد حامد شوكت
- ١١ - مختارات المنفلوطي لمصطفى لطفي المنفلوطي
- ١٢ - شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي لعباس محمود العقاد
- ١٣ - حافظ وشوقي للدكتور طه حسين
- ١٤ - حديث الأربعاء - ج ٣ للدكتور طه حسين
- ١٥ - الأعلام والفنون الأدبية لفوزي عطوي
- ١٦ - أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ لمحمد خورشيد
- ١٧ - الديوان - الحلقة الأولى للعقاد والمازني
- ١٨ - الغربال لميخائيل نعيمة
- ١٩ - مصرع كليوباترا لأحمد شوقي
- ٢٠ - الجديد في الأدب العربي للأب حنا الفاخوري
- ٢١ - شعر الأخطل الصغير لبشاره عبد الله الخوري
- ٣٢ - شوقي لعبد اللطيف شرارة

شوقي يؤرخ نفسه

عندما صدرت الطبعة الأولى من « الشوقيات » وضع أحمد شوقي مقدمة مطولة لديوانه بحث فيها مختلف جوانب شاعريته ، ، وسائر شؤون نفسه في مطلع حياته الأدبية ، ولما كان الملاحظ أن طبعات « الشوقيات » الصادرة بعد عام ١٩١١ أصبحت تخلو تماماً من أية إشارة إلى تلك المقدمة — الوثيقة ، فقد رأينا إدراجها في الصفحات التالية ، متوخين من ذلك أمرين : أولهما إطلاع القارئ على شوقي ، وهو يرى نفسه في مرآة نفسه ، وثانيهما تعريف القارئ بأسلوب شوقي في الكتابة النثرية التي أشرنا ، أكثر من مرة ، في هذا الكتاب ، إلى أنها دون منزلة قصائد أمير الشعراء ، من حيث القيمة الفنية .

كتب أمير الشعراء :

الحمد لله الذي علم البيان . وجعله أثراً من روحه عند الإنسان . والصلاة والسلام على نبي الأمة . القائل إن من الشعر لحكمة .

أما بعد . فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم . وما برح نظمهم حبیباً إلى علمائهم وحكمائهم . يمارسونه حق المراس . ويبنون كل بيت منه على أمتن أساس . موفين إجلاله حافطين خلاله . مدنين إلى الأذهان خياله .

قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً . وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلاً . وجاداً وهازلاً . وجمع شمله بحيث تعد المنظومة الواحدة له أثراً في البيان مستقلاً وبنیاناً قائماً برأسه .

ونظمه أبو فراس فخرأً عالياً . ونسباً غالياً . وحكماً باهرة ، وأمثالا سائرة . لكنه لم يقله فوضى ولا قرب في نظمه الخلط فإن قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر
ليست إلا عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية . فإذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية . وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر في شعور الأنفس هما سر بقائها متلوة إلى الأبد .

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدته :

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحاب ليس تنتظم البلادا
وقابل بين هذا البيت ، وبين قول أبي فراس :

معلتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطرُ
ثم انظر إلى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الإثارة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا ، تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية ، علم أن شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية وانهم أقدر الأمم على تقريرها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور بيان .

وكان أبو العتاهية ينشئ عبرة وموعظة . وحكمة بالغة موقظة وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرجع إليه كذلك في الوعظ والإرشاد والتحذير من الرذائل ، والإغراء بالفضائل .

وكان الشافعي رحمه الله وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد
تجري ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة . وحكم في الناس سيارة . وحسبك

أن الطب جميعه لو جمع لما خرج عن البيتين المنسوبين اليه وهما :
 ثلاث هن مهلكة الأثام وداعية الصحيح الى السقام
 دوام مدامه ، ودوام وطء وادخال الطعام على الطعام
 ولو انفسح هؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار
 كما نشاهده . وكابدوا الدهر في الهرم مثلما نكابه . لامتألت الصدور
 من محفوظ أشعارهم ولضاق المطابع على تنافسها عن نشر آثارهم .
 قدمنا هذا ليعلم به فريق يحرقون الشعر وآخرون منا معشر الشبان يضمرون
 للعربي منه عداوة من جهل الشيء ويرون بينه وبين الشعر الافرنجي بعد ما بين
 المشرق والمغرب ناسين أن العرب أمة قد خلت ودولة تولت فلا ينبغي أن
 يؤخذوا إلا بما تركوا وأن المسؤول عن خروجه بعدهم إنما هو الخلف المفرط
 والوارث المتلاف .

اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعراء جنوا عليه وظلموا قرائحهم النادرة
 وحرموا الأقوام من بعدهم . فمنهم من خرج من قضاء الفكر والخيال ودخل
 في مضيق اللفظ والصناعة . وبعضهم آثر ظلمات انكلفة والتعقيد على نور
 الإبانة والسهولة . ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور « القديم على
 قدمه » فوصفوا النوق على غير ما عهدتها العرب وأتوا المنازل من غير
 أبوابها ودخلوا البيداء على سراب . وانغمس فريق في بحار التشابه حتى
 تشابهت عليهم اللجج ثم خرجوا منها بالبلبل . وزعمت عصبه أن أحسن
 الشعر ما كان في واد والحقيقة في واد ، فكلما كان بعيداً عن الواقع ، منحرفاً
 عن المحسوس ، مجانباً للمحتمل . كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال .
 وأجمع للجلال والجمال . حتى نشأ عن ذلك الإغراق الثقيل على النفوس
 والغلو البغيض إلى العقول السليمة .

على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة . واتخذوه حرفة وتعاطوه
 تجارة إذا شاء الملوك ربحت وإذا شاءوا خسرت . ثم لم يكفهم ذلك حتى
 هجوا الشعر وذموه بكل لسان فزعموه مجلبة الشقاء وقالوا انه محسوب على
 الشعراء يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لإراقه ماء الوجوه
 ولقد والله زعموا صدقاً وقالوا حقاً وإن هذا لجزاء قوم يتوقعون أرزاقهم

من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج حرفتهم فإذا لم يخلقوا كسدت الحرفة وأخطأت الأرزاق على أنه يستثنى من هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياح الشعر مديحاً في الملوك والأمراء . وبناء على الرؤساء والكبراء . وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في شعر الأمم . كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل، ومتخذة رسلاً في الغرام ووسائل . وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها . وواصف بدائعها وحلاها . وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى . وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى . وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثر في سهولته لا نصرفوا عنه وهو كما هو .

ولا أرى بدأ من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الهجاء . لأن معجزه لا يزال يرفع الشعر ويعليه . ويغري الناس به فيجده ويحييه . وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون إلا إلى غباره ولا يجدون الهدى إلا على مناره . ويتمنى أحدهم لو أتيح له ممدوح كمدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه . فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الأيام . معروف بالحزم والإقدام . قد أشربته قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه، فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون لما جنبوا ولا أحجموا . هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء . والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء . ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لأجلته لإجلال الأنبياء .

والحاصل أن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يحل عنها ويتبرأ الشعراء منها . إلا أن هناك ملكاً كبيراً ما خلقوا إلا ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب وهذا الملك هو الكون ، فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى ، يقلب إحدى عينيه

في الذر ويحيل أخرى في الذرى . يأسر الطير ويطلقه . ويكلم الحماد وينطقه .
ويقف على النبات وقفة الطل . ويمر بالعراء مرور الوبل . فهناك يفسح
له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهة علماً لا تحويه الكتب
ولا توعيه صدور العلماء ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم . ومنجياً
من الغم . وشاغلاً إذا أمل الفراغ ومؤنساً إذا تملكّت الوحشة . ومن جهة
ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فإذا الخاطر أسرع وانقول سهل والقلم أجرى
والمادة أغزر بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته . وإذا
مات أكبر الناس من بعده مخلصاته . أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة
العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم
يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لممدوحه والعشر الباقي
وهو الحكمة والوصف للناس .

هنا يسأل سائل وما بالك تنهى عن خلق وتأني مثله ؟ فأجيب : إني قرعت
أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجدر أمامي غير
دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها . وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو
القدماء . والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عال
ولا يرون غير شاعر الحديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد . فما زالت
أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حب صناعتي وإتقانها
بقدر الإمكان وصونها عن الابتدال حتى وفقت بفضل الله إليها ثم طلبت
العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنني مسؤول
عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وإني لا أؤدي شكرها حتى
أشاطر الناس خيراتها التي لا تحذ ولا تنفد وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا
تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان . لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من
خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جديد
المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان إلى أن رفعت إلى الحديوي السابق

قصيدتي التي أقول في مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرن الثناء
والتي غزلها في أول هذا الديوان . وكانت المدايح الخديوية تنشر يومئذ
في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان
فدفعت القصيدة اليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ
لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر
فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد
دفعه واحدة إنما كان في محله وان الزلل معي إذا أنا استعجلت .

ثم نظمت روايتي « علي بك أو فيما هي دولة المماليك » معتمداً في وضع
حوادثها على أقوال الثقافة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل
النمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق
فرردي منه كتاب باللغة الفرنسية يقول في خلاله :

« أما روايتك فقد تفكه الجنب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها
وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح ويجب ألا تشغلك دروس الحقوق
التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدينة القائمة
أمامك وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية »
فصادفت هذه النصيحة العالية من أمير ذكي حكيم هوى في فؤاد مطوى
على طاعته نازل على حكم الشعر والأدب فترجمت القصيدة المسماة « بالبحيرة »
من نظم (لمرتين) وهي من آيات الفصاحة الفرنسية . ثم أرسلتها إلى
الباشا المشار اليه في كراس وبعض كراس ليطلع عليها جناب الخديوي عليها
وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها بعد العودة إلى
مصر ثم عدت دون ذلك عواد .

وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير وفي
هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع اسطورتين أو ثلاث

اجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأمنون اليه ويضحكون من أكثره وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتقدمة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم .

والخلاصة أنني كنت ولا أزال ألوي في الشعر عن كل مطلب . وأذهب من فضائه الواسع كل مذهب . وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنى على الأدب . والمؤلف بين أسلوب الافرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأهمية . على أنني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعدما علمت أن كثيراً من المخدرات في العاصمة أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافذ وأن إحداهن طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدة فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تستطيع صبراً عن أخبار الحرب الترنسفالية . إذاً فالواجب على الكتاب ورجال الصحافة في أولهم أن يهيئوا أسباب النجاح لهذا الميل الحادث وعلى الأدباء والشعراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات قرائحهم فيها من كل فاكهة زوجان .

بقي استدراك لا بد من إirاده وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الشاعر لا ينثر كذلك ولا ينبغي له، وهذا وهم يداني اليقين عندهم وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حداً أضر بهم مع أنه يكفي للخروج منه أن نعلم أن أكثر ما أعجز به أدباء الافرنج اليوم في القصص والانشاء وما يمثل على أكبر ملاعبهم وتتداوله ألسنتهم من مرسل الكلم ومنثور الحكم وما كتب في هذا القرن والذي قبله في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى إنما هو من قلم مشاهير الشعراء حتى لتسمع عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات ثم ترى المنظوم منها أقلها بل إن بعضهم يقدم «الأشقياء»^(١) وهو كتاب لفكتور

(١) يقصد به «البؤساء» ، ويمكن مراجعة تعريتنا لكتاب « البؤساء » في عداد منشورات الشركة اللبنانية للكتاب - طبعة ١٩٦٧ .

هوجو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر كما يرون « اعتراف ابن العصر »
لألفريد دي موسيه أجل أثر له بين كثير من الآثار وفيها الروايات المنظومة
والأشعار وكلا انشاعرين مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان .

على أني كنت أول من انقاد بأزمة هذا الوهم وطالما أوديت به فكنت إذا
عرضت لي كتابة أشفق منها وأجفل عنها فصرت مثلي كمثل الشاعر الفرنسي
الذي يئس منه أنه لما رأى أهل باريز يبالغون في الحفاوة به ويكثر من
دعوته إلى موائدهم ومجالسهم ليسمعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله
الناس بلغ به الاحتراس منهم إلى أن كان إذا دعى إلى وليمة حضر والقوم
على المائدة فأكل صامتاً ثم انصرف والقوم لم يفرغوا من الطعام فقبل له
في ذلك . فقال له : أنا على المائدة كأحدكم فإذا جلست إزاء مكتبي فتصوروني
كيف شتم .

أما كون الناصر لا ينظم إلا إذا كان حاصلاً على هذه الملكة الموهوبة فحقيقة
لا مشاحة فيها وإن لم يكن بذلك عار على الكاتب بل الغبن الفاحش والخسران
المبين أن تضيق حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء وليست بقليلة الثمن في
محاولة المحال والتمادي في مثل هذا الضلال . على أن الشعر ليس من حاجيات
العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا ولكنه
من كماليات العمران الأدبي الذي تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة . والمادة
المجردة . وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ، ومن
فضاء إلى سواه ولعل هذه هي الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في
كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلا بقدر حاجتها اليهم ومما يحمل
إيراده في هذا المقام أنه بدا لأحد الانكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من
كل شاعر عصري شيء من نظمه بخطه فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء
حتى وفد على جول سيمون فقيده فرنسا وفلسوفها المشهور فطلب منه أن
يكتب شيئاً من نظمه فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط ولا يملك قول الشعر

فما زال الانكليزي يلح عليه حتى أخرجته وكان جول سيمون يحفظ أبياتاً للشاعر الشهير لمارتين وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها « البحيرة » فأخذ المجموعة وكتب الأبيات ثم جعل اسمه تحتها واتفق بعد ذلك أن المجموعة وقعت في يد منتقد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز وكان لا يعرف الشعر ولا يدري لمن هو فلم يكن منه إلا أن ملأ أعمدة الجريدة من انتقادها ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه والتطفل على موائد الشعراء ثم نصح له أن يبقى فيلسوفاً كما كان ومن الفلسفة ألا يحاول الانسان ما ليس في الإمكان أه .

يعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشغلين بالشعر من أبناء « الوطن العربي » أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواد ثلاثة لا وصول بدونها مجتمعة . « الأول » : ثقة الإنسان في كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وانه لأمر يعني الآباء والأساتذة أكثر من سواء ولا ينبغي لهم أن يتصرفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية بل عليهم إذا آنسوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا ممن ينظرون إلى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل وإذا وجدوه دعياً في الشعر دخيلاً منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه اليه وممانعته عن نظمه ولو كانوا من محبي الشعر ونصرائه .

« والثاني » أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج عن كونه أخباراً وحكمة وهما لا يكونان إلا من عليم مجرب .

« الثالث » ألا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها فإن كان ولا بد من التفرغ للأدب حباً به أو طلباً للكسب فليكن الشعر هو القيمة القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا يتنافى تعاطيه الكتابة نثراً في جميع المطالب وضروب المواضع فإنك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ إلا مرشدين أمينين وذخارين ثمينين .

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة وكان عاملاً متقناً لعمله حريصاً عليه مترقباً فيه ، يخاف الله في الغرور ، ويخشاه في ايداء خلقه . فقد انكشف له سر النجاح ، وأحرر قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء .

الآن أدخل في الحديث مع فريق طلبوا مني أن أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا إلي في كلمة تقال عنها وعن صاحبها وألا يقولوا سواي معذرتي إلى الفريق الأول ان من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل ، على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جد بهم الحرص عليها .

وللآخرين أقول أني لا أزال في أول النشأة وأن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بمدى رجوم الظن وضلات الأحاديث فلي العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب .

سمعت أبي رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزائر إلى والي مصر محمد علي باشا وكان جدي وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطأ وإنشاء فأدخله الوالي في معيته ثم تداولت الأيام . وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلد المراتب العالية . ويتقلب في المناصب السامية . إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبي في سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراي في ضيق حتى أئذب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى .

أما جدي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدة لي نسبة إلى

نجدة إحدى قرى الأناضول وفد على هذه البلاد فتياً كذلك فاستخدمه والى مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعتوقته جدتي التي أرثيها في هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاهما وكان زوجها محبوباً عنده كذلك فما زال كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لإحساناً وكان الخديوي المشار اليه يقول عنها « لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبي حليماً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته » .

أنا إذاً عربي . تركي . يوناني جركسي يجدي لأبي . أصول أربعة في فرع مجتمعة . تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . وما زال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل . على أنها بلادي . وهي منشأي ومهادي . ومقبرة أجدادي . ولد لي بها أبوان ولي في ثراها أب وجدان . وبيعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان .

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين ، حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم (الشيخ علي اللثي) قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقص عليّ حلاماً رآه في نومه فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يحرق كما تقول العامة خرقاً في الاسلام .

ثم اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي فوالله ما قالها قبل في الإسلام أحد . قلت : وما تلك يا مولاي ؟ قال : قصيدتك في وصف (البال) التي تقول في مطلعها :

حَفَّ كَأْسُهَا الْحَبُّ فَمِىَ فَضَّةٌ ذَهَبُ

وها هي في يدي أقرأها . فاستعدت بالله وقلت له : الحمد لله الذي جعل هذه هي « الحرق » ولم يضر بي الاسلام فتيلاً أه .

أخذتني جدتي لأمي من المهد وهي التي أرثيها في هذه المجموعة وكانت

منعمة موسرة فكفلتني لوالدي وكانت تحنو علي فوق حنوهما وترى لي
 مخايل في البر مرجوة . حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا
 في الثالثة من عمري وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه
 فطلب الخديوي بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت
 على الذهب أشغل بجمعه وألعب به فقال لجدتي اصنعي معه مثل هذا فإنه
 لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك
 يا مولاي . قال : جيئي به إلي متى شئت إني آخر من ينثر الذهب في مصر أ.هـ .
 ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الأبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ
 علي الليثي كلما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبي :

« محاجر مسك ركبت فوق زئبق »

دخلت في مكتب الشيخ صالح وأنا في الرابعة وهي من أهلي جناية على
 وجداني أغفرها لهم ثم انتقلت منها إلى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ
 الثاني لهذه المدرسة وأنا في الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا
 شئن قد حصل لي من النظارة على « المجانية » بوجه الاستثناء لا عن حاجة
 إليها ولكن على سبيل المكافأة ثم رأى لي أبي أن أدرس القوانين والشرائع
 فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه « فيدال باشا » لا يراني
 أهلاً لذلك بالسن فما زال أستاذي وصديقي المهذب يحيى بك ابراهيم وكيل
 المدرسة يومئذ يؤيدني عند رئيسه إلى أن قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل
 لي من النظارة على مائتي قرش في الشهر فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت
 الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء
 فنصح لي الوكيل أن أدخل هذا القسم ففعلت . .

وأقمت به سنتين ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة
 وبينما أنا أتردد على المغفور له علي باشا مبارك في شأن ورده عليه مرسوم من المعية
 السنية بطلبي إليها فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة فذهبت

إلى السراي وهناك استؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا فلما
مثلت بين يديه ولم أكن رأيت من قبل ولكني مدحته مراراً وأنا في المدرسة
خاطبني بهذا اللفظ الشريف « قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية أنك أعطيت
الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتي لكن ليس بها الآن محل
خال فهل لك في الانتظار ريثما يهينى الله لك الخير » فاستلمت أذبال
العزير وقبلتها ثم قلت : حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك
الشريفة وأي خير يهينى الله لعبدك أفضل من هذا . فأطرق هنيهة ثم قال :
قد سمعت أن أباك قد عطل من الخدمة فبلغه أني ربما أدخلته في عمل قبلك ثم
تهلل وأذن لي بالانصراف .

فلبث في المعية بضعة شهور أنتظر فرجاً يأتي به الله وكان المرحوم علي باشا
مبارك لم يقطع عني الراتب . إلى أن كان يوم كثر غيمه وثقال مطره فخرجت
قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي وبينما أنا عائداً إلى منزلي
أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزير في بهو السراي يشرف منه فنزلت عن
الدابة أمشي كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقبني خلف
القصر ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضني رسول من
الأمير يدعوني إليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ساعته
المرحوم الأمير عبدالرحمن بإشارشدي فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لي أن
أطل من بيتي حتى نزلت عن حمارك وأجلائي إلى انشاء ؟ قلت : عفواً
يا مولاي هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم :

وإذا المطيُّ بنا بَلَغْنَ مَحْمَدًا فظهورُهُنَّ على الرجال حرامُ
فتبسم ضاحكاً . ثم قال : إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم فهذا اليوم من
أيامكم فاسمع للبasha فإن عنده لك فالاً . فالتفت البasha عندئذ إلي وقال : الآن
أمرني أفندينا أن أبلغك تعيين أهلك مفتشاً في الخاصة الخديوية وأما أنت
فتعين بعد شهر ثم مد العزير إلي يده فقبلتها واجماً قد غلب علي السرور حتى
أنساني الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يحل علي حول في الخدمة الشريفة حتى

رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوربا فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب وإن لا أقدم فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنسية بقدر الإمكان ثم سافرت على نفقته فكنت أنقد ستة عشر جنيها في الشهر نصفها من المعية ونصفها من الخاصة وأعطاني يوم سفري مائة جنية أرسل نصفها إلى مدير الإرسالية ليهيئ لي جميع ما أحتاج إليه حال وصولي ودفع إلي النصف الآخر بيده الشريفة وما أنس من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قوله لي في ساعة الوداع « لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك فلا تعنتهم بطلب النقود واعنت أباك هذا الغني » .

فركبت البحر لأول مرة أوم مرسيليا ، فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري فأخبرني بأن الأمير يأمر بأن أقضي عامين في مدينة مونبلييه وآخرين في باريز وكان المدير قادماً من مونبلييه للقائي فعاد بي إليها على الفور وهناك قدم لي جميع ما أحتاج إليه وأدخلني مدرسة الحقوق الجامعية ثم رجع إلى العاصمة . فلما انقضت السنة الأولى التمت من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبة إلى مصر لقضاء زمن العطل بين أهلي فأوقع إلى أمره أن هذا من نزق الشباب وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوربا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل إلي خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء إلا مصر وكانت الدعوات قد توالى علي من الفرنسيين ، رفقاؤي في المدرسة بالذهاب إلى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولي مناظر رائعة . ومجالي شائقة . ومعالم للحضارة في أقاصي القرى شاهقة وآثاراً لدولة الرومان . تزداد حسناً على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنسي في داره وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق فيخيل إلي أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام البحار وكان أعجب ما رأيت مدينة « كركسون » وجدتها قسيتين وألفيت

القوم عليها صنفين فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق والآخرون خلق جديده وشعبة كسائر شعب الأمة في أخذهم بأشياء التمدن العصري وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجل نعم الله على وأسنى أيادي الحديدوي السابق عندي .

ثم ما كدت أنتهي من السنة الثانية حتى كتب إلي مدير الرسالة المصرية يستقدمني لباريز ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة فيها وان الأمير رحمه الله أدى نفقة هذه السياحة عني إذا رغبت فيها فبرحت موبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما أهبت للرحلة ثم سافرنا إلى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر نغشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر لكننا لم نلبث أن سئمناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشمال وهناك وجدنا راحة الحاطر وقرة الناظر وإن يكن الجو كثير الثقل غداراً في غالب الأحيان فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لي في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر علي وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول : « أفى مثل هذا الشباب تذهبون » ثم تكفف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومن على بالشفاء وعندئذ أشار علي الأطباء أن أقضي أياماً تحت سماء اقريقيا على زعم أن الذي بي من الضجر والسامة ليس إلا حنيناً إلى الوطن فوق اختيارى على الجزائر فرحلت إليها مع أحد قضاتها الفرنسيين فتفقتني مرافقته وظل دليلي على الهدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوماً ثم برحها إلى أوران .

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الجواء في صحوه وطيب نسمة مع توقد شمسها إلا جنوب فرنسا . ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية

إذ أكثر أصحابها وغلماؤها منهم وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديوي القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكنت أراهم فرحين بالنبأ وأسمعهم يدعون لسموه. ولا عيب في الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً فقد عهدت مساح الأحذية يستنكف من النطق بالعربية وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنساوية على أن حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنسي بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهافت متفرغهم إلا على مضار التمدن وأسوائه فكان حفظنا واحد في كل مكان .

أقمت بالجزائر أربعين يوماً أو تزيد ثم حثت الرجال عنها قافلاً إلى باريز وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها فرأى لي الجنب العالي أيدده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك ويحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالي أيدده الله فعدت إلى الوطن وأنا نضو فراق، تهزني إليه الأشواق .

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا .

فكانت خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة فرحلت إليها وأقمت بها شهراً ثم انفض المؤتمر فبرحتها إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انغرس في ذاك العام .

ولما كانت السنة الماضية وكنت قد سئمت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت إلى الآستانة طلباً للعافية على ضفاف البسفور فأذن الله وكان ما رجوت. وعدت من عاصمة الاسلام وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل في أربعين يوماً ما لا يفعله طب الأطباء في أربعين شهراً .
هذه هي أيام صباي وخطوات شبابي وأوائل نشأتي أجبت عنها السائل

يعلم كيف تقضت وفيهم انفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لي ولأهلي
ولمن ينظر هذا الكتاب بعين الكرم المتجاوز أو المنتقد العادل .

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب
العلم والأمير حفظه الله في التماس الشفاء فانهقدت بيننا الإلفة ، بلاكفة
وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه
منها منشوراً في صحف مصر فتمنى أن تكون لي يوماً ما مجموعة ثم تمنى علي
إذا هي ظهرت أن أسميها الشوقيات . .

ثم انفقت تلك المدة فكانها حلم في الكرى أو خلسة المختلس أو هي كما
قلت :

صحبتُ شكيباً برهةً لم يغزُ بها سواي ، على أنَّ الصحاب كثيرُ
حرصت عليها آنة ثم آنة ، كماضنَّ بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتمَّ لي ودادٌ على كل الوداد أميرُ
تفرَّق جسمي في البلاد وجسمه ولم يتغرَّق خاطرٌ وضيرُ
هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت اليه طاعة واجبة
وأنا بين هاتين هدف للقال والقليل . يظن بي نسبة الأثر الضئيل . إلى الاسم
القليل .

كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجباً أن وجدت بين
أوراقه شيئاً كثيراً من مشئت منظومي ومنثوري ما نشر منها وما لم ينشر قد
كتب بعضه بالخبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد
لفه في ورقة كتب عليها هذه العبارة « هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي
أحمد وهو يطلب العلم في أوربا فكننت كأني أراه . واني أمره أن يجمعه
ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشؤونه وربما لم يجد بعده، من
بعده، من يعنى بالشعر والآداب » فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق
حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت
فحدثته حديثي فسألني أن أعيره الأوراق أياماً ثم يعيدها إلي ففعلت ثم

لم يمض شهر حتى بعث بها إلي وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح . بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع فأخذتها وبودي لو وفيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي : لئن صدق أبي في الأول لقد ظلم في الثانية فإن الخير لا يزال في الناس .

على أن ما جمع في « الشوقيات » ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير فأما ما أسقط عمداً فأكثره من قولي في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور . ولا يسلك الفتى فيه سبيلاً إلا وهو مضلل عثور . وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسال عن سوء وقعه ويكون أئمه أكبر من نفعه لكني حرصت على إثبات بعض الشيء منه كما يحرص الانسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطباع فلم يكن في الوسع أخذه لئلا يختلط الكتاب ويختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي قبلت بعد الإعلان عن الشوقيات ولم يتيسر إدخالها في أبواب هذا الجزء .

وقد عزمت بحول الله ومشيته على أن أنشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عندي من منظوم ومنثور ولو قل عدده وصغر حجمه وأن أجعل ذلك بمثابة أجزاء متتالية « للشوقيات » تسمى باسمها وتكون لها متممة .

القسم الثاني

مختارات تربية مسرحية ، شعرية

من

أدب احمد شوقي

فماذج من نثر شوقي

لأحمد شوقي كتاب نثري ، وضعه في أثناء إقامته بمنفاه في بلاد الأندلس وأسماه : « أسواق الذهب » .

ويتضمن « أسواق الذهب » خطرات سريعة سجلها أحمد شوقي ، على ما يبدو ، في أوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وذلك نظراً للتناوت والتباين في المواضيع التي تعالجها هذه الخطرات .

وإذا كان ثمة من رابطة توحد هذه الخطرات في كتاب ، فلكونها من بنات أفكار أمير الشعراء ، ولأنها فضلاً عن ذلك ، عبارة عن نظرات الى الحياة بما فيها من شؤون وشجون وتناقضات .

وفي هذا الفصل نثبت بعضاً من خواطر شوقي التي وردت في كتابه « أسواق الذهب » ليطلع القارئ على أسلوبه النثري ؛ كما نثبت بعضاً من رسائله الأدبية العالية التي أرفق بها بعض منظوماته الشعرية ، وبعضها موجه إلى ملوك ، أو كتاب كبار ، أو مؤرخين رفيعي الشأن في بلاده ، نظراً لما تتضمنه تلك الرسائل من جوانب أدبية لا يعرفها قراء أحمد شوقي .

من أسواق الذهب

الحجر الأول

من لم يُجر زورقاً لم يُسير فلکاً ، ومن لم يدبّر منزلاً ، لم يسس ملكاً :
ومن خذلته أسرته لم تأت من الأبعاد نصرته ، ومن تفرّق عنه ولده ، لم
يجتمع له بلده .

* * *

الخطّة

أيها الراكب ، وما تأهّب ، الذاهب ، في غير مذهب : مكانك ،
واحبس عنانك . إن الحياة لا تصحب سدى ، ولا تسائر على غير هدى .
هذا الشراع فأين الدفّة ؟ وتلك الراحلة (١) فأين المحفّة (٢) ؟
لا بدّ مع الحياة من خطّة السبيل ، ومن نية هي الدليل ، ومن
حقير من المقاصد أو جليل .

عزاء (٣)

أيها المقدم للقتل ، ما يدريني لعلك مظلوم ، وما يدريك لعلك بالقتل
مرحوم . أجلّ آذن بانقضاء ، وقد دفعك إلى القضاء ، وإذا كان الأجل
لا بُدّ منه ، والموت لا متأخر عنه ، فبدّ السجّان ، أهون من براثن السرطان ،
وعضة الغل أخف من عضّة السل . وهبك نجوت اليوم من الجلاد الأصغر ،
فكيف النجاة من الجلاد الأكبر (٤) .

(١) الراحلة : الناقة - (٢) المحفّة : مركب كالهودج .

(٣) قالها شوقي للمحكوم عليه بالاعدام .

(٤) الجلاد الأكبر : عزرائيل .

العلم والبيان

إذا تعلمت فتأدّب ، وإذا تأدبت فتعلّم ، فإن فقر العلم إلى البيان ، فقر الخطيب إلى اللسان ، أو الكاتب إلى البنان ، وإن حاجة البيان إلى العلم حاجة القلم إلى الأنامل ، أو اليد إلى محرك من الحس عامل .
علم لا أدب معه ، عودٌ بلا وتر ، وسحاب ليس فيه مطر ، وريحان غير نضر ولا عطر ، وأدب لا علم معه ، قالب ولا سبائك ، ومنوال ولا حائك (١)

* * *

التعريب

يا أخا اللغات : اصرف كل احسانك إلى أدب لسانك ، ثم اتبع ، إن شئت في غيره ، وعُد إلى قومك بخبره ؛ وإن أردت أن تنفع ، فكن « كابن المقفع » ، نقل محسناً ، وعرب متقناً ، ولم يقل : « أنا » .

الغروز

أيها المسرور بمكانه ، المغرور بإمكانه ، التيّاه بالجاه ، المختال بالمال ، المجري خيل خيلائه ، المجرّر ذيل كبريائه ، المنتفخ بألقابه وأسمائه : إليك . فالقبول ، هبة القبول (٢) وصحبة الجلد (٣) لها حدّ ، وعادة التوفيق ، مفارقة الرفيق ؛ وما الأموال ، إلا الزوال ، ولا العافية إلا عارية (٤) ، وكل ولاية يوماً تموت ، سيعزل من يليها أو يموت .

(١) المراد أن العلم الذي لا أدب معه كقالب الصانع لا منفعة له إذا لم يوجد الذهب الذي يصب فيه ، أو كنسج لا يستطيع إبراز النسيج إلا إذا حركته يد النساج ، وقد شبه العلم بالقالب والمنوال ، وشبه الأدب بالذهب والنساج .

(٢) إليك : أي «تنح» و «ارجع» . و «القبول» الأولى مصدر ، والثانية ريع الصبا .

(٣) الجلد : الخط .

(٤) العارية : العطية التي لا عوض لها .

العمل

متخذ الراحة عادة ، مقضي عليه بالبلادة ، وضجيع الدعة ، وما أضيعه ،
وأشأم مضجعه ، ومخالف البيت ، حي كبيت ، فيا أخوا اليسار ، الضياع
والعقار : لا تبيّن قعيد الدار . ولا تخل بالنفس الأمانة ، وقم إلى مالك .
فأحسن استثماره ، وزده إصلاحاً يزدك عمارة (١) . وبأيها الضارع (٢)
لفقره ، الضائع في عقره (٣) ، تأمل بعين الإفاقة ، هل زادك القعود إلا
فاهه ؟ إن باليد المتبذلة كسللاً ، وإن مع القدم المتعطلة للذلا . قم فاحترف .
ولا تعيش خبالاً (٤) على قرابتك ، عيالا على صحابتك ، واعلم أن الكناس
أشرف من يسأل الناس .

الغيب

المقاديرُ أعتة ، والغيوبُ أجنة (٥) ، خلف الحجب مستكنة (٦) ، والغد
لله وحده ، يعلم علمه وعلم ما بعده ، فمن كان ذا علم ، فليقف عنده ، ولا
يجاوز حدّه . ضلّ المنجمون ، وكذب المتكهنون ، الذين يأفكون (٧) ،
والذين يدعون علم ما سيكون .

(١) العمارة : ما تعمّر به الدار .

(٢) الضارع : الضعيف .

(٣) عقر الدار : وسطها .

(٤) الخيال : الخيال الفاسد .

(٥) الأجنة : جمع الجنين ، وهو المستور من كل شيء .

(٦) مستكنة : مستورة .

(٧) يأفكون : يكذبون .

من رسائل شوقي

رسالة

إلى الأستاذ مرجليوت مدرس اللغة العربية في جامعة أكسفورد (١)
أيها الأستاذ الكريم :

تذكرتُ « أثينا » مدينة الحكمة في الدهور الخالية ، وأياماً غنمناها على رسومها العافية وأطلالها البالية : فكأنني أنظر إلى المؤتمر ، علماؤه الهالةُ ، وأنت القمر ، أو زُمَرُ الحجيح وأنت حادي الزُمَر ، وأرى الملوك في الحفر ، بُنيانهم مصدوع الجُدُر ، وبيانهم نورُ البشر ، نزلنا بهم فإذا الدول خبر ، وإذا الممالك أثر ، والطلولُ شغلُ الفؤاد والبصر ، منّا العبراتُ ومنها العبر ، صمت الإنسان ، ونطق الحجر ، فسبحان العزيز المقتدر ، القاهر فوق عباده بالقدر ، كان ذلك والحوادث أجنة ، والأمور في أحسن الأعنة ، والأرض بالسلم مطمئنة ، مغتبطة بسلامة الشباب ، منبسطة بتلاقي الأحباب ، والصفو في الدار والأكدار بالباب ، ثم أخذ الله الأممَ بذنوبهم فرماهم بعوانٍ في الماء ، تَضروسٍ في الأرض والسماء ، منهومة بالأموال مدمنة للدماء ، نزلت بالبرية فعصفت بأحسن شبابها ونباتها ؛ ونقصت موفور أمنها وأقواتها ، وهتكت في الثرى مصون رُفاتها ، وخلطت في الخنادق أحياءها بأمواتها وعدت على الوحش في فلواتها ، وعلى الطير في وكناتها ، وعلى الرياح في نخرقاتها ، وعلى بَلَمِ (٢) البحار وأحواتها ، وهوامِ القفار وحشراتِها ، وعلى بيوت الله في سراتها . والنواقيس في قبابها ، والمآذن في سماواتها ، فسبحان الملك الأكبر

(١) كتب شوقي هذه الرسالة تقدماً لقصيدته « أيها النيل » .

(٢) البلم : السمك الصغير .

الذي يَقهَر ولا يَقهَر ، ويُغيَّر ولا يَتَغَيَّر ، والذي يُقيم القيامة في مِيقَاتِهَا .
الشعرُ كالأحلام تُدخل على المسرور الكرى ، وتكثرُ على المحزون في
السرى ، وقريحهُ الشاعر كعين صاحب الأيام عندها للحزن عِبرةٌ ، وللسرور
عِبرةٌ ، وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمةٌ قيلت والهموم سارية ، والأقدار
بالمخاوف جارية ، والدماء متبارية ، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية ،
نظمتُها تغنيًا بمحاسن الماضي وتقييداً لمآثر الآباء ، وقضاء لحق « النيل »
الأسعد الأجد ونسبتها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب وما أنفقت
من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها وإلقائها كلما طلعت الشمس
خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر ، في أعظم جامعات العالم ،
فلعلها تقع إليك فتتذكر على النوى تلك الأيام، وتتنادم من بُعد على بساط
الأدب والكلام ، ونسأل الله أن يحقن الدماء ويُقيم جدار السلام .

رسالة (١)

من شوقي إلى المؤرخ اسماعيل (بك) رَأَفَت

صديقي المحترم ،

صدرتُ عن باريس ، وكأنها « بابل » ذات البرج والجسر ، وهي في
دولتها ، أو « طيبة » في الزمن الأول ، إلا أنها مدينة الشمس ، وباريس
مدينة النور ، أو « رومة » مقر القياصر ، ومزدحم الأجناس والعناصر ، وهي
في رفعة مُملكها الفاخر ، تموج بالأمم كالبحر الزاخر ، أو « الاسكندرية »
ذات المسلة - والمسلة في باريس - وهي في ذروة سعدها ، وأوج كمالها ،
تغير الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها ، أو « بغداد » في إبان إقبالها ،
وسلطان أقبالها ، وأيمن أمرها وأسعد حالها ، فسبحان المنعم ، أعطى « مدينة

(١) كتب شوقي هذه الرسالة تقديمًا لقصيدته « رومة » .

المعرضِ « الأسماء كلها . رجلتُ قدرته ، بعث المدائن في واحدة .

رحلتُ عنها في اليوم الذي أسفر صباحه عن ليلة الاحتفال بتوزيع الجوائز على العارضين ، وقد نالها منهم ستون ألفاً أو يزيدون ، كلهم من مشهوري الصنّاع ، وكبار المخترعين ، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر ومشى الخلائق فيها حتى دفناه وكأنه نهار مرّ ، أو ليلة تقضت بالسمر ، ثم انقلبنا ننفض الأنامل من ترابه ، ونذكر من محاسنه أنه جبلٌ واضحُ الغرر والتججيل ، يذكره التاريخ بالتعظيم والتبجيل ، قام العلمُ فيه على أمتن بنيان ، ورُفعت الحجبُ بين الحقائق والإنسان ، ضربت له أطولُ سماء من ضروب العرفان ، واستمدت من القادر مبالغ الإمكان ، فاقنات البرّ بشجرة ، وزم البحر بإبرة ، وفرّق الأرض وبلغ الجبال . وأوشك أن يمدّ إلى السماء بحبال ، ونفذ على النجم المدى ووجد على القطب هدى ، وغاص على الحروب الماء ، وركب إلى الوقائع الهواء . وكسر شرّة الداء ، وقتل قتّاله وراض العياء ، ودخل بصره على الجسم الأحشاء ، وأنطق الآلة الصماء ، ونقل الحديث من فضاء إلى فضاء ، على انقطاع الصلة بين النطق والإصغاء ، وحرك الصور وهي هباء ، إذا رأيتها حسبتها جماعة الأحياء ، ونال سرائر الحوابع وخاض في الطبائع والأهواء ، فأنكشف له الغطاء وبرح الخفاء ؛ ونثر فكاد يوحى إليه في الإنشاء ؛ ونظم فلم يدع من آية في الأرض ولا في السماء .

كل هذا أيها الأستاذ عرضته (باريس) للناس في خير معرضٍ أخرج لهم ؛ فوهاً له من سوق ثم ينفض ، ويا أسفاً على بنيانه يوم ينقض ..

برحمتها وهي تجر الذيل على المدائن الكبّر وتزرى بالحضارات ما حضر منها وما غبر ، وقصدت إلى رومة لعلّي أرد النفس إلى الخشوع ، وأداوي الفؤاد من نشوة اغتراره بما رأى ؛ فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكساد يتكلم وحجرٍ كان لكرامته يُستلم ، فوقفت أتأمل ذا الجدار وذا الجدار . وأنشد ذلك القصر وتلك الدار ، إلى أن ثار الشعر ، والشعر ابن أبوين : « التاريخ

والطبيعة» فنظمت وكأني بها في يدك تقرأ .
أحبُّ التوفيق إليَّ ، أيها الأستاذ ، لإكرام العالم وإجلال الصديق ؛ وأنت
لي بحمد الله هذان معاً ؛ فهل تمنّ بقبول هدية هي إلى التاريخ أدنى منها
إلى الشعر ؟

رسالة (١)

إلى المسرّر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أتأذن لرجل تعود أن يخرج عن دائرة الموظف كلما عرضت حال
يخدم الوطن فيها الرجال أن يرفع لشعره ذكره ، ويشرف قدره ، مُهدياً
إليكَ منه هذه القصيدة في لغة (الضاد) ، وهي مما قلتُ في (أنس الوجود)
ذلك الأثر المحتضر ، الذي جمع العبر ، ومحاه الدهر أو كاد ، وكان إحدى
آياته الكبرى هياكل «لفرعون» و«بطليموس» توارثها عن «الكهنة»
«القُسُوس» وصارت «للمسيح» وكانت «لهوروس» ثم ظهر «الأذان»
فيها على «الناقوس» ثم لا تكون عَشِيَّة أو ضحاها حتى يهون في الماء كلُّ
حجر كان يُقبَل (كالأسود) (٢) وكل ركن كان يُستلم «كالخطيم» (٤)
شهدت على «أنس الوجود» ما يُعلّم الانسان - ولو أنه (روزفلت) علماً
وحكمة وأدباً - كيف يحترق الدنيا ويحترم الدين جميعاً .

دخلته ذات يوم وكان «الدوق أوف كونوت» لديه يتمشّي في ظلاله ،
ويتنقل بين رسومه وأطلاله ، عيناه ونفسه في إعباره وإجلاله ، فكانت
مني التفاتة فرأيت «فلاحاً» قد أقبل ثم ألقى عِباءته وتوجّه يُصلي «العصر»
غير مُلقٍ بالآل «لفرعون» كيف كان يُعبد ويُعبد ، ولا «لبطليموس»
كيف كان يُعظّم ويُمجّد ، ولا للمسيحية السمحة كيف دخلت على «الوثنية»

(١) هذه الرسالة كتبها شوقي مقدماً لقصيدته «أنس الوجود» .

(٢) الأسود : هو الحجر الأسود الذي بمكة .

(٣) الخطيم : جدار حجر الكعبة ، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام .

المعبد ، ولا « للملك إدوارد » الذي تحتل جنوده الآن مصر وهو في ثياب أخيه « الدوق » يرفع البصرَ ويُسدله ممتلئاً من آيات اندهر مهابة وإعجاباً ، مُشتغلاً بالتاريخ القائم المجسم ، يقرؤه كتاباً كتاباً . دينٌ سهلٌ سمحٌ يسرٌ ، وإلهٌ واحدٌ يعبد حيث وجِدَ العابد ، على العراء كما في الهياكل ، والكنائس والمساجد .

التاريخ أيها الضيف العظيم غابرٌ متجددٌ ، قديمه منوالٌ ، وحاضره مثال ، والغد بيد الله المتعال . وأنت اليوم تسمي فوق مهد الأعصر الأول ، ولحد قواهر الدول ، أرضٌ اتخذها « الإسكندر » عريناً ، وملأها على أهلها « قيصرٌ » سفيناً ، وخلف « ابن العاص » فيها لساناً وجنساً ودينناً . فكان أعظمَ المستعمرين حقيقةً وأكبرهم يقيناً . وهو الذي لم يُعلم عليه أنه بغى أو ظلم أو سفك الدماءَ أو نهى أو أمر ، إلا بين الرجاء والحذر ، من عدلٍ « عمر » الذي تُنبئك عنه السير .

قمتَ (أيها الضيف العظيم) في السودان خطيباً فأنصتَ العَصْرَ ، والتفتت مصر . وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون : « كيف خالف الرئيسُ سنةَ الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله ، فطارد الشعورَ وهو يهب ، والوجدانَ وهو يشب . والحياةَ وهي تدب ، في هذا الشعب ، ومن حرمة العواطف السامية ، ألا تطارد كأنها وحوشٌ ضارية ، على صحراء أو بادية ، كما طاردت السباع بالأمس نقماً من طبايعها الخافية . »

المصريُّ (أيها الضيف العظيم) سمحٌ كريمٌ كثير التجوز ، فقد ظفرت بمن مهدُ عذرك . ونفسي الظن عن كرمك . وادّخر ودك الذي تخطه الأمم المستضعفة ، والشعوب المتلهفة ، المتشوقة إذ قيل : إنما أراد الرئيس أن يمدح ديناً من حقه أن يُمدح بكل لسان . وفي كل مكان ، فكيف به في بعض معاهده في السودان . وأراد كذلك أن يحذر من الفتنة في الجيوش ، وينهى عن إيقاظها ، ويذكر للمحسن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته ،

ويدعو هذه الأمة التي حركتها المستقبل في السكون إلى العمل في ظل الحق، والصبر بإذن الله مضمون، ومستقبل بمشيئة الله مأمون، وقديماً فاز بالصبر الصابرون .

فإن كان ذلك (أيها الضيف العظيم) - وهو ما لا نعتقد غيره - فمثلك من نصح الأمم، وبعث العزائم والهمم، وعلم باللسان والقلم .

على أننا نرجو أن ستذكرنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جميعاً أهله، وأن ستعطينا عهدك، وتصفينا ودك، وتعلماً من أجمل الظنون وأحسنها بُردك، يوم تقلّ السفينة عظمتك وتجدك، وتنقل من أقصى البروج إلى أقصاها سعدك .

على يد الله تجري إن هي اندفعت وفي رحمة الله لا في الماء تحتجب

نماذج من شعر شوقي

ضمت الأجزاء الأربعة من « الشوقيات » معظم القصائد المنشورة وغير المنشورة التي نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي .

وقد وقعنا على قصيدة قديمة غير منشورة في الشوقيات ، تروي أسطورة هندية عن خلق المرأة ، فنشرناها مع مختارات شوقي الشعرية التي لا تحتاج إلى تعريف ، لأنها تعرف بنفسها عن نفسها .

نهج البردة

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْأَعْلَمِ
أَحْلَ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهَرِ الْحُرْمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جَوْذَرٍ أَسْدًا
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجْمِ
لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسَ قَائِلَةً
يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِي
جَعَلْتُهَا وَكْتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبْدِي
جُرْحُ الْأَحَبَّةِ عِنْدِي غَيْرَ ذِي أَلَمِ
رَزَقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقِي
إِذَا رَزَقْتَ أَلْتِمَاسَ الْعُذْرِ فِي الشِّيمِ
يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ
لَوْ شَفَكَ الْوَجْدَ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلُمِ
لَقَدْ أَنْلَتُكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ
وَرَبَّ مُنْتَصِتٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمِ

يَا نَاعِيسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا
أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمِ
أَفْدِيكَ إِلْفًا وَلَا آلُو الْخِيَالَ فَدَى
أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ
سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَامِيًا فَاسَا
وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَاقِ لِلْحُلَمِ
مِنَ الْمَوَائِسِ بَانًا بِالرُّبَى وَقَنَّا
الْإِلَاعِبَاتُ بِرُوحِي السَّافِحَاتُ دَمِي
السَّافِرَاتُ كَأَمْثَالِ الْبُدُورِ ضَحَى
يُغْرِنُ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلِيِّ وَالْعِصَمِ
الْقَاتِلَاتُ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمُ
وَلِلْمَنِيَّةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ
الْعَاثِرَاتُ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ وَمَا
أَقْلَنَ مِنْ عَشْرَاتِ الدَّلِّ فِي الرِّسَمِ
الْمُضْرِمَاتُ خُدُودًا أَسْفَرَتْ وَجَلَتْ
عَنْ فِتْنَةٍ تُسَلِّمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ
الْحَامِلَاتُ لَوَاءَ الْحَسَنِ مُخْتَلِفًا
أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مَنْقَبِمِ

من كل بيضاء أو سمراء زينتَا
لِلْعَيْنِ ، وَالْحُسْنُ فِي الْآرَامِ كَالْعُصَمِ

يُرَعْنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ
إِذَا أَشْرُنَ أَسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ

وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَمْتُ الْفُؤَادَ رَبِّي
يَرْتَعْنَ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ

يَابَنْتَ ذِي اللَّبَدِ الْمُحْمِيَّ جَانِبَهُ
الْقَاكِ فِي أُلْغَابٍ أَمْ الْقَاكِ فِي الْأُطَمِ

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ
أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مُضْرِبُ الْخِيَمِ

مَنْ أَنْبَتَ الْغَصْنَ مِنْ صِمَصَامَةٍ ذَكَرٍ ؟
وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضِرْغَامَةٍ قَرَمٍ ؟

بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ سُمْرٍ أَلْقَنَّا حُجْبُ
وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عَذْرِيَّةُ الْعُصَمِ

لَمْ أَغْشَ مَغْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرَى
مَغْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمَشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ

يا نفسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ
 وإنَّ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٌ
 فُضِّي بِتَقْوَاكِ فَاهَاً كُلَّمَا ضَحِكْتَ
 كَمَا يُفْضُ أَذَى الرَقَشَاءِ بِالثَّرَمِ
 مَخْطُوبَةٌ مِنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
 مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ تَرْمِلْ وَلَمْ تَتَّمِ
 يَفْنَى 'الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
 جُرْحُ بَادَمَ يَبْكِي مِنْهُ فِي الْأَدَمِ
 لَا تَحْفَلِي بِجَنَاهَا أَوْ جَنَائِهَا
 الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ
 كَمْ نَائِمٌ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
 لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنْمِ
 طَوْرًا تَمْدَكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
 وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ
 كَمْ ضَلَلْتِكَ وَمَنْ تَحْجُبُ بِصِيرَتِهِ
 إِنْ يَلْقَى صَابَأً يَرِدُ أَوْ عُلْقَمَاءَ يَسْمِ
 يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا
 مَسْوَدَّةُ الصُّحُفِ فِي مُبِیْضَةٍ أُلِّمَ

رَكُضْتُهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا
أَخَذْتُ مِنْ حِمِيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخَمِ

هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُوهَا دَاعِي الصَّبَا تَهَمُ

صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
فَقَوْمُ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمُ

وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخَمِ

تَطْفِي إِذَا مُكِّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهْوَى
طَفِيَ الْجِيَادِ إِذَا عَضَّتْ عَلَى الشُّكْمِ

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغَفْرَانِ لِي أَمَلُ
فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مَعْتَصِمِ

أُلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى
مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْغُمِّ

إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ
عِزَّ الشَّفَاعَةِ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أَمِّ

وإن تَقَدَّمَ ذو تقوى بصالحة
قدمتُ بين يديه عِبْرَةَ النَّدَمِ
لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ
يُمْسِكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَغْنَمُ
فَكُلْ فَضْلِي وَإِحْسَانِي وَعَارِفِي
مَا بَيْنَ مُسْتَلَمٍ مِنْهُ وَمُلْتَزِمِ
عَلَقْتُ مِنْ مَدْحِهِ حَبْلًا أَعَزُّ بِهِ
فِي يَوْمٍ لَا عِزَّ بِالْأَنْسَابِ وَاللُّحْمِ
يُزْرِي قَرِيضِي زُهَيْرًا حِينَ أَمْدَحُهُ
وَلَا يَقَاسُ إِلَى جُودِي لَدَى هَرَمِ
مُحَمَّدٍ صَفْوَةِ الْبَارِي وَرَحْمَتِهِ
وَبُغْيَةِ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمِ
وَصَاحِبِ الْحَوْضِ يَوْمَ الرِّسْلِ سَائِلَةِ
مَتَى الْوُرُودُ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِي
سَنَآؤُهُ وَسَنَآهُ الشَّمْسُ طَالِعَةُ
فَالْجَرْمُ فِي فَلَكِ وَالضَّوْءُ فِي عِلْمِ
قَدْ أَخْطَأَ النِّجْمَ مَا نَالَتْ أَبْوَتُهُ
مِنْ سُودٍ بَاذِخٍ فِي مَظْهَرِ سَنِمِ

نُمُوا إِلَيْهِ فزادوا في الْوَرَى شَرْفًا
وَرُبَّ أَصْلٍ لِفَرْعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِي
حَوَاهُ فِي سُبُحاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمْ
نورانِ قَما مَقامِ الصُّلبِ والرَّحِمِ
لَمَّا رآهُ بَحِيرًا قال نَعْرِفُهُ
بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسِّيمِ
سائِلُ حِرَاءٍ وَرُوحِ الْقُدُسِ هَلْ عَلِمَا
مَصُونٌ سِرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مِنْكُمْ
كَمْ جِيثَةٍ وَذَهَابٍ شُرُفَتْ بِهِمَا
بَطْحَاءُ مَكَّةَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْغَمِ
وَوَحْشَةٍ لَابِنِ عَبْدِ اللَّهِ بَيْنَهُمَا
أَشْهَى مِنَ الْأُنْسِ بِالْأَحْبابِ وَالْحَشَمِ
يُسَامِرُ الْوَحْيَ فِيهَا قَبْلَ مَهْبَطِهِ
وَمَنْ يَبْشُرُ بِسِمَى الْخَيْرِ يَتَسِمِ
لَمَّا دَعَا الصَّحْبُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ ظَمًا
فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّنَمِ
وَوَلَّلَتْهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ
غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خَيْرَةُ الدَّيَمِ

مَحَبَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ أُشْرِبَهَا
قَعَائِدُ الدَّيْرِ وَالرُّهْبَانُ فِي الْقِمَمِ

إِنْ الشَّمَائِلَ إِنْ رَقَّتْ يَكَادِ بِهَا
يُغْرَى الْجَمَادُ وَيَغْرَى كُلُّ ذِي نَسَمِ

وَنُودِي أَقْرَأُ تَعَالَى اللَّهُ قَائِلَهَا
لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمِ

هَنَّاكَ أَذَّنَ لِلرَّحْمَنِ فَاْمْتَلَأَتْ
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّعَمِ

فَلَا تَسْلُ عَنْ قُرَيْشٍ كَيْفَ حَيْرَتُهَا
وَكَيْفَ نُفَرَّتُهَا فِي أَلْسَهْلِ وَالْعَلَمِ

تَسَاءَلُوا عَنْ عَظِيمٍ قَدْ أَلَمَ بِهِمْ
رَمَى الْمَشَايخَ وَالْوِلْدَانَ بِاللَّمَمِ

يَا جَاهِلِينَ عَلَى الْهَادِي وَدَعْوَتِهِ
هَلْ تَجْهَلُونَ مَكَانَ الصَّادِقِ الْعَلَمِ؟

لَقَبْتُمُوهُ أَمِينَ الْقَوْمِ فِي صَغَرٍ
وَمَا الْأَمِينَ عَلَى قَوْلٍ بِمَتَّهِمْ

فاقَ الْبُدُورَ وفاقَ الْأَنْبِيَاءِ فَكُمُ
 بِالْخُلُقِ وَالْخُلُقِ مِنْ حَسَنِ وَمِنْ عِظَمِ
 جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانصَرَمْتُ
 وَجِئْتُنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرَمِ
 آيَاتُهُ كَلِمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ
 يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعَتَقِ وَالْقِدَمِ
 يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مَشْرِفَةٌ
 يَوْصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحْمِ
 يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً
 حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهْمِ
 حَلَّيْتَ مِنْ عَطَلٍ جَسَدَ الْبَيَانِ بِهِ
 فِي كُلِّ مُنْتَشِرٍ فِي حُسْنِ مُنْتَظَمِ
 بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ
 تُحْيِي الْقُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الْهِمَمِ
 سَرَتْ بِشَائِرُ بِالْهَادِي وَمَوْلَدُهُ
 فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَسْرَى النُّورِ فِي الظُّلَمِ
 تَخَطَفَتْ مُهَجُ الطَّاغِينَ مِنْ عَرَبِ
 وَطَبَّيَّرَتْ أَنْفُسَ الْبَاغِينَ مِنْ عَجَمِ

رِيعَتُ لَهَا شُرْفُ الْإِيْوَانِ فَانْصَدَعَتْ
مِنْ صَدْمَةِ الْحَقِّ لَا مِنْ صَدْمَةِ الْقُدَمِ

أَتَيْتَ وَالنَّاسَ فَوْضَى لَا تَمُرُّ بِهِمْ
إِلَّا عَلَى صَنْمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنْمِ

وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا ، مَسْخَرَةٌ
لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِي الْخَلْقِ مُحْتَكَمِ

مَسِيطَرُ الْفُرْسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ
وَقِصْرُ الرُّومِ مِنْ كِبَرِ أَصَمِّ عَمِ

يُعَذِّبَانِ عِبَادَ اللَّهِ فِي شُبِّهِ
وَيَذْبَحَانِ كَمَا ضَحَّيْتَ بِالْغَنَمِ

وَالْخَلْقُ يَفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأُضْعَفِهِمْ
كَالْلَيْثِ بِالْبُهِمِ أَوْ كَالْحُوتِ بِالْبَلَمِ

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكَهُ
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ

لَمَّا خَطَرْتَ بِهِ أَلْتَفُّوا بِسَيِّدِهِمْ
كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ

صلى وراءك منهم كل ذي خطرٍ
 ومن يفز بحبيب الله يَأْتِم
 جَبَّتَ السماوات أو ما فوقهنَّ بهم
 على مُنَوَّرَةٍ دَرِيَّةٍ أَلُّجُم
 رَكُوبَةٍ لَكَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ
 لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الْأَيْتِقِ الرَّسْمِ
 مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعَتُهُ
 وَقُدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشُّكِّ وَالْتِهَمِ
 حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءٌ لَا يُطَارُ لَهَا
 عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
 وَقِيلَ كُلْ نَبِيٌّ عِنْدَ رَتْبَتِهِ
 وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
 خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا عُلُومَهُمَا
 يَا قَارِيءَ اللُّوحِ بَلْ يَا لَا مِسَ أَلْقَلَمِ
 أَحْطَتْ بَيْنَهُمَا بِالسَّرِّ وَانْكَشَفَتْ
 لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمِ
 وَضَاعَفَ الْقُرْبَ مَا قُلِّدْتَ مِنْ مَنْ
 بِلَا عِدَادٍ وَمَا طُوِّقَتْ مِنْ نِعَمِ

سَلْ عَصْبَةَ الشُّرْكِ حَوْلَ الْغَارِ سَائِمَةً
 لَوْلَا مَطَارِدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَسْمُ
 هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ أَمْ سَمِعُوا
 هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أُمِّمْ ؟
 وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ
 كَالْغَابِ ، وَالحَائِمَاتِ الزُّغْبِ كَالرَّحْمِ
 فَأَدْبَرُوا وَوَجَّهُوا الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ
 كِبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مِنْهَزِمِ
 لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا
 وَعَيْنُهُ حَوْلَ رَكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقَمْ
 تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا
 وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحُ اللَّهِ لَا يُضْمُ
 يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي
 وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ شَمِي
 الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعُ
 لِصَاحِبِ الْبَرْدَةِ الْفِيحَاءِ ذِي الْقَدَمِ

مديحه فيك حُبُّ خالِصٌ وهوى
 وصادقُ الحبِّ يُملِي صادقَ الكلم
 اللهُ يشهدُ أنَّي لا أعارضُهُ
 مَنْ ذا يُعارضُ صَوْبَ العارضِ العرم
 وإنما أنا بعض الغابطين ومَنْ
 يغبطُ وليك لا يُذممُ ولا يَلَمُ
 هذا مُقامٌ من الرحمنِ مقتبسٌ
 ترمي مهابتُهُ سَحبانَ بالِكم
 البدرُ دونَكَ في حسنٍ وفي شرفٍ
 والبحرُ دونَكَ في خيرٍ وفي كرم
 شم الجبال إذا طاولتها انخفضت
 والأنجمُ الزُّهُرُ ما واسمَها تسم
 والليثُ دونَكَ بأَسأً عند وثبته
 إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي
 تهفو إليك وإن أدميت حَبَّتْها
 في الحربِ أفئدةُ الأبطالِ وألبهم
 محبةُ اللهِ ألقاها وهيبتهُ
 على ابنِ آمنةٍ في كلِّ مصطدَم

كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّقْعِ بِدْرِ دُجَى
يُضِيءُ مُلْتَثِمًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَثِمِ
بَدْرٌ تَطْلُعَ فِي بَدْرِ فُغْرَتِهِ
كَفَرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِيَ الظُّلَمِ
ذُكِرْتَ بِالْيَتَمِ فِي الْقُرْآنِ تَكْرَمَةً
وَقِيمَةُ اللُّلُؤِ الْمَكْنُونِ فِي الْيَتَمِ
اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ رِزْقَهُمْ
وَأَنْتَ خَيْرْتَ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْقِسَمِ
إِنْ قُلْتَ فِي الْأَمْرِ لَا ، أَوْ قُلْتَ فِيهِ نَعَمْ
فَخَيْرَةُ اللَّهِ فِي لَا مِنْكَ أَوْ نَعَمْ
أَخَوَكَ عَيْسَى دَعَا مَيْتًا فَقَامَ لَهُ
وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيَالًا مِنَ الرُّمَمِ
وَالْجَهْلُ مَوْتُ فَإِنْ أُوتِيتَ مُعْجِزَةً
فَابْعَثْ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ فَابْعَثْ مِنَ الرَّجَمِ
قَالُوا غَزَوْتَ ، وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا
لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاءُوا لِسَفْكِ دَمٍ
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلَامٍ وَسَفْسُطَةٌ
فَتَحَتَ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ

لَمَّا أَتَى الْكَافِرُونَ كُلُّ ذِي حَسَبٍ
تَكَفَّلَ السِّيفُ بِالْجَهَالِ وَالْعَمَمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّاهُ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ
ذُرْعاً وَإِنْ تَلَقَّاهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
سَلَى الْمَسِيحِيَّةَ الْغُرَاءَ كَمْ شَرِبْتُ
بِالضَّابِّ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْغَلَمِ
طَرِيدَةَ الشُّرْكِ يُوْذِيهَا وَيُوسِعُهَا
فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالاً سَاطِعَ الْحَدَمِ
لَوْ لَا حُمَاةُ لَهَا هَبُّوا لِنُصْرَتِهَا
بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفْقِ وَالرَّحْمِ
لَوْ لَا مَكَانُ لَعِيسَى عِنْدَ مُرْسِلِهِ
وَحُرْمَةٌ وَجَبَتْ لِلرُّوحِ فِي الْقِدَمِ
لَسَمَرَ الْبَدَنُ الطُّهْرُ الشَّرِيفُ عَلَى
لَوْحَيْنِ لَمْ يَخْشَ مُوْذِيهِ وَلَمْ يَجِمِ
جَلَّ الْمَسِيحُ وَذَاقَ الصَّلْبَ شَانِيئُهُ
إِنَّ الْعِقَابَ بِقَدْرِ الذَّنْبِ وَالْجُرْمِ
أَخُو النَّبِيِّ وَرُوحُ اللَّهِ فِي نُزُلٍ
فَوْقَ السَّمَاءِ وَدُونَ الْعَرْشِ مُحْتَرَمِ

عَلَّمَتْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ
 حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذَّمِّ
 دَعَوْتَهُمْ لَجِهَادٍ فِيهِ سَوْدُهُمْ
 وَالْحَرْبُ أَسُّ نِظَامِ الْكُونِ وَالْأُمَمِ
 لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدُّوَلَاتِ فِي زَمَنِ
 مَا طَالَ مِنْ عَمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ دَعَمٍ
 تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتَرَى كُلَّ آوْنَةٍ
 فِي الْأَعْصُرِ الْغُرِّ لَا فِي الْأَعْصُرِ الْآدَمِ
 بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَأَعْتَلَتْ سُرُورٌ
 لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُثَلِّمْ وَلَمْ تَصْمِ
 أَشْيَاعُ عَيْسَى أَعَدُّوا كُلَّ قَاصِمَةٍ
 وَلَمْ نَعِدْ سِوَى حَالَاتٍ مُنْقَصِمِ
 مَهْمَا دُعِيَتْ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا
 تَرْمِي بِأَسَدٍ وَيَرْمِي اللَّهُ بِالرُّجْمِ
 عَلَى لِيَوَائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِمِ
 لِلَّهِ مُسْتَقْتَلٍ فِي اللَّهِ مُعْتَزِمِ
 مُسَبِّحٌ لِلْقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمِ
 شَوْقًا عَلَى سَابِحِ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمِ

لو صادفَ الدَّهْرَ يَبْغِي نُقْلَةً فَرَمَى
بِعِزِّهِ فِي رَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرَمِ

بِيضُ مَفَالِيلٍ مِنْ فَعْلِ الْحُرُوبِ بِهِمْ
مَنْ أَسِيفَ اللَّهِ لَا الْهِنْدِيَّةَ الْخُذْمُ

كَمْ فِي التُّرَابِ إِذَا فَتَّشْتَ عَنْ رَجُلٍ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ

لَوْلَا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَا
تَفَاوَتْ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ

شَرِيعَةٌ لَكَ فَجَرَّتَ الْعُقُولُ بِهَا
عَنْ زَاخِرٍ بِصُنُوفِ الْعِلْمِ مُلْتَظِمِ

يَلُوحُ حَوْلَ سَنَا التَّوْحِيدِ جَوْهَرُهَا
كَالْحَلِيِّ لِلسَّيْفِ أَوْ كَالْوَشْيِ لِلْعَلَمِ

غَرَاءُ حَامَتِ عَلَيْهَا أَنْفُسٌ وَنُهَى
وَمَنْ يَجِدُ سَلْسَلًا مِنْ حِكْمَةٍ يَحُمِ

نُورُ السَّبِيلِ يُسَاسُ الْعَالَمُونَ بِهَا
تَكْفَلْتُ بِشَبَابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَمِ

يَجْرِي الزَّمَانُ وَأَحْكَامُ الزَّمَانِ عَلَى
حُكْمٍ لَهَا نَافِذٌ فِي الْخَلْقِ مَرْتَمٍ
لَمَّا اعْتَلَتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ
مَشَتْ مَمَالِكُهُ فِي نُورِهَا التَّمِيمِ
وَعَلَّمَتْ أُمَّةً بِالْقَفْرِ نَازِلَةً
رَعَى الْقِيَاصَ بَعْدَ الشَّاءِ وَالنَّعَمِ
كَمْ شَيْدَ الْمُصْلِحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مُلْكًا بَاذِخَ الْعِظَمِ
لِلْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالتَّمْدِينِ مَا عَزَمُوا
مِنْ الْأُمُورِ وَمَا شَدُّوا مِنْ أَلْحَزَمِ
سَرَّعَانَ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِمِلَّتِهِمْ
وَأَنهَلُوا النَّاسَ مِنْ سَلْسَالِهَا الشَّبِيمِ
سَارَوْا عَلَيْهَا هُدَاةَ النَّاسِ فَهِيَ بِهِمْ
إِلَى أَلْفَاحِ طَرِيقٌ وَاضِحُ الْعِظَمِ
لَا يَهْدِمُ الدَّهْرُ رُكْنَاً شَادَ عَدْلُهُمْ
وَحَائِطُ الْبَغْيِ إِنْ تَلَمَّسَهُ يَنْهَدِمِ

نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا
على عميم من الرضوانِ مقتسم
دَع عَنْكَ رُوماً وآثينا وما حوتَا
كلُّ اليواقيت في بغدادَ والتُّومَ
وخلَّ كِسرى وإيواناً يُدلُّ به
هوى على أثرِ النيرانِ والأيم
واترك رَعْمَيس، إِنَّ الْمَلِكَ مَظْهَره
في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع روماً كلَّما ذكرتُ
دار السلام لها أَلقت يدَ السَّلمِ
ما ضارعتها بياناً عندَ ملتأمٍ
ولا حكَّتها قضاءً عندَ مختصمٍ
ولا احتوتُ في طرازٍ من قياصرها
على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعْتَصِمٍ
مع الذين إذا سارت كتائبهم
تصرفوا بحُدود الأرض والتَّخُمِ
ويجلسونَ إلى عِلْمٍ ومعرفةٍ
فلا يدانونَ في عقلٍ ولا فَهَمِ

يَطْأُطِيءُ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبَسُوا
مِنْ هَيْبَةِ الْعِلْمِ لَا مِنْ هَيْبَةِ الْحُكْمِ
وَيُمِطُّونَ فَمَا بِالْأَرْضِ مِنْ مَحَلٍّ
وَلَا بَيْنَ بَاتٍ فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْ عُدْمِ
خُلَائِفُ اللَّهِ جَلُّوا عَنْ مَوَازِنَةٍ
فَلَا تَقِيسَنَّ أَمْلَاكَ الْوَرَى بِهِمْ
مَنْ فِي الْبَرِيَّةِ كَالْفَارُوقِ مَعْدَلَةً
وَكَابِنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَاشِعِ الْحَشَمِ
وَكَالِإِمَامِ إِذَا مَا فَضَّ مَزْدَحِمًا
بِمَدْمَعٍ فِي مَآقِي الْقَوْمِ مَزْدَحِمِ
الزَّائِرُ الْعَذْبُ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدَبٍ
وَالنَّاصِرُ النَّذْبُ فِي حَرْبٍ وَفِي سَلَمِ
أَوْ كَابِنِ عِفَانٍ وَالْقُرْآنِ فِي يَدِهِ
يَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْفُطُمِ
وَيَجْمَعُ الْآيَ تَرْتِيبًا وَيَنْظُمُهَا
عَقْدًا بِجِيدِ اللَّيَالِي غَيْرِ مُنْقَصِمِ
جُرْحَانٍ فِي كَبْدِ الْإِسْلَامِ مَا التَّامَا
جُرْحُ الشَّهِيدِ وَجَرَحُ الْكِتَابِ دُمِي

وما بلاءُ أبي بكرٍ بمُتهمٍ
بعد الجلائل في الأفعال والخدم

بالحزم والعزم حاط الدين في محنٍ
أضَلَّت الحلم من كهلي ومُحتلم

وحُدْنَ بالراشد الفاروق عن رشد
في الموت وهو يقينٌ غيرُ منبهم

يُجادل القوم مستلاً مهنَّده
في أعظم الرُّسل قدراً ، كيف لم يدم
لا تعذله إذا طاف الدهولُ به
مات الحبيب فضلَّ الصَّبُّ عن رغم

* * * *

ياربِّ صلِّ وسلِّم ما أَرَدْتَ على
نزِيل عرشك خيرِ الرُّسل كلِّهم
مُحيي الليالي صلاةً لا يُقَطَّعُهَا
إلا بدمع من الإشفاق منسجم

مَسْبَحاً لَكَ جُنَحُ اللَّيْلِ مُحْتَمِلاً
 ضُرّاً مِنْ السُّهْدِ أَوْ ضُرّاً مِنْ الْوَرَمِ
 رَضِيَةً نَفْسُهُ لَا تَشْتَكِي سَأْماً
 وَمَا مَعَ الْحَبِّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأَمِ
 وَصَلَّ رَبِّي عَلَى آلِ لَهُ نُخَبٍ
 جَعَلْتَ فِيهِمْ لَوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
 بَيْضُ الْوُجُودِ وَوَجْهُ الدَّهْرِ ذُو حُلْكِ
 شَمِّ الْأَنْوْفِ وَأَنْفِ الْحَادِثَاتِ حَمِي
 وَأَهْدِ خَيْرَ صَلَاةٍ مِنْكَ أَرْبَعَةً
 فِي الصَّحْبِ صُحْبَتَهُمْ مَرْغِيَّةَ الْحَرَمِ
 الرَّاكِبِينَ إِذَا نَسَادَى النَّبِيُّ بِهِمْ
 مَا هَالِ مِنْ جَلَلٍ وَأَشَدَّ مِنْ عَمَمِ
 الصَّابِرِينَ وَنَفْسِ الْأَرْضِ وَاجْفَةٍ
 الضَّاحِكِينَ إِلَى الْأَخْطَارِ وَالْقُحَمِ
 يَا رَبِّ هَبَّتْ شُعُوبٌ مِنْ مَنِئِيهَا
 وَأَسْتَيْقَظَتْ أُمَمٌ مِنْ رَقْدَةِ الْعَدَمِ

سعدٌ ونحسٌ ومالكٌ أنتَ مالِكُه
تُدِيلُ من نعمٍ فيه ومن نِقَمِ
رأى قضاؤكَ فينا رأيَ حكمتِه
أَكْرَمَ بوجهك من قاضٍ ومنتقمِ
فالطُفْ لأجلِ رسولِ العالمين بنا
ولا تزدِ قومه خسفاً ولا تُسمِ
يا ربَّ أحسنتَ بدءَ المسلمين به
فتممَّ الفضلَ وأمنحْ حُسْنَ مختَمِ

أبو الهول

أَبَا الْهَوْلِ، طَالَ عَلَيْكَ الْعُصْرُ
وَبُلَّغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعُمُرِ
فِيَا لِدَةِ الدَّهْرِ، لَا الدَّهْرُ شَبٌّ،

وَلَا أَنْتَ جَاوَزْتَ حَدَّ الصَّغَرِ
إِلَّامَ رَكُوبِكَ مَتْنِ الرِّمَاءِ
لِ لِطِيِّ الْأَصِيلِ وَجُوبِ السَّحَرِ

تُسَافِرُ مُنْتَقِلًا فِي الْقُرُوفِ
نِ فَيَّانَ تُلْقِي غُبَارَ السَّفَرِ؟
أَبَيْنَكَ عَهْدٌ وَبَيْنَ الْجَبَا

لِ، تَزُولَانِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُنْتَظَرِ؟
أَبَا الْهَوْلِ ! مَاذَا وَرَاءَ الْبَقَا
ءِ - إِذَا مَا تَطَاوَلَ - غَيْرُ الضَّجَرِ؟

عجبت لِلْقَمَانِ فِي حَرْصِهِ عَلَى لُبِيدٍ وَالنَّسُورِ الْأَخَرِ (١)

وشكوى لبيد لطول الحيا ة ، ولو لم تُطَلْ لتَشْكَي الْقِصَرِ (٢)

(١) لقمان : لقمان بن عاديا ، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفداه إلى الحرم ليستقي لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر من أضب عفر في جبل وعمر لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما أهلك نسر خلف بعده نسر . فستحرق الأبقار وآثر النسور . فلما لم يبق غير السابع قل ابن أخ له : يا عم ، ما بقي من عمرك إلا عمر هذا . فقال لقمان . هذا لبيد . ولبيد - بلسانهم : الدهر . قالوا : وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في حوبة في الجبل الذي هو في أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر فإذا مات أخذ آخر مكانه حتى هكت كلها إلا السابع أخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه لبدا ، وكان أطولها عمراً فضربت العرب به المثل فقالوا : طال الأبد على لبيد . قال الأعشى :

وأنت الذي ألهيت قيلا بكأه
لنفسك أن تختار سبعة أنسر
فعمر حتى خال أن نسوره
ولقمان إذ خيرت لقمان في العُمر
إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
خطود وهل تبقى النفوس على إلهدر

فعاش لقمان - كما زعموا - ثلاث آلاف وخمسمائة سنة . وقل النابغة :
أضحت خلاه وأضحى أهلها احتلوا
أخنى عليها الذي أخنى على لبيد
وهذا لقمان بن عاديا غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم .

ولزيد من أخبار الأعشى والنابغة يراجع ديوان «الأعشى» وديوان «النابغة» تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب ، كما يراجع كتاب «المعلقات العشر - دراسة ونصوص» لفوزي عطوي - الشركة اللبنانية للكتاب - طبعة ١٩٦٩ .

(٢) « وشكوى لبيد » أي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة ... الخ ، وهو لبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم صاحب المعلقة المشهورة التي أولها :
عفت الديار محلها فمقامها
بمئى تأبد غولها فرجامها
كان لبيد من المعمرين . روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية . أما شكواه التي ألع إليها فذلك حيث يقول :
لقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولو وجدت فيك يابن الصِّفا
 ةٍ لَحِقْتُ بِصَانِعِكَ الْمُقْتَدِرِ
 فَإِنَّ الْحَيَاةَ تَفْلُ الْحَدَّ يد إذا لبسته وتبلي الحجرُ
 أبا الهولِ مَا أَنْتَ فِي الْمُعْضَلَا
 تِ؟ لَقَدْ ضَلَّتْ السَّبِيلَ فِيكَ أَلْفِكْرُ
 تَحِيرَتِ أَلْبَدُ مَاذَا تَكُو
 نُ وَضَلَّتْ بَوَادِي الظُّنُونِ الْحُضْرُ
 فَكُنْتَ لَهُمْ صُورَةً أَلْعُنُّوْا
 نَ ، وَكُنْتَ مِثَالِ الْحِجَبِيِّ وَأَلْبَصَرُ
 وَسِرِّكَ فِي حُجْبِهِ كَلَّمَا
 أَطَلَّتْ عَلَيْهِ الظُّنُونُ اسْتَرَّ
 وَمَا رَاعَهُمْ غَيْرُ رَأْسِ الرَّجَا
 لٍ عَلَى هَيْكَلٍ مِنْ ذَوَاتِ الظُّفْرِ
 وَلَوْ صُورُوا مِنْ نَوَاحِي الطَّبَا
 عِ تَوَالَوْا عَلَيْكَ سِبَاعَ الصُّورِ
 فَيَا رَبَّ وَجْهِ كَصَافِي النَّمِيـ
 رِ تَشَابَهَ حَامِلُهُ وَأَلْتَمَرِ

أَبَا الْهَوْلِ وَيَحْكُ لَا يُسْتَقْدُ
لُ مَعَ الدَّهْرِ شَيْءٌ وَلَا يَحْتَقِرُ
تَهَزَّاتُ دَهْرًا بِدِيكَ الصَّبَا
ح فَنَقَّرَ عَيْنِيكَ فِيمَا نَقَرُ
أَسَالَ الْبِيَاضَ وَسَلَّ السَّوَادَ
وَأَوْغَلَ مِنْقَارُهُ فِي الْحَفَرِ
فَعُدَّتْ كَأَنَّكَ ذُو الْمَحْبِسِ
نِ ، قَطِيعَ الْقِيَامِ سَلِيبَ الْبَصْرِ
كَأَنَّ الرُّمَالَ عَلَى جَانِبَيْهِ
لَكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ ذُنُوبُ الْبَشَرِ
كَأَنَّكَ فِيهَا لَوَاءُ الْفَضَا
ء عَلَى الْأَرْضِ أَوْ دَيْدَبَانُ الْقَدَرِ
كَأَنَّكَ صَاحِبُ رَمْلٍ يَرَى
خَبَايَا الْغُيُوبِ خِلَالَ السَّطَرِ

* * *

أَبَا الْهَوْلِ أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَا
نِ نَجِيُّ الْأَوَانِ سَمِيرُ الْعَصْرِ

بَسَطَتْ ذِرَاعَيْكَ مِنْ آدَمٍ
وَوَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ

تَطْلُ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهْذِ
لُ وَتُوفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضِرُ

فَعَيْنٌ إِلَى مَنْ بَدَأَ لِلْوَجُو
دِ، وَأُخْرَى مَشِيعَةٌ مِنْ غِبَرِ

فَحَدَّثَ فَقَدْ يُهْتَدَى بِالْحَدِيدِ
ثِ، وَخَبَرٌ فَقَدْ يُوتَسَى بِالْخَبَرِ

أَلَمْ تَبْلُ فِرْعَوْنَ فِي عِزِّهِ
إِلَى الشَّمْسِ مُعْتَزِيًّا وَالْقَمَرِ

ظَلِيلَ الْحَضَارَةِ فِي الْأَوَّلِ
نِ، رَفِيعَ الْبِنَاءِ، جَلِيلَ الْأَثَرِ

يُؤَسَّسُ فِي الْأَرْضِ لِلْغَابِرِ
نِ وَيُغْرَسُ لِلْآخِرِينَ الثَّمَرُ

وَرَاعَكَ مَا رَاعَ مِنْ خَيْلِ قَمِيهِ
زَ تَرْمِي سَنَابِكُهَا بِالشَّرِّ

جوارفُ بالنار تغزو البلا
 د وآونةً بالقننا المشتجر
 وأبصرتُ إسكندراً في المَلا
 قشيبَ العلا في الشَّباب النَّضِرُ
 تَبَلَّجَ في مصر إكليلهُ
 فلم يَعُدْ في الملكِ عُمَرُ الزَّهَرُ
 وشاهدتُ قيصرَ كيفَ استبدَّ
 وكيفَ أَذَلَّ بمصرَ الْقَصْرُ
 وكيفَ تَجَبَّرَ أَعوانهُ
 وساقوا الخلائقَ سَوَقَ الْحُمُرِ
 وكيفَ ابتُلُوا بقليلِ العدي
 لِمن الفاتحينِ كريمِ النفرِ
 رَمَى نَاجَ قَيْصَرَ رَمَى الزَّجَا
 جِ ، وفَلَّ الجموعَ وثلَّ السررِ
 فدَعُ كُلَّ طاغيةٍ لِلزَّما
 نِ فَإِنَّ الزَّمانَ يُقيمُ الصَّعَرِ

رَأَيْتَ الدِّيَانَاتِ فِي نَظْمِهَا
 وَحِينَ وَهَى سَلْكُهَا وَانْتَثَرِ
 تُشَادُّ الْبُيُوتُ لَهَا كَالْبُرُوجِ
 جِ إِذَا أَخَذَ الطَّرْفُ فِيهَا انْحَسَرَ
 تَلَاقَى أَسَاسًا وَشُمُّ الْجِبَا
 لِ كَمَا تَتَلَقَى أَصُولُ الشَّجَرِ
 وَإِيزِيسُ خَلْفَ مَقَاصِيرِهَا
 تَخْطَى الْمُلُوكُ إِلَيْهَا السُّرُورَ
 تَضِيءُ عَلَى صَفَحَاتِ السَّمَاءِ
 وَتُشْرِقُ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا الْحُجُرُ
 وَآبِيسُ فِي نِيرِهِ أَلْعَالِمُ
 نَ ، وَبَعْضُ الْعَقَائِدِ نِيرٌ عَسِيرُ
 تُسَاسُ بِهِ مَعْضَلَاتُ الْأُمُورِ
 رِ ، وَيُرْجَى النِّعَمُ وَتُخْشَى السَّقَرُ
 وَلَا يَشْعُرُ الْقَوْمُ إِلَّا بِهِ
 وَلَوْ أَخَذَتْهُ الْمَدَى مَا شَعُرَ

يَقِلُّ أَبُو الْمَسْكِ عَبْدًا لَهُ
وإن صَاغَ أَحْمَدُ فِيهِ الدَّرَرُ
وَأَنْسَتْ مُوسَى وَتَابُوتَهُ
وَنُورَ الْعَصَا وَالْوَصَايَا الْغُرَرُ
وَعِيسَى يَلُمُ رِذَاءَ الْحَيَا
ءِ وَمَرِيْمُ تَجْمَعُ ذَيْلَ الْخَفَرِ
وَعَمْرُو يَسُوقُ بِمَصْرَ الصَّحَا
بَ وَبُزْجِي الْكِتَابَ وَيَحْدُو السُّورَ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ الْهُدَى وَالضَّلَا
لَ وَدُنْيَا الْمُلُوكِ وَأُخْرَى عُمَرُ؟
وَنَبَذَ الْمُقَوْقِسَ عَهْدَ الْفُجُو
رٍ وَأَخَذَ الْمُقَوْقِسَ عَهْدَ الْفَجَرِ
وَتَبَدَّلَهُ ظِلْمَاتِ الضَّلَا
لِ بِصَبْحِ الْهَدَايَةِ لِمَا سَفَرُ
وَتَأَلَّفَهُ الْقَيْطَ وَالْمُسْلِمِيَّةَ
نَ كَمَا أَلْفَتَ بِالْوَلَاءِ الْأَسْرَ

أبَا الْهَوْلِ ، لو لم تكن آيةً
لَكَانَ وَفَاؤُكَ إِحْدَى الْعِبَرِ
أَظَلَّتْ عَلَى الْهَرَمِينَ الْوَقُوفُ
فَ كَثَاكِلَةٍ لَا تَرِيمُ الْحَفَرُ
تُرَجِّي لِبَانِيهِمَا عَوْدَةَ
وَكَيْفَ يَعُودُ الرَّمِيمُ النَّخْرُ؟
تَجُوسُ بَعِينٍ خِلَالَ الدِّيَا
رٍ وَتَرْمِي بِأُخْرَى فِضَاءَ النَّهْرِ
تَرُومُ بِمِنْفِيسٍ بِيضَ الظُّبَا
وَسُمْرَ الْقَنَا وَالْخَمِيسِ الدُّثْرُ
وَمَهْدُ الْعُلُومِ الْخَطِيرَ الْجَلَا
لِ وَعَهْدَ الْفَنُونِ الْجَلِيلَ الْإِخْطَرُ
فَلَا تَسْتَبِينُ سَوِي قَرْيَةٍ
أَجَدَّ مُحَاسِنَهَا مَا انْدَثَرُ
تَكَادُ لِإِغْرَاقِهَا فِي الْجَمُوعِ
دِ إِذَا الْأَرْضُ دَارَتْ بِهَا لَمْ تَدُرُ
فَهَلْ مِنْ يَبْلُغُ عَنَّا الْأَصُوعِ
لَ بَأَنَّ الْفُرُوعَ اقْتَدَتْ بِالسَّيْرِ؟

وَأَنَا خَطْبُنَا حِسَانَ الْعَلَا
وَسَقْنَا لَهَا الْغَالِي الْمَدَّخَرُ
وَأَنَا رَكِبْنَا غَمَارَ الْأُمُورِ
رِ وَأَنَا نَزَلْنَا إِلَى الْمُؤْتَمَرِ
بِكُلِّ مُبِينٍ شَدِيدِ اللَّدَا
د وَكُلِّ أَرِيْبٍ بَعِيدِ النَّظَرِ
تُطَالِبَ بِالْحَقِّ فِي أُمَّةٍ
جَرِي دُمُهَا دُونَهُ وَانْتَشَرَ
وَلَمْ تَفْتَخَرْ بِأَسَاطِيلِهَا
وَلَكِنْ بَدَسْتُورَهَا تَفْتَخَرْ
فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَحْفَ
وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَطْرَ
تَحْرُكَ أَبَا الْهَوْلِ هَذَا الزَّمَا
نُ تَحْرُكَ مَا فِيهِ ، حَتَّى الْحَجَرِ

* * *

« فلما أممها أجابه آخر كان يختفي وراء التمثال وينطق »

بلسانه :

نجيَّ أبي الهول آن الأوا ن ، ودان الزمانُ ولانَ القدر
خبأت لقومك ما يستقو نَولا يخبأ العذب مثلُ الحجر
فعندي الملوكُ بأعيانها وعندَ التوابيتِ منها الأثر
محاظلمة اليأس صُبْحُ الرجا ِ وهذا هو الفلقُ المنتظر
«ثمَّ انشق صدر أبي الهول عن فتى وفتاة مثلاً أمامه
وأنشدا هذا النشيد»:

اليوم نسود بوادينا ونُعِيدُ محاسنَ ماضينا
ونشيدُ العز بأيدينا وطنٌ نفديه ويفدنا
وطن بالحقَّ نؤيِّده وبعين الله نشيده
ونحسنة ونزيِّنه بماآثرنا ومساعينا
سر التاريخ وعُصره وسريرُ الدهر ومنبره
وجنانُ الخلد وكوثره وكفي الآباء رياجينا
نتخذ الشمس له تاجاً وضحاها عرشاً وهاجا
وسماء السوْدَدِ أبراجاً وكذلك كان ولينا
العصرُ يراكم والأمم والكرنك يلحظُ والهَرَمُ
أبني الأوطان ألا همم كبناء الأولِ يبنينا
سعيّاً أبداً سعيّاً سعيّاً لأثيل المجد وللعليا
ولنجعل مصرَ هي الدنيا ولنجعل مصر هي الدنيا

ولد الهدى

وُلِدَ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ
وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ
الرُّوحِ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلُهُ
لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي
وَالْمُنْتَهَى وَالسَّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ
وَحَدِيقَةُ الْفَرْقَانِ ضَاحِكَةُ الرَّبِّ
بِالْتَّرْجُمَانِ شَذِيَّةٌ غَنَاءُ
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلًا مِنْ سَلْسَلِ
وَاللُّوْحِ وَالْقَلَمِ الْبَدِيعُ رَوَاءُ
نُظِمَتِ أَسَامِي الرُّسُلِ فِيهَا صَحِيفَةٌ
فِي اللُّوْحِ، وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ

اسمُ الجلالة في بديع حروفه
أَلِفٌ هنالك واسم (طه) الباء

* * *

ياخيرَ من جاءَ الوجودَ تحيةً
من مُرسَلينَ إلى أَلْهُدَى بك جاؤوا
بيت النبیین الذي لا يلتقي
إلا الحنائف فيه والحنفاءُ
خيرُ الأبوةِ حازهم لك (آدم)
دون الأنام وأحرزت حواءُ
هُمُ أدركوا عِزَّ النبوةِ وانتهت
فيها إليك العِزَّةُ القعساءُ
خُلِقت لبيتك وهو مخلوقُ لها
إِنَّ العِظائِمَ كفوها العِظماءُ
بك بَشَرَ اللهُ السَّماءَ فزِینَتْ
وتَضَوَّعَتْ مِسْكَاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
وبدا مُحْيَاكَ الذي قَسَماته
حَقٌّ وَغُرَّتْهُ هَدَى وَحِیاءُ

وعليه من نور النبوة رونق
 ومن الخليل وهدية سماء
 أثنى (المسيح) عليه خلف سمائه
 وتهللت واهتزت (الحدراء)
 يوم يتيه على الزمان صباحه
 ومساؤه (محمّد) وضاء
 الحق عالي الركن فيه مظفر
 في الملوك لا يعلو عليه لواء
 دعرت عروش الظالمين فزأزلت
 وعلت على تيجانهم أصداء
 والنار خاوية الجوانب حولهم
 خمدت ذوائبها وغاض الماء
 والآي تترى وألخوارق جمّة
 (جبريل) رواح بها غداء
 نعم اليتيم بدت مخايل فضله
 وألتم رزق بعضه وذكاء
 في المهدي يستسقى الحيا برجائه
 وبقصده تستدفع البأساء

لِسْوَى الْأَمَانَةِ فِي الصَّبَا وَالصَّدَقِ لَمْ
 يَعْرِفْهُ أَهْلُ الصَّدَقِ وَالْأَمْنَاءُ
 يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعِلَا
 مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ
 لَوْ لَمْ تُقِمِ دِينًا ، لَقَامَتْ وَحْدَهَا
 دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ
 زَانَتِكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ
 يُغْرِى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرَمَاءُ
 أَمَّا الْجَمَالُ فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائِهِ
 وَمَلَا حَةَ (الصَّدِيقِ) مِنْكَ أَبَاءُ
 وَالْحَسَنُ مِنْ كَرَمِ الْوُجُوهِ وَخَيْرُهُ
 مَا أُوتِي الْقَوَادُّ وَالزُّعَمَاءُ
 فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى
 وَفَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْآنَاءُ
 وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمَقْدَرًا
 لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجُهْلَاءُ
 وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ
 هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرَّحْمَاءُ

وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّهَا هِيَ غَضِبَةٌ
 فِي الْحَقِّ لَا ضِغْنَ وَلَا بَغْضَاءَ
 وَإِذَا رَضِيتَ فِذَاكَ فِي مَرْضَاتِهِ
 وَرَضِيَ الْكَثِيرُ تَحَلُّمٌ وَرِيَاءُ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هَزَّةٌ
 تَعْرُو النَّدَى وَلِلْقُلُوبِ بَكَاءُ
 وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا ارْتِيَابَ كَأَنَّمَا
 جَاءَ الْخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
 وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ نَمَّ يُورَدُ وَلَوْ
 أَنَّ الْقِيَاصِرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ
 وَإِذَا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللَّهِ لَمْ
 يَدْخُلْ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ عِدَاءُ
 وَإِذَا مَلَكَتِ النَّفْسَ قَمْتُ بِبَرِّهَا
 وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتَ يَدَاكَ الشَّاءُ
 وَإِذَا بَنَيْتَ فَخَيْرَ زَوْجٍ عِشْرَةٌ
 وَإِذَا أَبْتَنَيْتَ فَدُونَكَ الْآبَاءُ
 وَإِذَا صَحَبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مَجْسَمًا
 فِي بَرْدِكَ الْأَصْحَابُ وَالْخُلَطَاءُ

وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أُعْطِيَتْهُ
 فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
 وَإِذَا مَشَيْتَ إِلَى الْعِدَى فغَضَنْفَرٌ
 وَإِذَا جَرَيْتَ فَإِنَّكَ النَّكْبَاءُ
 وَتَمُدُّ حِلْمَكَ لِلْسَفِيهِ مَدَارِيأً
 حَتَّى يَضِيقَ بِعَرْضِكَ السَّفَهَاءُ
 فِي كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سَطَاكَ مَهَابَةٌ
 وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءُ
 وَالرَّأْيُ لَمْ يُنْضَ الْمَهْنَدُ دُونَهُ
 كَالسِّيفِ لَمْ تَضْرِبْ بِهِ الْآرَاءُ

* * *

يَا أَيُّهَا الْأُمِّيَّ حَسْبُكَ رَتْبَةٌ
 فِي الْعِلْمِ أَنَّ دَائِتُ بَكَ الْعِلْمَاءُ
 الذِّكْرُ آيَةُ رَبِّكَ الْكُبْرَى الَّتِي
 فِيهَا لِبَاغِي الْمَعْجَزَاتِ غِنَاءُ
 صَدْرُ الْبَيَانِ لَهُ إِذَا التَّقْتُ اللَّغْيُ
 وَتَقَدَّمَ الْبُلْغَاءُ وَالْفَصَحَاءُ

نُسِخَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَهِيَ وَضِئَةٌ
وَتَخَلَّفَ الْإِنْجِيلُ وَهُوَ ذُكَاءُ
لَمَّا تَمْشَى فِي (الْحِجَازِ) حَكِيمُهُ
قَضَّتْ (عُكَاظُ) بِهِ وَقَامَ حِرَاءُ
أَزْرَى بِمَنْطِقِ أَهْلِهِ وَبَيَانِهِمْ
وَحْيٌ يَقْصُرُ دُونَهُ الْبَلْغَاءُ
حَسَدُوا فَقَالُوا شَاعِرٌ أَوْ سَاحِرٌ
وَمِنَ الْحَسُودِ يَكُونُ الْاسْتِهْزَاءُ
قَدْ نَالَ (بِالْهَادِي) الْكَرِيمِ وَ(بِالْهَدَى)
مَا لَمْ تَنْلُ مِنْ سُودٍ سِينَاءُ
أَمْسَى كَأَنَّكَ مِنْ جَلَالِكَ أُمَّةٌ
وَكَأَنَّهُ مِنْ إِنْسِهِ بِيَدَاءِ
يُوحَى إِلَيْكَ الْفَوْزُ فِي ظُلُمَاتِهِ
مُتَابِعاً تُجْلَى بِهِ الظُّلُمَاءُ
دِينٌ يَشِيدُ آيَةً فِي آيَةٍ
لِبَنَائِهِ السُّورَاتِ وَالْأَضْوَاءُ

الحقُّ فيه هو الأساسُ وكيف لا
 والله جل جلاله البنَاءُ
 أما حديثك في العقول فمشرعٌ
 والعلمُ والحكمُ الغوالي الماءُ
 هو صِبْغَةُ الفرقانِ نَفْحَةُ قُدْسِهِ
 والسين من سُوراته والراءُ
 جَرَتْ الفصاحةُ من ينابيع النُّهى
 من دَوَّجِه وتَفَجَّرَ الإنشاءُ
 في بحرِه للسابحين به على
 أدبِ الحياة وعلمِها إرساءُ
 أتتِ الدُّهُورُ على سُلَافته ولم
 تَفْنِ السُّلَافُ ولا سَلا النُّدَماءُ
 بِكَ يابن عبد الله قامتِ سَمَحَةٌ
 بالحقِّ من مِلَلِ الهدى غراءُ
 بُنِيَتْ على التوحيد وهي حقيقة
 نادى بها سُقْرَاطُ والقدماءُ
 وجد الزعاف من السُّموم لأجلها
 كالشُّهْدِ ثم تتابع الشُّهَدَاءُ

ومشى على وجه الزمان بنورها
 كهَّانُ وادي النيل والعرفاء
 إيزيس ذات الملك حين توحدتْ
 أَخَذَتْ قِوَامَ أُمُورِهَا الْأَشْيَاءُ
 لما دعوت الناس لبيّ عاقل
 وَأَصَمَّ مِنْكَ الْجَاهِلِينَ زِدَاءُ
 أَبَوا الخُرُوجَ إِلَيْكَ مِنْ أَوْهَامِهِمْ
 وَالنَّاسُ فِي أَوْهَامِهِمْ سُجْنَاءُ
 وَمَنْ الْعُقُولُ جَدَاوِلُ وَجَلَامِيدُ
 وَمَنْ النُّفُوسُ حَرَائِرُ وَإِمَاءُ
 دَاءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرَسْطَالِيْسٍ لَمْ
 يَوْصَفْ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءُ
 فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكُومَةً
 لَأَسْوَقَةً فِيهَا وَلَا أُمَرَاءُ
 اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ
 وَالنَّاسُ تَحْتَ لِبَوائِهَا أَكْفَاءُ

وَالَّذِينَ يُسْرِئُوا الْخَلَافَةَ بَيْعَةً
 وَالْأَمْرُ شُورَى وَالْحَقُّ قَضَاءُ
 الْإِشْتِرَاقِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ
 لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلُوْءُ
 دَاوَيْتَ مُتَّعِدًا وَدَاوَوْا طَفَرَةً
 وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ
 الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدَبِكَ شَرِيعَةٌ
 وَمِنْ السُّمُومِ النَّاَقَعَاتِ دَوَاءُ
 وَالْبَرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ
 لَا مِثْلَ مَمْنُونَةٍ وَجِبَاءُ
 جَاءَتْ فَوَحَّدْتَ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ
 حَتَّى التَّقَى الْكِرْمَاءُ وَالْبَخْلَاءُ
 أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
 فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
 فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً
 مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ

يَايَهَا الْمُسْرِي بِهِ شَرْفًا إِلَى
مَالَا تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجُوزَاءُ
يَتَسَاءَلُونَ وَأَنْتَ أَظْهَرُ هَيْكَلٍ
بِالرُّوحِ أَمَ بِالْهَيْكَلِ الْإِسْرَاءُ
بَهُمَا سَمَوَاتٌ مُطَهَّرَتَيْنِ كِلَاهُمَا
نُورٌ وَرِيحَانِيَّةٌ وَبِهَاءُ
فَضْلٍ عَلَيْكَ لَدِي الْجَلَالِ وَمِنَّةٌ
وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرَى وَيَشَاءُ
تَغْشَى الْغُيُوبَ مِنَ الْعَوَالِمِ كُلَّمَا
طُوبِتْ سَمَاءٌ قُلِدَّتْكَ سَمَاءُ
فِي كُلِّ مَنْطِقَةٍ حَوَاشِي نَوْرَهَا
نُونٌ وَأَنْتَ النُّقْطَةُ الزَّهْرَاءُ
أَنْتَ الْجَمَالُ بِهَا وَأَنْتَ الْمَجْتَلَى
وَالْكَفُّ وَالْمَرْأَةُ وَالْحَسَنَاءُ
اللَّهُ هَيَّأَ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِهِ
نَزْلًا لِدَاثِكَ لَمْ يَجْزُهُ عِلَاءُ
الْعَرْشِ تَحْتِكَ سُدَّةٌ وَقَوَائِمٌ
وَمَنَاقِبُ الرُّوحِ الْأَمِينِ وَطَاءُ

والرسل دون العرش لم يؤذَنَ لهم
حاشا لغيرك موعد ولقاء

* * *

الخيْلُ تَأْبَىٰ غَيْرَ (أَحْمَدَ) حَامِيًّا
وبها إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ خِيْلًا
شَيْخُ الْفَوَارِسِ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ
إِنْ هِجَتْ آسَادُهَا الْهَيْجَاءُ
وَإِذَا تَصَدَّىٰ لِلطُّبَىٰ فَمُهَنْدٌ
أَوْ لِلرِّمَاحِ فَصُعْدَةٌ سَمَاءُ
وَإِذَا رَمَىٰ عَنْ قَوْسِهِ فَيَمِينُهُ
قَدَرٌ وَمَا تَرْمِي الْيَمِينَ قَضَاءُ
مَنْ كُلِّ دَاعِي الْحَقِّ هَمَّةٌ سَيْفُهُ
فَلِسَيْفِهِ فِي الرَّأْسِيَّاتِ مَضَاءُ
سَاقِي الْجَرِيحِ وَمُطْعِمُ الْأَسْرَىٰ وَمَنْ
أَمِنَتْ سَنَابِكَ خَيْلُهُ الْأَشْلَاءُ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الرِّجَالِ غَلَاظَةٌ
مَا لَمْ تَزْنِهَا رَأْفَةٌ وَسَخَاءُ

والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا
 فالمجدُّ ممَّا يدَّعون براءً
 والحربُ يبعثُها القويُّ تجبراً
 وينوءُ تحت بلائها الضعفاءُ
 كم من غزاةٍ للرسول كريمة
 فيها رضىٌ للحقِّ أو إعلاءُ
 كانت لجند الله فيها شدةً
 في إثرها للعالمين رخاءُ
 ضربوا الضلالةَ ضربةً ذهبت بها
 فعلى الجهالة والضلال عفاءُ
 دَعَمُوا على الحرب السلامَ وطالما
 حقنت دِمَاءٌ في الزمان دِمَاءُ

* * *

الحقُّ عِرضُ الله كلَّ أبيةٍ
 بين النفوسِ حمىً له ووقاءُ
 هل كان حول (محمد) من قومه

فدعى فلبى في القبائل عصابة
 مُستضعفون قلائل أنضاء
 ردوا بياس العزم عنه من الأذى
 ما لا ترد الصخرة الصماء
 والحق والإيمان إن صبا على
 برد ففيه كتيبة خرساء
 نسفوا بناء الشرك فهو خرائب
 وأستأصلوا الأصنام فهي هباء
 يمشون ، تغضي الأرض منهم هيبة
 وبهم حيال نعيمها إغضاء
 حتى إذا فتحت لهم أطرافها
 لم يُطغهم ترف ولا نعماء
 يامن له عز الشفاعة وحده
 وهو المنزه ماله شفعاء
 عرش القيامة أنت تحت لوائه
 والحوض أنت حياله السقاء
 تروي وتسقي الصالحين ثوابهم
 والصالحات ذخائر وجزاء

أَلُمِّلْ هَذَا ذُقْتَ فِي الدُّنْيَا الطَّوَى
وَأَنْشَقَّ مِنْ خَلْقٍ عَلَيْكَ رَدَاءُ
لِي فِي مَدِيحِكَ يَا رَسُولُ عَرَائِسُ
تُيَمِّنُ فِيكَ وَشَاقِهِنَّ جَلَاءُ
هُنَّ الْحَسَانُ فَإِنْ قَبِلْتَ تَكْرِمًا
فَمَهْوَرُهُنَّ شَفَاعَةُ حَسَنَاءُ
أَنْتَ الَّذِي نَظَّمَ الْبَرِيَّةَ دِينَهُ
مَاذَا يَقُولُ وَيَنْظُمُ الشُّعْرَاءُ
أَلْمُصْلِحُونَ أَصَابِعَ جُمِعَتْ يَدًا
هِيَ أَنْتَ بَلْ أَنْتَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
مَا جِئْتُ بِابِكَ مَادِحًا بَلْ دَاعِيًا
وَمَنْ الْمَدِيحُ تَضَرَّعٌ وَدَعَاءُ
أَدْعُوكَ عَنْ قَوْمِي الضَّعَافِ لِأَزْمَةٍ
فِي مِثْلِهَا يَلْقَى عَلَيْكَ رَجَاءُ
أَدْرِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نَفُوسَهُمْ
رَكِبَتْ هَوَاهَا وَالْقُلُوبُ هَوَاءُ

مُتَفَكِّكُونَ فَمَا تَضُمُّ نَفُوسَهُمْ
ثَقَّةً ، وَلَا جَمَعَ الْقُلُوبِ صَفَاءُ
رَقَدُوا وَغَرَّهُمْ نَعِيمٌ بَاطِلٌ
وَنَعِيمٌ قَوْمٍ فِي الْقِيُودِ بِلَاءُ

* * *

ظَلَمُوا شَرِيعَتَكَ الَّتِي نَلْنَا بِهَا
مَا لَمْ يَنْلُ فِي رُومَةِ الْفُقَهَاءِ
مَشَتْ الْحَضَارَةُ فِي سَنَاهَا وَاهْتَدَى
فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهَا السَّعْدَاءُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا صَحِبَ الدَّجَى
حَادٍ وَحَنَّتْ بِالْفَلَاحِ وَجَنَاءُ
وَاسْتَقْبَلَ الرِّضْوَانَ فِي غُرَفَاتِهِمْ
بِجَنَانِ عَدْنِ آلِكَ السَّمَحَاءِ
خَيْرُ الْوَسَائِلِ مَنْ يَقَعُ مِنْهُمْ عَلَى
سَبَبِ إِلَيْكَ فَحَسْبِي (الزَّهْرَاءُ)

شهيد الحق

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَامًا ؟
وهذي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى 'علاما ؟ (١)
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟
وَأَيُّكُمْ الْفَوْزُ ؟ لَا مَصْرُ اسْتَقَرَّتْ
على حال ولا السودانُ داما
وَأَيُّكُمْ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لِمَا
رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّلَامَا ؟
لقد صارت لكم حُكْمًا وَغُنْمًا
وَكَانَ شِعَارُهَا الْمَوْتَ الزُّوَامَا
وَتُثْقِتُمْ وَاتِهَمْتُمْ فِي اللَّيَالِي
فلا ثَقَّةً أَدْمَنَ وَلَا اتِهَامَا

(١) نظم شوقي هذه القصيدة في الذكرى السابعة عشرة للرحوم مصطفى كامل وأشار الى ما انتاب البلاد يومذاك من احوال .

شَبِيتُمْ بَيْنَكُمْ فِي الْقُطْرِ نَاراً
 عَلَى مُحْتَلِّهِ كَانَتْ سَلَامَا
 إِذَا مَارَاضَهَا بِالْعَقْلِ قَوْمٌ
 أَجَدَّ لَهَا هَوَى قَوْمٍ ضِرَامَا
 تَرَامَيْتُمْ ، فَقَالَ النَّاسُ : قَوْمٌ
 إِلَى الْخُذْلَانِ أَمْرُهُمْ تَرَامَى
 وَكَانَتْ مِصْرُ أَوَّلَ مَنْ أَصَبَتْ
 فَلَمْ تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلَا الْكَلَامَا
 إِذَا كَانَ الرُّمَاءُ رِمَاةَ سُوءٍ
 أَحَلُّوا غَيْرَ مَرْمَاهَا السَّهَامَا
 أَبْعَدَ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَصَفٌ
 كَأَنْيَابِ الْغُضْنَفَرِ لَنْ يُرَامَا
 تَبَاغَيْتُمْ كَأَنَّكُمْ خَلَايَا
 مِنْ السَّرَطَانِ لَا تَجِدُ الضَّمَامَا ؟
 أَرَى طِيَارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا
 وَحَلَقَ فَوْقَ أَرْوُسِنَا وَحَامَا

وأنظر جيشهم من نصف قرن
 على أبصارنا ضَرْبَ الخياما
 فلا امنأوننا نقصوه رمحاً
 ولا خواننا زادوا حساماً
 ونُلْفِي الجو صاعقةً ورعداً
 إذا قصرُ الدِّبَارَةِ فيه غاماً
 إذا انفجرت علينا الخيلُ منه
 ركبنا الصمتَ أو قُدْنَا الكلاما
 فأبنا بالتخاذل والتلاحي
 وآب بما ابتغى منا وراما

* * *

ملكنا مارِ الدُّنْيَا بوقتِ
 فلم نحسن على الدنيا القياما
 طلعنا وهي مُقبلةٌ أسوداً
 ورحنا وهي مُدبرةٌ نعاما
 ولينا الأمرَ حزباً بعد حزبٍ
 فلم نكُ مصلحين ولا كراما

جعلنا الحكمُ توليةً وعزلاً
 ولم نعد الجزاء والانتقاما
 وسُننا الأمر حين خلا إلينا
 بأهواء النفوس فما استقاما
 إذا التصريحُ كانَ براحِ كفرٍ
 فلمِ جنُّ الرِّجالُ به غراما؟
 وكيف يكون في أيدٍ حلالاً
 وفي أخرى من الأيدي حراما؟
 وما أدري غداة سقيتموه
 أترياقاً سقيتم أم سِماما؟ (١)

* * *

شهيدَ الحقِّ قم تره يتيماً
 بأرضٍ ضيّعت فيه اليتامى
 أقامَ على الشفاه بها غريباً
 ومر على القلوب فما أقاما

(١) سمام : سموم .

سَقِمَتْ فلم تبتْ نفسٌ بخير
كَأَنَّ بمهجةِ الوطنِ السَّقاما
ولم أَرْ مثلاً نعشِكَ إذ تهاوى
فغَطَّى الأرضَ وانتظمَ الأناما (١)
تَحَمَّلَ هِمَّةً وَأَقْلَّ دِيناً
وضم مُروءَةً، وحوى زماما
وما أَنسَاكَ في أَلْعَشْرِينَ لَمَّا
طلعتْ جِبالُها قمرًا تاما
يُشارُ إِلَيْكَ في أَلْنَادِي وتُرْمَى
بعيني من أَحَبِّ ومن تعامى
إِذَا جِئْتَ الْمَنَابِرَ كُنْتَ قُصَا
إِذَا هُوَ في عكاظَ علا السناما (٢)
وَأَنْتَ أَلَدُّ لِلْحَقِّ اهْتِزَازاً
وَأَلْطَفُ حِينَ تَنْطَقُهُ ابْتِسَاما
وتحملُ من أَدِيمِ الْحَقِّ وَجْهًا
صُراحاً ليس يتخذ اللشاما

(١) تهادى : تمايل فوق اعناق المشيعين .

(٢) قس : قس بن ساعدة الأيادي الذي كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر البعير .

أتذكرُ قبل هذا الجيل جيلاً
 سهرنا عن معلمهم وناما ؟
 مَهَارُ الحق بغَضْنا إليهم
 شكيمَ القيصريَّةِ واللجاما (١)
 لوأوكَ كانَ يسقيهم بجام
 وكانَ الشعرُ بينَ يديَّ جاما
 من الوطنيةِ استبقوا رحيقاً
 فضَضْنا عن مُعْتَقِهَا الختاماً
 غرسنا كرمها فزكا أصولاً
 بكلِّ قرارةٍ وزكا مُداماً
 جمعتهمُ على نبراتِ صوتِ
 كنفخِ الصُّورِ حرَّكتِ الرجاما (٢)
 لكَ أَلْخُطَبُ التي غُصَّ الأعادي
 بِسُورَتِها وساغَتِ لِلنَّدَامَى
 فكانتُ في مرارتِها زئيراً
 وكانت في حلاوتِها بُغاماً (٣)

(١) اللجاء : الإثاء الفضي .

(٢) الرجام : القبور .

(٣) البغام : صوت الظبي

بكِ الْوَطَنِيَّةُ اعتدلتُ وكانتُ
حديثاً من خرافةٍ او مناما
بنيتَ قضيَّةَ الأوطانِ منها
وصيرتَ الجلاءَ لها دِعاما
هزرتَ بني الزمانِ به صبيّاً
ورُعتَ به بني الدنيا غلاما

بعد المنفى

أنادي الرسم لو ملك الجوابا
وأجزيه بدمعي لو أثابا (١)
وقلّ لحقه العبرات تجري
وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقن مُقْبَلَاتِ التُربِ عني
وأدّينَ التحيّةَ والخطابا
نثرتُ الدمعَ في الدّمَنِ البوالي
كنظمي في كواعبها الشبابا
وقفتُ بها كما شأّت وشأّوا
وقوفاً علّمَ الصبرَ الذّهَابا

: «١» كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الاندلس، وقد اشاد فيها بذكر تلك البلاد شكراً لها، وعرفانا بحميلها. ثم انتقل الى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة، وعرج على مسألة التعمين التي كانت حينئذ شغل البلاد شاغل. وقد انشدت هذه القصيدة في اجتماع لجان التعمين بالابرا الملكية عام ١٩٢٠.

لها حقٌ وللأحباب حقٌ
 رشتُ وصالهم فيها حُباً
 ومن شكر المناجم محسناتِ
 إذا التبرُ انجلى شكر الترابِ
 وبين جوانحي وافٍ ألوفٌ
 إذا لمَح الديار مضى وثاباً
 رأى ميل الزمان بها فكانت
 على الأيام صحبته عتاباً

* * *

وداعاً أرض أندلسٍ وهذا
 ثنائي إن رضيت به ثواباً
 وما أثنيتُ إلا بعد علمٍ
 وكم من جاهل أثنى فعاباً
 تخذتُك موئلاً فحللتُ أندي
 ذرى من وائلٍ وأعز غاباً
 مغربُ آدمٍ من دار عدنٍ
 قضاها في حماك لي اغتراباً

شكرتُ أَلْفُلُكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي
 فِيما لِمَفارِقٍ شُكْرُ الْغُرَابِ
 فَأَنْتِ أَرْحَتْنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ
 كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي أَلَنْزَعِ انْتِصَابِ
 وَمَنْظَرِ كُلِّ خَوَّانٍ يِرَانِي
 بِوَجْهِه كَالْبَغْيِ رَمَى النَّقَابِ
 وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بَنِيانُ قَوْمٍ
 إِذَا أَخْلَقَهُمْ كَانَتْ خَرَابِ

* * *

أَحَقُّ كُنْتُ لِلزَّهْرَاءِ سَاحاً
 وَكُنْتُ لِسَاكِنِ (الزَّاهِي) رَحَاباً؟
 وَلَمْ تَكُنْ (جور) أَبْهَى مِنْكِ وَرِداً
 وَلَمْ تَكُنْ بَابِلُ أَشْهَى شَرَاباً؟
 وَأَنَّ الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا رَحِيقُ
 إِذَا طَالَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ طَاباً؟
 أُولَئِكَ أُمَّةٌ ضَرَبُوا الْمُعَالِي
 بِمَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا قِبَاباً

جرى كدرأ لهم صفو الليالي
 وغاية كل صفو أن يشابا
 مُشِيَّةُ القرون أديل منها
 ألم ترَ قرنُها في الجو شابا
 مُعلَّقةٌ تنظرُ صولجَانا
 يخرُّ عن السماء بها لعبا
 تُعدُّ بها على الأممِ الليالي
 وما تدري السنين ولا الحسابا

* * *

ويا وطني لقيتك بعد يأسٍ
 كأنني قد لقيت بك الشبابا
 وكلُّ مسافرٍ سيؤوبُ يوماً
 إذا رزقَ السَّلامةَ والإيابا
 ولو أنني دُعيتُ لكنتُ ديني
 عليه أقابلُ الحتمَ المجابا
 أديرُ إليك قبل البيت وجهي
 إذا فهِتُ الشهادةَ والمتابا

وقد سَبَقَتْ رَكائِبِي القوافي
 مقلِّدةً أَزِمَّتْهَا طِرَابِسا
 تَجُوبُ الدَّهْرَ نَحْوَكَ والفيافي
 وتفتحمُ الليالي لا الْعُبابَا
 وتُهِدِيكَ الشَّاءَ الحرَّ تاجاً
 على تاجيكَ موتلفاً عُجَابَا

* * *

هدانا ضوءُ ثَغْرِكَ من ثلاث
 كما تهدي (المنوِّرة) الركابَا
 وقد غَشَّى المتسارُ البحرَ نوراً
 كنار (الطور) جَلَلَّتْ الشعابَا
 وقيلَ الثغرُ فاتأدتْ، فأرْسَتْ
 فكانت من ثراكِ الطُّهرِ قابَا
 فصفحاً للزمانِ لصبحِ يومٍ
 به أضحي الزمانُ إليَّ ثابَا
 وحيّا الله فتياناً سِماحاً
 كَسَوْا عَظْفِيَّ من فخرِ ثيابَا

ملائكة إذا حفُّوك يوماً
 أحَبَّك كلُّ من تلقى وهابا
 وإن حملتك أيديهم بحوراً
 بلغت على أكفهم السحابا
 تلقوني بكل أغر زاه
 كأنَّ على أسرته شهابا
 ترى الإيمان موتلفاً عليه
 ونور العلم والكرم اللُّبابا
 وتلمح من وضاء صفحته
 محيا مصر رائعة كعابا
 وما أدبي لما أسدوه أهل
 ولكن من أحب الشيء حابي
 شباب النيل : إن لكم لصوتا
 ملبي حين يُرفع مُستجابا
 فهزوا (العرش) بالسدعوات حتى
 يخفف عن كنانته العذابا
 أمن حرب البسوس إلى علاء
 يكاد يُعيدها سبعا صعبا ؟

وهل في القوم يوسف يتقيها
ويُحسنُ حِسْبَةً وَيَرى صواباً؟

عبادك ربّ قد جاعوا بمصر
أَنِيلَا سُقْتَ فِيهِمْ أَمْ سَرَاباً

حنانك وأهدِ لِلْحُسْنَى تَجَاراً
بها ملكوا المرافق والرقابا

ورَقَّقْ لِلْفَقِيرِ بها قلوباً
محجرةً وأكباداً صلابا

أَمِنْ أَكَلَ الْيَتِيمَ لَهُ عِقَابٌ
وَمِنْ أَكَلَ الْفَقِيرَ فَلَا عِقَابُ؟

أُصِيبَ مِنَ التَّجَارِ بِكُلِّ ضَارٍ
أَشَدَّ مِنَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ نَابَا

يَكَادُ إِذَا غِذَاهُ أَوْ كَسَاهُ
يَنَازِعُهُ الْحَشَاشَةُ وَالْإِهَابَا

وَتَسْمَعُ رَحْمَةً فِي كُلِّ نَادٍ
وَلَسْتَ تَحْسُ لِلْبَرِّ انْتِدَابَا

أَكُلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا
زَكَاةَ الْمَالِ لَيْسَتْ فِيهِ بَابَا
إِذَا مَا الطَّاعِمُونَ شَكُوا وَضَجُّوا
فَدَعَهُمْ وَاسْمِعِ الْغَرثَى السَّغَابَا
فَمَا يَبْكُونَ مِنْ تُكَلٍّ وَلَكِنْ
كَمَا تَصَفُّ الْمَعْدَدَةُ الْمَصَابَا
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ سَوْقِ الْخَيْرِ كَسْبًا
وَلَا كِتْجَارَةَ السَّوْءِ اكْتِسَابَا
وَلَا كَأُولَئِكَ الْبُؤْسَاءِ شَاءَ
إِذَا جَوَّعْتَهَا انْتَشَرَتْ ذُنَابَا
وَلَوْلَا الْبِرُّ لَمْ يُبْعَثْ رَسُولٌ
وَلَمْ يَحْمَلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابَا

العلم والتعليم

قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِيهِ التَّبْجِيلُ
كَادَ الْمَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا
أَعْلَمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي
يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا؟
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، خَيْرَ مُعَلِّمٍ
عَلِمْتَ بِالْقَلَمِ أَلْقُرُونَ الْأَوَّلَى
أَخْرَجْتَ هَذَا الْعَقْلَ مِنْ ظُلُمَاتِهِ
وَهَدَيْتَهُ النُّورَ الْمُبِينِ سَبِيلًا
وَطَبَعْتَهُ بِيَدِ الْمَعْلَمِ تَارَةً
صَدِيقَ الْحَدِيدِ، وَتَارَةً مُصْقُولًا
أَرْسَلْتَ بِالتَّوْرَةِ مُوسَى مُرْشِدًا
وَابْنَ الْبَتُولِ فَعَلَّمَ الْإِنْجِيلَ

وفجرت ينبوع البيان مُحمداً
 فسقي الحديث وناول التنزيلا
 علمت يوناناً ومصر فزالتا
 عن كل شمسٍ ما تريد أفولا
 واليوم أصبحنا بحالِ طفولةٍ
 في العلمِ تلتَمِسانه تطفيلًا
 من مشرقِ الأرضِ الشُّموسِ تظاهرت
 ما بالُ مغربها عليه أديلا
 يا أرضُ مُدِّ فقد المَعْلَمُ نفسهُ
 بين الشُّموسِ وبين شرقك حِيلا
 ذهب الذين حموا حقيقة علمهم
 واستعذبوا فيها العذاب وبِـيلا
 في عالمٍ صَحِبَ الحياةَ مقيداً
 بالفردِ، مخزوماً به ، مغلولا
 صرعته دنيا المستبد كما هوت
 من ضربةِ الشمسِ الرؤوسُ دُهِولا
 سُقراطُ أعطي الكاسَ وهي منيةٌ
 شفتي مُجِبٌّ يشتهي التقبيلًا

عرضوا الحياة عليه وهي غباوة
فأبى وآثر أن يموت نبيلاً
إن الشجاعة في القلوب كثيرة
ووجدتُ شجعان العقول قليلاً

* * *

إن الذي خلق الحقيقة علقماً
لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً
ولربما قتل الغرام رجالها
قتل الغرام ، كم استباح قتيلاً
أو كل من حامى عن الحق أقتنى
عند السواد ضغائنًا ودُحولا
لو كنتُ أعتقدُ الصليبَ وخطبهُ
لأُقيمتُ من صلب المسيح دليلاً

38 39

أُعلمي الوادي وساسة نشئه
والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين ، إذا دُعوا ليُعلِّموا ،
عبء الأمانة فادحاً مسؤولاً

كانت لنا قدمٌ إليه خفيفةٌ
 ورمت بدنلوبٍ فكا الفيلا
 حتى رأينا مصر تخطو إصبعاً
 في العلم ، إن مشى الممالك ميلا
 تلك الكفورُ وحشوها أُميَّةُ
 من عهد «خوفو» لم تر القنديلا
 تجدُ الذين بنى «المسلة» جدُّهم
 لا يحسنون لإبرة تشكيلا
 ويدللون إذا أريد قيادُهم
 كالْبُهْمِ تأنس إذ ترى التدليلا
 يتلو الرجال عليهم شهواتهم
 فالناجحون أَلْذَمُّهم ترتيلا
 الجهل لا تحيا عليه جماعةُ
 كيف الحياة على يدي عزريلا ؟
 والله لولا أَلْسَنُ وقرائحُ
 دارت على فِطْنِ الشَّبابِ شمولا

وتعهدت من أربعين نفوسهم
تغزو ألقنوط وتغرس التأميلا
عرفت مواضع جذبهم فتتابع
كالعين فيضاً والغمام مسيلا
تسدي الجميل إلى البلاد وتستحي
من أن تكافأ بالثناء جميلا
ما كان دنلوب ولا تعليمه
عند الشدائد يغنيان فتيلا

* * *

ربُّوا على الإنصافِ فتيانِ الحمي
تجدوهم كهف الحقوق كهولا
فهو الذي يبني الطباع قويمة
وهو الذي يبني النفوس عدولا
ويقيم منطق كل أعوج منطق
ويريه رأياً في الامور أصيلا

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة
 جاءت على يده البصائر حولا
 وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى
 ومن الغرور فسمه التضييلا
 وإذا أُصيب القوم في أخلاقهم
 فأقم عليهم ماتماً وعويلا
 إني لأعذرکم وأحسب عبئكم
 من بين أعباء الرجال ثقيلًا
 وجد المساعد غيركم وحرمتهم
 في مصر عون الامهات جليلا
 وإذا النساء نشأن في أمية
 رضع الرجال جهالة وخمولا
 ليس اليتيم من انتهى أبواه من
 هم الحياة ، وخلفاه ذليلا
 فأصاب بالدنيا الحكمة منهما
 وبحسن تربية الزمان بديلا !
 إنَّ اليتيم هو الذي تلقى له
 أمًّا تخلت ، أو أباً مشغولا

مصرٌ إذا ما راجعتُ أيامها
 لم تلقِ للسبتِ العظيمِ مثيلاً
 (البرلمان) غداً يمدُّ رواقه
 ظلاً على الوادي السعيدِ ظليلاً
 نرجو إذا التعليمُ حركَ شجوه
 ألا يكون على البلادِ بخيلاً
 قل للشباب : اليومَ بُوركَ غرسُكم
 دنتِ ألقُطُوفُ وذُللتْ تذليلاً
 حيوا من الشهداءِ كلَّ مغيبٍ
 وضعوا على أحجارِهِ إكليلاً
 ليكون حظُّ الحيِّ من شُكرانكم
 جماءً، وحظُّ الميتِ منه جزيلاً
 لا يلمسُ الدستورُ فيكم روحه
 حتى يريَ جُنْدِيَه المجهولاً
 ناشدكم تلكَ الدماءُ زكيَّةً
 لا تبعثوا للبرلمانِ جهولاً

فليَسْأَلَنَّ عَنِ الْأَرَائِكِ سَائِلٌ
 أَحْمِلْنَ فَضْلًا أَمْ حَمِلْنَ فَضُولًا
 إِنْ أَنْتَ أَطْلَعْتَ الْمَثْلَ نَاقِصًا
 لَمْ تَلَقَ عِنْدَ كَمَالِهِ التَّمْثِيلًا
 فَادْعُوا لَهَا أَهْلَ الْأَمَانَةِ وَاجْعَلُوا
 لِأُولَى الْبَصَائِرِ مِنْهُمْ التَّفْضِيلًا
 إِنْ الْمَقْصُرُ قَدْ يَحُولُ وَلَنْ تَرَى
 لَجْهَالَةِ الطَّبَعِ الْغَيْبِ مُحِيلًا
 فَلَرَبَّ قَوْلٍ فِي الرِّجَالِ سَمِعْتُمْ
 ثُمَّ انْقَضَى فَكَأَنَّهُ مَا قِيلَا
 وَلَكُمْ نَصْرَتُمْ بِالْكَرَامَةِ وَالْهَوَى
 مِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ هُوَ الْمَخْذُولَا
 كَرُمٌ وَصَفْحٌ فِي الشَّبَابِ وَطَالَمَا
 كَرُمَ الشَّبَابُ شَمَائِلًا وَمِيْلَا
 قَوْمُوا اجْمَعُوا شُعْبَ الْأَبْوَةِ وَارْفَعُوا
 صَوْتَ الشَّبَابِ مُحِبِّيًا مَقْبُولَا

ما أبعدَ الغاياتِ إلا أني
أجدُ الثباتَ لكم بهنَّ كفيلاً
فَكُلُّوا إلى اللهِ النجاةَ وثابِروا
فإنَّ خيرٌ كافلاً ووكيلاً

أيها النيل^(١)

من أي عهدٍ في القرى تتدفقُ
وبأي كَفٍّ في المَدائنِ تُغدِقُ
وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلَتْ أُمٌّ فُجِّرَتْ مِنْ
عُلْيَا الْجَنَانِ جَدَاوِلًا تَتَرَقَّرُ
وبأي عَيْنٍ أُمٌّ بَأْيَةٍ مُزَنَةٌ
أُمٌّ أَيُّ طُوفَانٍ تَفِيضُ وتَفْهَقُ (٢)
وبأي نَوْلٍ أَنْتِ نَاسِجٌ بُرْدَةٌ
لِلضَفْتَيْنِ جَدِيدُهَا لَا يَخْلَقُ (٣)
تَسْوَدُ دِيبَاجًا إِذَا فَارَقَتْهَا
فَإِذَا حَضَرَتْ اخْضَوْضَرَ الْإِسْتَبْرَقُ (٤)

(١) راجع في فصل المختارات من نثر شوقي: (رسالة شوقي إلى الأستاذ مر جيلوت)

(٢) المزنة : السحابة الماطرة - تفهق : تمتلئ وتفيض

(٣) بردة : ثوب - يخلق : يبلى

(٤) اخضوضر الاستبرق : أصبح الحرير اخضر اللون.

فِي كُلِّ آوِنَةٍ تَبَدَّلُ صِبْغَةً
 عَجَبًا ، وَأَنْتَ الصَّابِغُ الْمُتَأَنِّقُ
 أَنْتِ الدُّهُورُ عَلَيْكَ مَهْدُكَ مُتَرَعٌ
 وَحِياضُكَ الشَّرْقُ الشَّهِيَّةُ دَفَقُ
 تَسْقِي وَتُطْعِمُ ، لَا إِنْأُولُكَ ضَائِقُ
 بِالْوَارِدِينَ ، وَلَا خَوَانُكَ يَنْفِقُ
 وَالْمَاءُ تَسْكِبُهُ فَيَسْبُكُ عَسْجَدًا
 وَالْأَرْضُ تُغْرِقُهَا فَيَحْيَا الْمَغْرَقُ
 تَعْيِي مَنَابِعَكَ الْعُقُولَ وَيَسْتَوِي
 مُتَخَبِّطُ فِي عِلْمِهَا وَمُحَقِّقُ
 أَخْلَقْتَ رَاوُوقَ الدُّهُورِ وَلَمْ تَزَلْ
 بِكَ حَمَاءَةٌ كَالْمَسْكِ لَا تَتَرَوَّقُ
 حَمْرَاءُ فِي الْأَحْوَاضِ إِلَّا أَنْهَا
 بِيضَاءُ فِي عُنُقِ الثَّرَى تَتَأَلَّقُ
 دِينَ الْأَوَائِلِ فِيكَ دِينَ مُرْوَعَةٍ
 لِمَ لَا يُؤَلِّهُ مَنْ يَقُوتُ وَيَرْزُقُ
 لَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا يُؤَلِّهُ لَمْ تَكُنْ
 لِسَوَاكَ مَرْتَبَةُ الْأُلُوهَةِ تَخْلُقُ

جعلوا الهوى لك والوقار عبادةً
 إِنَّ العِبادَةَ خَشْيَةٌ وتعلُّق
 دانوا ببحرٍ بالمكارم زاهر
 عَذْبُ المِشارِعِ مَدَّةٌ لَا يُلْحَقُ
 مُتَقَيِّدٌ بِعَهْدِهِ وَوَعْدِهِ
 يَجْرِي عَلَى سَنَنِ الوَفَاءِ وَيَصْدُقُ
 يَتَقَبَّلُ الوَادِي الحَيَاةَ كَرِيمَةً
 مِنْ رَاحَتِكَ عَمِيقَةً تَتَدَقَّقُ
 مُتَقَلِّبُ الجَنِينِ فِي نَعْمَائِهِ
 يَغْرَى وَيُصْبِغُ فِي نَدَاكَ فَيُورِقُ
 فَيَبِيتُ خَضْباً فِي ثَرَاهُ وَنِعْمَةً
 وَيُعَمُّهُ مَاءُ الحَيَاةِ المَوْسِقُ
 وَإِلَيْكَ بَعْدَ اللَّهِ يَرْجِعُ تَحْتَهُ
 مَا جَفَّ أَوْ مَا مَاتَ أَوْ مَا يَنْفَقُ

* * *

أَيْنَ الْفِرَاعْنَةُ الْأُلَى أَسْتَذِرِي بِهِمْ
 (عيسي) و (يوسف) و (الكليم) المصعقُ

الموردون الناس منهل حكمة
 أفضي إليه الأنبياء لِيَسْتَقُوا
 الرافعون إلى الضحي آباءهم
 فالشمس أصلهمو الوضيء المعرق
 وكأنما بين البلى وقبورهم
 عهدٌ على أن لا مساس وموثق
 فحجابهم تحت الثرى من هيبة
 كحجابهم فوق الثرى لا يخرق
 بلغوا الحقيقة من حياة علمها
 حجبٌ مكثفٌ وسرٌّ مغلق
 وتبينوا معني الوجود فلم يروا
 دون الخلود سعادةً تتحقق
 يبنون للدنيا كما تبني لهم
 خرباً غراب البين فيها ينشق
 فقصورهم كوخٌ وبيت بداوة
 وقبورهم صرحٌ أشمٌ وجوسق
 رفعوا لها من جندل وصفائح
 عمداً فكانت حنطاً لا ينتق (١)

(١) ينتق : يتزعزع .

تتشايع الدَّاران فيه فما بدا
 دنيا ، وما لم يبد أُخرى تصدق
 للموتِ سرٌّ تحتَه وجِداره
 سور على السِّرِّ الخفيِّ وخندق
 وكأنَّ منزلهم بأعماقِ الثَّرَى
 بين المحلّة والمحلّة فندق
 موفورةٌ تحت الثَّرَى أزوادهم
 رَحْبٌ بهم بين الكهوف المطبق

* * *

ولن هياكل قد علا الباني بها
 بين الثَّرَى والثَّرَى تنسّق
 منها المشيّد كالبروج وبعضها
 كالطَّودِ مضطجِعٌ أَشْمٌ منطَق
 جدّدٌ كأوّلِ عهدِها وحيالها
 تتقادم الأرض الفضاء وتعتق
 من كلّ ثِقْلٍ ، كاهل الدنيا به
 تعبٌ ووجه الأرض عنه ضيق

عالٍ على باع البلى لا يهتدي
 ما يعتلي منه وما يتسلق
 متمكّن كالطود أصلاً في الثرى
 والفرع في حرم السماء محلّق
 هي من بناء الظلم إلا أنه
 يبيض وجه الظلم منه ويشرق
 لم يرهق الأمم الملوك بمثلها
 فخراً لهم يبقى وذكراً يعبق
 فتنت بشطّيك العباد فلم يزل
 قاصٍ يحجّهما ودانٍ يرمق
 وتضوّعت مسك الدّهور كأنما
 في كل ناحية بخورٌ يحرق
 وتقابلت فيها على السرّ الدّمى
 مسترديات الذل لا تتفتّق
 عطّلت وكان مكانهنّ من الأعلى
 (بالمقيس) تقبّس من حلاه وتسرق
 وعلا عليهنّ التراب ولم يكن
 يزكو بهنّ سوى العبير ويلبّق

حُجَرَاتُهَا مَوْطُوءَةٌ وَسُتُورُهَا
 مَهْتُوكَةٌ بِيَدِ الْبَلْبَلِ تَتَخَرَّقُ
 أَوْدَىٰ بُزِينَتُهَا الزَّمَانُ وَحُلِيِّهَا
 وَالْحَسَنُ بَاقٍ وَالشَّبَابُ الرِّيقُ
 لَوْ رَدَّ فِرْعَوْنُ الْغَدَاةَ لِرَاعِهِ
 أَنَّ الْغَرَانِيقَ الْعُلَى لَا تَنْطِقُ
 خَلَعَ الزَّمَانُ عَلَى الْوَرَى أَيَّامَهُ
 فَإِذَا الضُّحَىٰ لَكَ حَصَّةٌ وَالرُّونُقُ
 لَكَ مِنْ مَوَاسِمِهِ وَمِنْ أَعْيَادِهِ
 مَا تَحْسَرُ الْأَبْصَارُ فِيهِ وَتَبْرُقُ

* * *

لَا (الْفُرْسُ) أُوتُوا مِثْلَهُ يَوْمًا وَلَا
 (بَغْدَادُ) فِي ظِلِّ (الرَّشِيدِ) وَ (جَلَّتْ)
 فَتَحَ الْمَمَالِكُ أَوْ قِيَامِ (العَجَلِ) أَوْ
 يَوْمُ الْقُبُورِ أَوْ الزَّفَافُ الْمَوْنِقُ
 كَمْ مَوْكِبٍ تَتَخَايَلُ الدُّنْيَا بِهِ
 يُجَلَى كَمَا تُجَلَى النُّجُومُ وَيُنْسَقُ

(فرعون) فيه من الكتابِ مُقبل
 كالسُّحْبِ قرن الشمس منها مُفتِق
 تَعْنُو لِعَزَّتِهِ الوجوهُ ووجهه
 للشمس في الآفاق عانٍ مُطْرِق
 آبت من السفر البعيدِ جنودهُ
 وأتته بالفتح السعيدِ الفيلق
 ومشى الملوكُ مُصفِّدين ، خدودهم
 نعلٌ لفرعونَ العظيم ونمرق
 مملوكهُ أعناقهم ليمينه
 يَأْبَى فيضربُ أو يمنُ فيَعْتِقُ
 ونجيبهُ بينَ الطفولةِ والصِّبا
 عذراء تَشْرِبُهَا أَلْقُلُوبُ وتعلق
 كانَ الزَّفَافُ إِلَيْكَ غَايَةً حَظًّا
 والحظ إن بلغ النهاية مُوبِق
 لاقيتَ أعراساً ولاقتَ مآتماً
 كالشيخِ يَنْعَمُ بالفتاة وتزهق
 في كلِّ عامٍ دُرَّةٌ تُلقَى بِبِلا
 ثَمَنٍ إِلَيْكَ وحرّةٌ لا تُصدَق

حَوْلُ تَسَائِلُ فِيهِ كُلُّ نَجِيبَةٍ
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ مَتَى 'يَحُولُ فَتَلْحَقْ
 وَالْمَجْدُ عِنْدَ الْغَانِيَاتِ رَغِيبَةٍ
 يُبْغِي 'كَمَا يُبْغِي 'الْجَمَالَ وَيُعْشَقُ
 إِنْ زَوْجُوكَ بِهِنَّ فَهِيَ عَقِيدَةٌ
 وَمِنْ الْعَقَائِدِ مَا يَلْبُ وَيَحْمَقُ
 مَا أَجْمَلَ الْإِيمَانَ لَوْلَا ضَلَّةُ
 فِي كُلِّ دِينٍ بِالْهُدَايَةِ تَلْصَقُ
 زَفَّتْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ يَحْثُهَا
 دِينَ وَيُدْفَعُهَا هَوًى وَتَشَوَّقُ
 وَلرَبَّمَا حَسَدَتْ عَلَيْكَ مَكَانَهَا
 تَرِبُّ تَمْسَحُ بِالْعُرُوسِ وَتُحْدِقُ
 مَجْلُوءَةٌ فِي أَلْفُلِكَ بِحُدُودِ فَلَكِهَا
 بِالشَّاطِئَيْنِ مُزْغَرِدٌ وَمُصَفَّقٌ
 فِي مِهْرَجَانٍ هَزَّتِ الدُّنْيَا بِهِ
 أَعْطَافُهَا وَاخْتَالَ فِيهَا الْمَشْرِقُ
 فَرْعُونُ تَحْتَ لِيَوَائِهِ ، وَبَنَاتُهُ
 يَجْرِي بِهِنَّ عَلَى السَّفِينِ الزُّورَقُ

حتيٰ إذا بلغت مواكبها المديٰ^١
وجرى لغايته القضاء الأسبق

وكسا سماء المهرجان جلاله
سيفُ المنية وهو صلتٌ يبرقُ

وتلَفَّتْ في أليمٍ كل سفينة
وانشال بالوادي الجموعُ وحدقوا

ألقت إليك بنفسها ونفيسها
وأنتك شيقة حواها شيقُ

خلعت عليك حياءها وحياتها
أأعز من هذين شيءٌ يُنفقُ

وإذا تناهي الحبُّ وأتفق الفديٰ^١
فالروح في باب الضحية أليق

ما العالمُ السفليُّ إلا طينة
أزليّة فيه تضيء وتُغسق

هي فيه للخضب العميم خميرة
يندى بما حملت إليه ويبثق

ما كَانَ فِيهَا لِلزِّيَادَةِ مَوْضِعٌ
 وَإِلَى حِمَاهَا النِّقْصُ لَا يَتَطَرَّقُ
 مُنْبِئَةً فِي الْأَرْضِ تَنْتَظِمُ الْثَرَى
 وَتَنَالُ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَتَعْلَقُ
 مِنْهَا الْحَيَاةُ لَنَا وَمِنْهَا ضِدُّهَا
 أَبَدًا نَعُودُ لَهَا ، وَمِنْهَا نُخْلَقُ
 وَالزَّرْعُ سَنِبْلَهُ يُصِيبُ وَحَبُّهُ
 مِنْهَا فَيُخْرِجُ ذَا وَهَذَا يُفْلَقُ
 وَتَشْدُ بَيْتَ النَحْلِ فَهُوَ مُطَنَّبٌ
 وَتَمْدُ بَيْتَ النَّمْلِ فَهُوَ مُرَوَّقٌ .
 وَتَظَلُّ بَيْنَ قُوَى الْحَيَاةِ جَوَائِلًا
 لَا تَسْتَقَرُّ دَوَائِلًا ، لَا تَمُحَقُ
 هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْقَدِيرِ وَرُوحِهِ
 فِي الْكَائِنَاتِ وَسِرِّهِ الْمُسْتَعْلَقِ
 فِي النَّجْمِ وَالْقَمَرَيْنِ مَظْهَرُهَا إِذَا
 طَلَعَتْ عَلَى الدُّنْيَا وَسَاعَةً تَخْفُقُ

والذُرُّ والصَّخْرَاتُ مِمَّا كَوَّرَتْ
والفَيْلُ مِمَّا صَوَّرَتْ وَالْخِرْنَقُ
فَتَنَّتْ عَقُولَ الْأَوَّلِينَ فَأَلَّهُوا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَرُوعُ وَيَخْرَقُ
سَجَدُوا لِلْمَخْلُوقِ وَظَنُّوا خَالِقاً
مَنْ ذَا يَمِيزُ فِي الظُّلَامِ وَيَفْرُقُ
دَانَتْ (بَابِيسَ) الرَّعِيَّةُ كُلُّهَا
مَنْ يَسْتَغْلُ الْأَرْضَ أَوْ مَنْ يَعْرِقُ
جَاءُوا مِنَ الْمَرْعَى بِهِ يَمْشِي كَمَا
تَمْشِي وَتَلْتَفَتِ الْمِهَادُ وَتَرَشَّقُ
دَاجٍ كَجَنَحِ اللَّيْلِ زَانَ جَبِينَهُ
وَضَحَّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَهْلَةِ أَشْرَقُ
الْعَسَجْدُ الْوَهَّاجُ وَشَيْ جَلَالِهِ
وَالْوَرْدُ مُوْطِيءٌ خَفَّهَ وَالزَّنْبَقُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ بَعْدَ طَوْلِ عِبَادَةٍ
يُوتِي بِهِ حَوْضُ الْخُلُودِ فَيُغْرَقُ

ياليت شعري هل أضاعوا العهد أم
 حَذَرُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ وَأَشْفَقُوا
 قَوْمٌ وَقَارُ الدِّينِ فِي أَخْلَاقِهِمْ
 وَالشَّعْبُ مَيَّاعَتَادٌ أَوْ يَتَخَلَّقُ
 يَدْعُونَ خَلْفَ السُّتْرِ آلِهَةً لَهُمْ
 مَلَأُوا النَّدَى جَلَالَةً وَتَأَبَّقُوا
 وَاسْتَحْجَبُوا الْكُهَانَ ، هَذَا مُبْلَغٌ
 مَا يَهْتَفُونَ بِهِ وَذَاكَ مُصَدِّقٌ
 لَا يَسْأَلُونَ إِذَا جَرَتْ أَلْفَاظُهُمْ
 مِنْ أَيْنَ لِلْحَجَرِ اللِّسَانُ الْأَذْلَقُ
 أَوْ كَيْفَ تَخْتَرِقُ الْغُيُوبَ بِهَيْمَةٍ
 فِيمَا يَنْوِبُ مِنَ الْأُمُورِ وَيَطْرُقُ
 وَإِذَا هُمُ حَجُّوا الْقُبُورَ حَسْبَتُهُمْ
 وَفَدَ (الْعَتِيقُ) بِهِمْ تَرَامِي الْأَيْنِقِ
 يَأْتُونَ (طِيبَةً) بِالْهَدْيِ أَمَامَهُمْ
 يَغْشَى الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى وَيُطَبِّقُ
 فَالْبَرُّْ مَشْدُودُ الرُّوَا حُلٍ مُحَدَّجٍ
 وَالْبَحْرُ مَمْدُودُ الشَّرَاعِ مُوسَقٌ

حتى إذا ألقوا بهيكلها العصاً
 وفؤا النذور وقربوا وأصدّقوا
 وجرت زوارق بالحجيج كأنها
 رُقْط تَدَافِعُ أو سهام تمرُق
 من شاطيءٍ فيه الحياة لشاطيءٍ
 هو مضجع للسابقين ومرفق
 غربوا غروب الشمس فيه واستوى
 شاهٌ ورخٌ في التراب وبیدق (١)
 حيث القبور على الفضاء كأنها
 قِطْعُ السحاب أو السَّرَاب الدَّيْسِق (٢)
 للحق فيه جولةٌ وله سناً
 كالصبح من جنباتها يتفلق
 نزلوا بها فمشى الملوك كرامة
 وجثا المدل بماله والمملق
 ضاقت بهم عرصاتهم فكأنما
 ردت ودائعها الفلاة الفيهق

(١) بیدق : قطعة شطرنج .

(٢) الدبسق : بياض السَّرَاب .

وتنادمَ الأحياءُ والموتى بها
فكأنهم في الدهر لم يتفرقوا

* * *

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ونباتها حسنٌ عليك مُخلَقٌ
وُلدت فكنت المهْدِثُ ترعرعت
فأظلمها منك الحفيُّ المُشفِقُ
ملأت دياركَ حكمةً ، ماثورها
في الصَّخرِ والبردي الكريم منبَقُ
وبنت بيوت العلم بادخة الذري
يسعى لهنَّ مغربٌ ومشرقُ
واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
وبناء أخلاق يطول ويشهقُ
مهَّدَ السبيلَ لكل دينٍ بعده
كالْمسك رِيَّاه بأخرى تُفتقُ
يدعو إلى برٍّ ويرفع صالحاً
ويعاف ما هو للمروءة مخلِقُ

للناس من أسرارهِ ما علِّموا
 ولشُعبة الكهنوت ما هو أعمق
 فيه محلٌّ للأقانيم العُلى
 ولجامع التوحيد فيه تعلقُ
 تابوتُ موسى لا تزالُ جلالُهُ
 تبدو عليك له ورِيًّا تُنشَقُ
 وجمالُ يوسف لا يزالُ لِواوِهِ
 حولِكَ في أفق الجلال يُرنقُ
 ودموعُ إخوته رسائلُ توبةٍ
 مَسْطورهَنَّ يشاطئك مُنمَقُ
 وصلاةُ مريم فوق زرعك لم يزل
 يزكو لذكراها النبات وَيَسْمُقُ
 وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً
 بركاتُ ربك والنعيم الغَيْدَقُ
 وودائعُ (الفاروق) عندك دِينُهُ
 ولواوُهُ وبيانه والمنطق

بعث الصحابة يحملون من الهدى
 والحق ما يحيي العقول ويفتق
 ففتحُ الفتوح من الملائك رزْدق
 فيه ومن (أصحاب بدر) رزْدق (١)
 يبنون لله الكنانة بالقنا
 والله من حول البناء موفّق
 أحلاسُ خيلٍ بيدٍ أنّ حسامهم
 في السلم من حذرِ الحوادث مقلق
 تطوي البلاد لهم وينجد جيشهم
 جيش من الأخلاق غازٍ مورِق
 في الحقِّ سلٌّ وفيه أغمد سيفهم
 سيف الكريم من الجهالة يفرّق
 والفتحُ بغِيٌّ لا يهون وقعه
 إلاّ العفيف حسامه المترفق
 ما كانت «الفسطاطُ» إلا حائطاً
 يأوي الضعيفُ لركنهِ وأمرهق
 وبه تلوذ الطيرُ في طلب الكري
 وببيت «قيصر» وهو منه مورِق

(١) رزْدق : صف الناس

«عمرؤ» على شُطْبِ الحَصِيرِ مُعَصَّبٍ
بِقِلَادَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ مَطَوَّقٌ

يدعو له «الحاخام» في صلواته
(موسى) ويسأل فيه عيسى البطرق

يانيل أنت بطيب مانعت «الهدى»
وبمِدْحَةٍ (التوراة) أخرى أخلق

وإليك يُهْدِي الحمد خلق حازهم
كنفٌ على مر الدهور مُرَهَّقٌ
كنفٌ «كمنعٍ» أو كساحة «حاتمٍ»
خَلَقٌ يودِّعه وخلق يَطْرُقُ

وعليك تُجلى من مصونات النهى
خودٌ عرائس خدرهنَّ المهرق
الدرّ في لَبَّاتهنَّ منظم
والطيبُّ في حَبَرَاتهنَّ مرقق

لي فيك مدحٌ ليس فيه تكلفٌ
أملاه حبٌّ ليس فيه تملُّقٌ

مَّا يَحْمِلُنَا الْهَوَى لَكَ أَفْرَحُ
سنطير عنها وهي عندك ترزق
تهفو إليهم في التراب قلوبنا
وتكادُ فيه بغير عرق تخفق
تُرجى لهم ، والله جلَّ جلاله
منا ومنك بهم أبرُّ وأرفقُ
فاحفظ ودائعك التي استودعَتهَا
أَنْتَ الْوَفِيُّ إِذَا أُوتِيتَ ، الْأَصْدَقُ
لِلْأَرْضِ يَوْمٌ ، وَالسَّمَاءِ قِيَامَةٌ
وقيامةُ الوادي (١) غداة تحلَّقُ (٢)

(١) الوادي: وادي النيل
(٢) تحلَّق: تجفّ

ضجيج الحجيج

ضجَّ الحِجَازُ وضجَّ البيت والحرم
واستصرخت ربها في مكَّة الأمم (١)
قد مسَّها في حنَّاء الضرِّ فاقض لها
خليفةَ الله أنتَ السَّيِّدُ الحَكَمُ
لك الربوع التي ريع الحجيج بها
أَللَّشَرِيفِ عليها أم لكَ العلم ؟
أهين فيها ضيوفُ الله واضطَّهدوا
إن أنت لم تنتقم فالله منتقم
أفي الضُّحى وعيونُ الجندِ نازرةُ
تُسبِّي' النَّسَاءِ ويوذى الأهل والحشم
ويُسفكُ الدَّمُ في أرضٍ مقدَّسةٍ
وتستباحُ بها الأعراضُ والحُرَمُ

(١) رفعت هذه القصيدة الى السلطان عبد الحميد . استصراخاً من الشريف
وأعوانه في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٠٤ .

يد الشريف على أيدي الولاة علت
ونعله دون ركن البيت تُستلم

«نيرون» إن قيس في باب الطغاة به
مبالغ فيه «والحجاج» متهم

أدبه ، أدب أمير المؤمنين ، فما
في العفو عن فاسق فضل ولا كرم

لا ترج فيه وقاراً للرسول فما
بين البغاة وبين المصطفى رحم

ابن الرسول فتى ، فيه شمائله
وفيه نخوته والعهد والشمم

ما كان طه لرهط الفاسقين أباً
آل النبي بأعلام الهدى ختموا

خليفة الله شكوى المسلمين رقت
لسدة الله بل ترقى لك الكلم ؟

الحج ركن من الإسلام نُكبره
واليوم يوشك هذا الركن ينهدم

من الشريف ومن أعوانه فعلت
 نُعمى الزيادة ما لا تفعل النقم
 عزَّ السبيل إلى طه وتربته
 فمن أراد سبيلاً فالطريق دم
 محمدٌ رُوِّعَتْ في الْقَبْرِ أعظمه
 وبات مستأمناً في قومه الصنم
 وخان «عون الرفيق» العهد في بلدٍ
 منه العهود أتت للناس والذمم
 قد سال بالدم من ذبح ومن بشرٍ
 واحمرَّ فيه الحمي والأشهرُ الحرم
 وفُزَّعَتْ في الْخُدُورِ الساعياتُ له
 الداعياتُ وقربُ الله مغتنم
 آبت ثكالى أيامي بعدما أخذت
 من حولهنَّ النوى والأينق الرسم
 حرِّمن أنوارَ خيرِ الخلق من كُثب
 فدمعنَّ من الحرمان منسجم
 أيُّ الصغائر في الإسلام فاشية
 تُودى بأيسرها الدُّولات والأُمم

يَجِيشُ صَدْرِي وَلَا يَجْرِي بِهَا قَلَمِي
وَلَوْ جَرَى لَبَكَّى^١ وَاسْتَضَحَكَ الْقَلَمُ
أَغْضَيْتُ ضَنْأًا بَعْرُضِي أَنْ أَلَمَّ بِهِ
وَقَدْ يَرُوقُ الْعَمَى لِلْحَرِّ وَالصَّمَمِ
مَوَّةً عَلَى النَّاسِ ، أَوْ غَالِطِهِمْ عِبْثًا
فَلَيْسَ تَكْتُمُهُمْ مَا لَيْسَ يَنْكُتُمْ
مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْبُلْدَى^٢ وَإِنْ عَظُمَتْ
أَنْ يَعْلَمَ الشَّامِتُونَ الْيَوْمَ مَا عِلْمُوا
كُلَّ الْجِرَاحِ بِآلَامٍ فَمَا لَمَسْتُ
يَدَ الْعَدُوِّ فَتَمَّ الْجَرَحُ وَالْأَلَمُ
وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْهَا وَهِيَ دَامِيَةٌ
إِذَا أَسَاها لِسَانٌ لِلْعِدَى وَفَمُ

• • •

رَبِّ الْجَزِيرَةِ أَدْرِكْهَا فَقَدْ عِبِثَتْ
بِهَا الذَّنَابُ وَضَلَّ الرَّاعِي الْغَنَمَ
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا أَمْرَهَا ظَلَمُوا
وَالظُّلْمُ تَصْحَبُهُ الْأَهْوَالُ وَالظُّلْمُ

في كلِّ يوم قتال تقشعر له
 وفتنة في ربوع الله تضطرم
 أزرى الشريف وأحزاب الشريف بها
 وقسموها كإرث الميت وانقسموا
 لاتجزهم عنك حلماً واجزهم عنناً
 في الحلم ما يسم الأفعال أو يصم
 كفى الجزيرة ما جرّوا لها سفهاً
 وما يحاول من أطرافها العجم
 تلك الثغور عليها وهي زينتها
 مناهلٌ عذبت للقوم فآزدهموا
 في كل لجّ حوالبها لهم سفن
 وفوق كل مكان يابسٍ قدم
 والأهمُّ امرأء السوء واتفقوا
 مع العداة عليها فالعداة هم
 فجرّد السيف في وقتٍ يفيد به
 فإنّ للسيف يوماً ثم ينصرم

الرحلة الى الاندلس

اختلاف النهار والليل ينسي
اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصفا في ملاوة (١) من شباب
صوّرت من تصورات ومَس
عصفت كالصبا اللعوب ومرّت
سِنَّةً حُلُوَّةً وَلِسْذَةً خَلَسِ
وسلا مصرَ هل سلا القلبُ عنها
أو أَسَا جُرْحَه الزمان المؤتني
كَلَّمَا مرت الليالي عليه
رَقَّ والعهدُ في الليالي تُقَسِّي
مُسْتَطَار إِذَا البواخرُ رَنَّتْ
أَوَّلَ الليلِ أو عوت بعد جرس

(١) ملاوة : فترة من الزمان .

راهبٌ في الضلوع للسفن فطن
 كلما ثرن شاعهن بنقس
 يا أبنَةَ اليم ما أبوك بخيلٌ
 ما له مولعاً بمنعٍ وحبسٍ
 أحرام علي بلبله الدو
 حُ حلال للطير من كل جنس
 كلُّ دار أحق بالأهل إلا
 في خبيثٍ من المذاهب رجس
 نفسي مرجل وقلبي شرع
 بهما في الدموع سيري وأرسي
 واجعلي وجهك (الفنار) ومجرا
 لك يد (الثغر) بين (رمل) و (مكس)
 وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه
 نازعتني إليه في الخلد نفسي
 وهففا بالفؤاد في سلسبيلٍ
 ظمأً للسواد من (عين شمس)
 شهد الله لم يغب عن جفوني
 شخصه ساعة ولم يخلُ جسي

يُصْبِحُ الْفَكْرُ وَ (المسلة) نَاد
يَه وَ (بالسَّرْحَة الزَكِيَّة) يُمَسِي
وَكَأَنِّي أَرِي الْجَزِيرَةَ أَيْكاً
نَغَمَت طَيْرُهُ بِأَرْحَمِ جَرَس
هِيَ (بَلْقَيْسُ) فِي الْخَمَائِلِ صَرَحُ
مِنْ عِبَابٍ وَصَاحِبٌ غَيْرُ نِكْس
حَسْبَهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عَرَساً
قَبْلَهَا لَمْ يُجَنَّ يَوْمَاً بَعْرَس
لَيْسَتْ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشِي
بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي الثِّيَابِ وَقَس
قَدَّمَا النَّيْلَ فَاسْتَحَت فَتَوَارَتْ
مِنْهُ بِالْجَسْرِ بَيْنَ عُرِيٍّ وَلُبْس
وَأَرَى النَّيْلَ (كَالْعَقِيقِ) بَوَادِي
هَ وَإِنْ كَانَ كَوَثَرَ الْمُتَحَسِّي
ابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوَكِبِ الْفَخْمِ
الَّذِي يَحْسِرُ الْعَيُونَ وَيَخْشِي
لَا تَرَى فِي رِكَابِهِ غَيْرَ مَثْنٍ
بِجَمِيلٍ وَشَاكِرٍ فَضْلَ عَرَس

وأرى (الجيزة) الحزينة ثكلى
لم تفق بعد من مناحة (رمسي)
أكثرت ضجة السواقي عليه
وسؤال اليراع عنه بهمسٍ
وقيام النخيل ضفّر شعراً
وتجردن غير طوقٍ وسلس
وكانّ الأهرام ميزان فرعو
ن بيومٍ على الجبابر نحس
أو قناطره تأنق فيها
ألف جابٍ وألف صاحب مكس
روعة في الضحى ملاعب جنّ
حين يغشى الدّجى حماها ويغشي
و(رهين الرمال) أفطس إلاّ
أنّه صنع جنّة غير فطس
تنجلي حقيقة الناس فيه
سبعُ الخلق في أسارير إنسي
لعبَ الدّهر في ثراه صبيّاً
والبالي كواعباً غير عنس

رَكِبْتُ صَيْدُ الْمُقَادِيرِ عَيْنِيهِ
 لَنَقِيدُ وَمِخْلَبِيهِ لِفَرَسٍ
 فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ (كَسْرِي)
 (وَمِخْرَقَلَا) وَ (الْعَبْقَرِي الْفَرَنْسِي)
 يَأْفُوَادِي لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٍ
 فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
 عَقَلْتُ لَجَّةَ الْأُمُورِ عَقُولًا
 كَالْتِ الْحَوْتِ طُولَ سَبْحٍ وَغَسٍ
 غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يَصَاحُ بِطَافٍ
 أَوْ غَرِيقٌ وَلَا يَصَاحُ لِجِسٍ
 فَلَكَ يَكْسِفُ الشَّمْسُ نَهَارًا
 وَيَسُومُ الْبَدُورَ لَيْلَةً وَكَسٍ
 وَمَوَاقِيتُ لَلْأُمُورِ إِذَا مَا
 بَلَغْتَهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسِ
 دَوْلِ كَالرَّجَالِ مَرْتَهَنَاتِ
 بَقِيَامٍ مِنَ الْجُدُودِ وَتَغَسِ
 وَلِيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتِ سَوَارِ
 لَطَمْتُ كُلَّ رَبٍّ (رُومٍ) وَ (فَرَسٍ)

سَدَّدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْساً وَسَلَّتْ
خَنْجِراً يَنْفِذَانِ مِنْ كُلِّ تَرَسٍ
حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ (خَوْفُو) وَ(دَارَا)
وَعَفَتْ (وَأَسْلَأَ) وَأَلَوْتَ (بَعْبَسَ)
أَيْنَ (مِرْوَانُ) فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ
أُمُويٍّ وَفِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي
سَقَمَتِ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا
نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطْشُ
ثُمَّ غَابَتْ وَكُلَّ شَمْسٍ سَوَى هَاتِي
لَكَ تَبَلًى وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسٍ
وَعَظَ (الْبَحْتَرِي) إِيوَانَ (كَسْرَى)
وَشَفَتْنِي الْقُصُورُ مِنْ (عَبْدِ شَمْسٍ)
رُبَّ لَيْلٍ سَرِيَتْ وَالْبَرْقُ طَرْفِي
وَبِسَاطٍ طَوِيَتْ وَالرِّيحُ عَنَسِي
أَنْظِمَ الشَّرْقُ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْغُرِ
بِ وَأَطْوَى الْبِلَادَ حَزْناً لَدَهْسٍ
فِي دِيَارٍ مِنَ الْخُلَائِفِ دَرَسٍ
وَمِنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمَسِ

وَرُبِّي كَالْجَنَانِ فِي كَنْفِ الزَيْتُو
 نَ خَضِرٍ وَفِي ذِرَا الْكَرْمِ طُلُسُ
 لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرَى قَرْطَبِي
 لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
 يَا وَقَى' اللَّهُ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ
 وَسَقَى' صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أَمْسَى
 قَرِيبَةً لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ
 تَمْسُكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي
 غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمَحِيطِ وَغَطَّتْ
 لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شَرَاكِ وَقُلُسِ
 رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا
 فَآتَى' ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَلْسِ
 فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهِ
 هَا مِنْ أَلِيزٍ فِي مَنَازِلَ قُعْسِ
 مَا ضَفَّتْ قَطْ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَذِ
 لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِنَجْسِ
 وَكَأَنِّي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْنًا
 فِيهِ مَالُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسِ

قدساً في البلاد شرقاً وغرباً
 حَجَّهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِ وَقَسَّ
 وعلى الجمعةِ الجلالةِ و(النا
 صرُ) نور الخميس تحت الدّرفس
 يُنزل التاجَ عن مفارق (دونِ)
 ويُحلي به جبين (البرنس)
 سِنَّةً مِنْ كَرَى وَطِيفُ أَمَانِ
 وصحا القلبُ من ضلال وهَجَس
 وإذا الدارُ ما بها من أنيسِ
 وإذا القومُ ما لهم من مُحِسِّ
 ورقيقٍ من البيوت عتيقِ
 جاوزَ الألفَ غير مذموم حرس
 أثرٌ من (محمد) وتُراثُ
 صار (للروح) ذي الولاء الأمسِّ
 بَلَغَ النّجْمَ ذُرْوَةً وَتَنَاهَى
 بين (ثهلان) في الأساس و(قدس)
 مرمرٌ تسبحُ النواظر فيه
 ويَطُولُ المدى عليها فترسي

وَسَوَارٍ كَأَنَّهَا فِي أَسْتَوَاءٍ
 أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طُرُسٍ
 فِتْرَةُ الدَّهْرِ قَدْ كَسَتْ سَطْرِيهَا
 مَا اكْتَسَى الْهُدْبُ مِنْ فُتُورٍ وَنَعَسٍ
 وَيَحْهَى كَمْ تَزَيَّنْتَ لِعَلِيمٍ
 وَاحِدِ الدَّهْرِ وَأَسْتَعَدَّتْ لْخَمْسِ
 وَكَأَنَّ الرِّفِيفَ فِي مَشْرِحِ الْعِي
 مِنْ مِلَاءٍ مُدَثَّرَاتِ الدَّمَقْسِ
 وَكَأَنَّ الْآيَاتِ فِي جَانِبِيهِ
 يَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدُسٍ
 مِنْبَرٌ تَحْتَ (مُنْذِرٍ) مِنْ جَلَالٍ
 لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ (قُسٍ)
 وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُغْرِيكَ رِيًّا
 وَرَدَهُ غَائِبًا ، فَتَدْنُو لِلْمَسِ
 صَنْعَةِ (الدَّاحِلِ) الْمُبَارَكِ فِي الْغَرِ
 بٍ وَآلٍ لَهُ مِيَامِينَ شُمْسٍ

* * *

مَن (لحمراء) جُلِّتْ بَغْبَارِ الـ
 مَدَّهَر كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرٍّ وَنُكْسٍ
 كَسْنَا أَلْبَرْقَ لَوْ مَحَا الضَّوْءُ لِحْظًا
 لَمَحَتْهَا الْعْيُونُ مِنْ طَوْلِ قَبْسٍ
 حِصْنِ (غُرْنَاطَةِ) وَدَارُ بَنِي (الْأَحـ
 مَر) مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانِ نَدَسٍ
 جَلَّلَ الثَّلْجُ دُونَهَا رَأْسَ (شِيرِي)
 فَبَدَا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرَسٍ
 سَرْمَدٌ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرْ شَيْبًا
 قَبْلَهُ يُرْجِيءُ الْبَقَاءَ وَيُنْسِي
 مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ (الْحَمـ
 مَرَاءِ) مَشَى النِّعَى فِي دَارِ عَرَسٍ
 هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ
 سُدَّةَ أَلْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسٍ
 عَرَصَاتُ ثَلَّتْ الْخَيْلُ عَنْهَا
 وَأَسْتَرَا حَتَّ مِنْ أَحْتِرَاسٍ وَعِصْ
 وَمَغَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءُ
 لَمْ تَجِدْ لِلْعِشِيِّ تَكَرَّارَ مَسٍ

لا ترى غيرَ وافدين على التا
 ريخ ساعينَ في خشوع ونكس
 نقلوا الطرف في نضارة آسٍ
 من نقوشٍ وفي عصارة ورس
 وقيابٍ من لأزورد وتبر
 كالرُبي الشم بين ظل وشمس
 وخطوط تكفلت للمعاني
 ولألفاظها بأزين لبس
 وترى مجلس السباع خلاءً
 مقفر القاع من طباء وخنس
 لا (الثريا) ولا جوارى الثريا
 يتنزّلن فيه أقمار إنس
 مرمر قامت الأسود عليه
 كلة الظفر لينات المجس
 تنثر الماء في الحياض جماناً
 يتنزى على ترائب ملس
 آخر العهد بالجزيرة كانت
 بعد عرك من الزمان وخرس

فتراها ، تقولُ : رايةُ جيشٍ
 بادَ بالأمس بين أسيرٍ وحس
 ومفاتيحها مقاليدُ مُلكٍ
 باعها الوارثُ المضيعُ ببخس
 خرجَ القومُ في كتائبَ صُمُ
 عن حِفاءٍ كموكبِ الدفنِ خُرس
 ركبوا بالبحارِ نعثاً وكانت
 تحت آبائهم هي العرشُ أَمس
 ربَّ بانٍ لهادمٍ ، وجموعٍ
 لِمَشَتْ ، ومُحْسِنٍ لِمُخْسٍ
 إمرةُ الناسِ هِمَّةٌ لا تَأْتِي
 لَجَبَانٍ ولا تَسْنَى لِحَبَسٍ
 وإذا ما أَصابَ بنيانَ قومٍ
 وهيُ خُلِقَ فَإِنَّهُ وهيُ أُسُ
 يادياراً نزلتُ كالخلدِ ظِلاً
 وجني دانيلاً وسلسالِ أنس

محسناتِ الفصولِ لاناجرٍ في
 لها بقيظٍ ولا جمادى بقرس
 لاتحسُ العيونُ فوقَ رُباها
 غيرَ حورٍ ، حوِّ المراففِ لُغس
 كُسيَّتِ أفرُخي بظلك ريشاً
 ورباً في رباك واشتدَّ غرسي
 هم بنو مصر لا الجميلُ لديهم
 بمضاعٍ ولا الصنيعِ بمنسي
 من لسانٍ على ثنائك وقفٍ
 وجنانٍ على ولائك حبس
 حسبهم هذه الطُّلُولُ عِظَاتِ
 من جديدٍ على الدهورِ ودرُس
 وإذا فاتك التفات إلى الما
 ضي فقد غاب عنك وجهُ التَّأْسِي

نكبة دمشق

سَلامٍ مِنْ صَبَا (بَرَدَى) أَرَقُّ
وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكُ يَا دَمَشْقُ
وَمَعْدِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي
جَلَاءُ أَلْرُزِّ عَنْ وَصْفِ يَدِيقِ
وَذَكَرَى عَنْ خَوَاطِرِهَا لِقَلْبِي
إِلَيْكَ تَلَفْتُ أَبَدًا وَخَفَقْتُ
وَبِي مِمَّا رَمَتْكَ بِهِ اللَّيَالِي
جِرَاحَاتُ لَهَا فِي الْقَلْبِ عُمُقُ
دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ ائْتِلَاقُ
وَوَجْهُكَ ضَاحِكُ الْقِسَمَاتِ طَلَقُ
وَتَحْتَ جِئَانِكَ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
وَمِلْءُ رَبِّكَ أَوْرَاقُ وَوُرُقُ

وحولي فتيةٌ غرٌ صباح
 لهم في الفضل غاياتٌ وسبق
 على لهواتهم شعراءٌ لُسُنٌ
 وفي أعطافهم خطباءٌ شُذوق
 رواة قصائدي فاعجبُ لشعرٍ
 بكل محلّة يرؤيه خلق
 غمزتُ إِبَاءَهُمْ حتّى تَلَطَّتْ
 أنوفُ الأسدِ واضطرمَّ المَدَقُّ
 وضجَّ من الشكيمة كلُّ حرٍّ
 أبى من أُمَيَّةٍ فيه عِتق

* * *

لحاها الله أنباءً توالى
 على سمع الوليّ بما يشقُّ
 يُفصلُها إلى الدنيا بريدٌ
 ويُجملُها إلى الآفاق برق
 تكادُ لروعة الأحداث فيها
 تخال من الخرافة وهي صدق

وقيل معالمُ التاريخ دُكَّتْ
 وقيل أصابها تلفٌ وحرَق
 أَلَسْتُ، دِمَشقُ، لِلإِسْلامِ ظِئْرًا
 ومرضعة الأبوّة لا تعق
 صلاحُ الدّين تاجُك لم يُجمل
 ولم يُوسم بأزيّن منه فَرَق
 وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالت
 لها من سرحك العلوي عِرْق
 سماؤك من حلى الماضي كتابٌ
 وأرضك من حلى التاريخ رَقْ
 بنيت الدولة الكبرى وملكاً
 غبار حَضارتِيهِ لا يُشَقْ
 له بالشّامِ أعلامٌ وعرس
 بشائره باندلسٍ تدق

* * *

رباعُ الخلد ويحك مادهاها
 أحقُّ أنها درست أحق

وَهَلْ غُرِفُ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتُ
 وَهَلْ لِنَعِيمِهِنَّ كَأَمْسِ نَسَقُ
 وَأَيْنَ دُمَى الْمُقْصَاصِ مِنْ حِجَالِ
 مَهْتَكَةِ وَأَسْتَارِ تُشَقُّ
 بَرَزْنَ فِي نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ
 وَخَلْفَ الْأَيْكِ أَفْرَاحُ تُزَقُّ
 إِذَا رُمْنَ أَلْسَلَامَةً مِنْ طَرِيقِ
 أَتَتْ مِنْ دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقُ
 بَلِيلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
 وَرَاءَ سَمَائِهِ خُطْفُ وَصَعُ
 إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفْقُ
 عَلَى جَنَبَاتِهِ وَإِسْوَدَ أَفْقُ
 سَلِيٍّ مِنْ رَاعٍ غِيْدَكَ بَعْدَ وَهْنِ
 أَبْيَنَ فِؤَادِهِ وَالصَّخْرَ فَرَقُ؟
 وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلَانُوا
 قُلُوبُ كَالْحَجَارَةِ لَا تَرَقُّ
 رِمَاكِ بَطِيْشَهُ وَرَمَى فِرْنَسَا
 أَخُو حَرْبٍ بِهِ صَلَفُ وَحُمَقُ

إِذَا مَا جَاءَهُ طُلابُ حقٍّ

يقول عصابة خرجوا وشقوا

دَمُ الشُّوَارِ تعرفه فرنسا

وتعلم أنه نورٌ وحقٌ

جَرَى في أرضها : فيه حياةٌ

كمنهل السماء وفيه رزقٌ

بلادٌ ماتت فتيتها لتحيّا

وزالوا دون قومهم ليبيقوا

وحرّرت الشعوب على قناها

فكيف على قناها تُسرقُ

بني سوربةً أطرحوا الأمانى

وألّقوا عنكم الأحلامَ ألّقوا

فمن خدع السياسة أن تغرّوا

بالقصاب الإمارة وهي رقٌ

وكم صيّدٍ بدا لك من ذليلٍ

كما مالت من المصلوب عنق

فتوق الملك تحدّث ثم تمضي

ولا يمضي لمُختلفين فتفق

نَصَحْتُ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَاراً
وَلَكِنْ كُنَّا فِي الْهَمِّ شَرْق
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلَادُ
بَيَانَ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنَطَقُ
وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنْ رَمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشْتَقُوا
وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمِ كُلِّ حَرٍّ
يَدُ سَلَفٍ وَدَيْنٌ مُسْتَحَقُّ
وَمَنْ يَسْقِي وَيَشْرِبُ بِالْمَنَآيَا
إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا وَيَسْقَوْا؟
وَلَا يَبْنِي الْمَالُكَ كَالضَّحَايَا
وَلَا يُدْنِي الْحَقُوقَ وَلَا يُحَقُّ
فَفِي الْقَتْلِ لِأَجْيَالِ حَيَاةٍ
وَفِي الْأَسْرِ فِدْيٌ لَهُمْ وَعِتْقُ
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءُ بَابٌ
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

جَزَاكُمْ ذُو الْجَلَالِ بَنِي دِمَشْقٍ
وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوَّلُهُ دِمَشْقُ

نَصَرْتُمْ يَوْمَ مِحْنَتِهِ أَخَاكُمْ
وَكُلُّ أَخٍ بِنَصْرِ أَخِيهِ حَقٌّ
وَمَا كَانَ الدَّرُوزُ قَبِيلَ شَرٍّ

وَإِنْ أَخَذُوا بِمَا لَمْ يَسْتَعْقُوا
وَلَكِنْ ذَاذَةٌ وَقُرَاةٌ ضَيْفٌ

كَيْنَبُوعُ الصَّفَا خَشُنُوا وَرَقُّوا
لَهُمْ جَبَلٌ أَشَمُّ لَهُ شِعَافٌ

مَوَارِدُ فِي السَّحَابِ الْجُونِ بُلُقُ

لِكُلِّ لَبُوءَةٍ وَلِكُلِّ شِبْلٍ
نِضَالٌ دُونَ غَايَتِهِ وَرَشَقُ

كَأَنَّ مِنَ السَّمَوَاتِ فِيهِ شَيْئًا
فَكُلُّ جِهَانَةٍ شَرَفٌ وَخَلْقُ

الحرية الحمراء

في مهرجان الحق لَو يومِ الدمِ
مهجٌ من الشهداء لم تتكلم (١)
يبدو على هاتور نور دمائها
كندم الحسين على هلال محرم
يوم الجهاد بها كصدر نهاره
متمايل الأعطاف مبتسمُ الفم
طلعت تحج البيت فيه كأنها
زهر الملائك في سماء الموسم
لم لا تطل من السماء وإنما
بين السحاب قبورها والأنجم
ولقد شجاها الغائبون وراعها
ما حل بالبيت المضيء المظلم

(١) قيلت في احتفال بيوم ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر).

وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها
 عُرساً أُقيم على جوانب ماتم
 لا بدّ للحريرة الحمراء من
 سلوي ترقّد جرحها كالبلسم
 وتبسّم يعلو أسرتها كما
 يعلو فم الثكلي وثمر الأيّم
 يوم البطولة لو شهدت نهاره
 لنظمت للأجيال ما لم ينظم
 غُبت حقيقته وفات جمالها
 باع الخيال العبقريّ الملهّم
 لولا عوادي النفي أو عقباته
 والنفي حال من عذاب جهنم
 لجمعت ألوان الحوادث صورة
 مثّلت فيها صورة المستسلم
 وحكيت فيها النيلَ كاظم غيظه
 وحكيتَه متغيظاً لم يكظم
 دعت البلاد إلى الغمار فغامرت
 وطنيّةٌ بمثقف ومعلم

ثارت على الحامي العتيد وأقسمت
 بسواه جل جلاله لا تحتمي
 نشر الكنانة ربها وتخيرت
 يده لنصرتها ثلاثة أسهم
 من كل أعزل حقه بيمينه
 كالسيف في يمني الكمي المعلم
 لم يُحجموا في ساعة قد أظفرت
 ملك البحار بكل قيصر مُحجم
 وقفوا مطيَّهمو بسلم قصره
 والبأس والسلطان دون السلم
 وتقدموا حتى إذا ما بلَّغوا
 أوحوا إلى مصر الفتاة تقدَّمي
 سالت من الغاب الشبول غلا بها
 لبن اللبابة وهاج عرق الضيغم
 يوم النصال كستك لون جمالها
 حريرة صبغت أديمك بالسدم

أَصْبَحْتَ مِنْ غُرْرِ الزَّمَانِ وَأَصْبَحْتَ
ضَحَكَتْ أَسْرَةً وَجْهَكَ الْمُتَجَهِّمِ
وَلَقَدْ يُتِمَّتْ فَكَنْتَ أَعْظَمَ رَوْعَةٍ
يَالَيْتَ مِنْ «سَعْدٍ» الْحَمَى لَمْ تَيْتَمَ
لَيْنِمَ أَبُو الْأَشْبَالِ مَلَأَ جَفْوَنَهُ
لَيْسَ الشُّبُولُ عَنِ الْعَرِينِ بَنُومَ

* * *

يا فائح الطلح^(١)

يا نائح (الطلح) أشباهُ عَوادينا
نَشَجَى لِيَوَادِيكَ أَمْ نَأْسَى لَوَادِينَا ؟ (٢)
ماذا تقصُّ علينا غيرَ أَنَّ يَدًا
قَصَّتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا !
رمى بنا البينُ أَيْكاً غيرَ سَامِرِنا
أَخَا الْغَرِيبِ : وَظِلًّا غيرَ نَادِينَا
كلُّ رَمْتِهِ النُّوَى رِيشَ الْفِرَاقِ لَنَا
سَهْوًا ، وَسُلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنُ سَكِينَا
إِذَا دَعَا الشُّوقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ
مِنَ الْجَنَاحِينَ عَيٌّ لَا يَلْبِينَا
فَإِنْ يَكُ الْجَنَسُ يَا بَنَ الطَّلَحِ فَرَقْنَا
إِنْ الْمَصَائِبَ يَجْمَعُنَ الْمُصَابِينَا
لَمْ تَأَلْ مَاءَكَ تَحْنَانًا وَلَا ظَمًا
وَلَا أَدَّكَارًا ، وَلَا شَجْوًا أَفَانِينَا

(١) نظم شوقي هذه القصيدة في منفاه باسبانيا ، وقد ضمنها حنيفه الى وطنه ، ووصف فيها كثيراً من مشاهد ومعاهده .

(٢) الطلح : واد في ظاهر اشبيلية كان المعتمد بن عباد شديد التعلق به .

تَجْرُ من فَنَنْ ساقاً إلى فَنَنْ
 ونَسَحَبُ الذَّيْلَ تَرْتادُ الْمُؤاسِينَا
 أَسَاةُ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ
 فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ المداوِينَا! (١)

* * *

آهًا لَنَا نازِحِي أَيُّكَ بَأْنَدَلَسِ
 وإنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رِوَابِينَا (٢)
 رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ
 تَجِيشُ بِالْدمْعِ وَالْإِجْلَالِ يَثْنِينَا
 لِفِتْيَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمَعَهُمْ
 وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلِينَا
 لو لَمْ يَسُودُوا بَدِينٍ فِيهِ مَنبَهَةٌ
 لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
 لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ
 كَالظَمْرِ مِنْ (بَابِل) سَارَتْ (لِدَارِينَا)
 لَمَّا اْلُحُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نَسَخْتُهُ
 تَمَثَّلُ الْوَرْدُ (خَيْرِيًّا) وَ (نَسْرِينَا)

(١) النُّطْسُ: الأطباء (٢) الأيُّكُ الشجر الكثيف الملاف - الرفيف: الخصب.

نَسْقِي ثَرَاهِمَ ثَنَاءً ، كَلَمَّا نُثِرَتْ
دَمُوعُنَا نَظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عَيُونُ قَوَافِينَا تُحَرِّكُهُ
وَكَدَنَ يَوْقُظْنَ فِي التُّرْبِ السَّلَاطِينَا
لَكِنَّ مَصْرَ وَإِنْ أَغْضَتْ عَلَى مِقَّةٍ (١)
عَيْنٌ مِنَ الْخَلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِنُنَا
وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا
مَلَاعِبٌ مَرِحَتْ فِيهَا مَآرِبُنَا
وَأَرْبُعٌ أُنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا
وَمَطْلَعٌ لِسَعُودٍ مِنْ أَوَاخِرِنَا
وَمَغْرِبٌ لَجُودٍ مِنْ أَوَالِينَا
بِنَا فَلَمْ نَخْلُ مِنْ رَوْحٍ يُرَاوِحُنَا
مِنْ بَرِّ مَصْرٍ وَرِيحَانٍ يُغَادِينَا
كَأُمِّ مُوسَى ، عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفُلُنَا
وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تُلْقِينَا

(١) مِقَّة : حبة .

ومصرُ كالكرمِ ذي الإحسان: فأكهة .
لحاضرينَ وأَكْنَابُ لبادينا

* * *

ياساري البرقِ يرمي عن جوانحنا
بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما تَرَقَّرَقَ في دمع السماء دماً
هاج البكا فحَضَبْنَا الأرضَ باكِنا
الليلُ يشهدُ لم تهتِك دِياجِيه
على نِسامٍ ولم تهتف بسالينا
والنجمُ لم يرنا إلا على قدمٍ
قيامَ ليلِ الهوى للعهد راعينا
كزفرةٍ في سماء الليل حائرةٍ
مما نردّد فيه حين يُضوينا
بالله إن جُبَّتْ ظلماتُ أَلْعَابِ على
نجائب النور محدواً (بجرينا)
تَرَدُّ عنك يداه كلَّ عاديةٍ
إنساً يَعِثْنَ فساداً أو شياطينا

حَتَّى حَوْتُكَ سَمَاءَ النِّيلِ عَالِيَةً
 عَلَى الْغِيُوثِ وَإِنْ كَانَتْ مِيَامِينَا
 وَأَحْرَزْتُكَ شُفُوفَ اللَّازَوْرَدِ عَلَى
 وَشِي الزَّبْرِجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا
 وَحَازَكَ الرِّيفُ أَرْجَاءً مُورَجَّةً
 رَبَّتْ خُمَائِلَ وَاهْتَزَّتْ بَسَاتِينَا
 فَقِفْ إِلَى النِّيلِ وَأَهْتَفِ فِي خُمَائِلِهِ
 وَانْزِلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيحِينَا
 وَآسِ مَا بَاتَ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا
 بِالْحَادِثَاتِ وَيَضْوَى مِنْ مَغَانِينَا

* * *

وَيَا مُعْطَرَةَ أَلْوَادِي سَرَتْ سَحَرًا
 فَطَابَ كُلُّ طَرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
 ذَكِيَّةً الذَّيْلُ لَوْ خَلْنَا غِلَالَتَهَا
 قَمِيصَ يَوْسُفَ لَمْ نُحَسِّبْ مَغَالِينَا
 جَشِمْتَ شَوْكَ السُّرَى حَتَّى أَتَيْتَ لَنَا
 بِالْوَرْدِ كُتُبًا وَبِالرَّيَا عَنَاوِينَا

فلو جزيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً
 عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا
 هَلْ مِنْ ذُبُولِكَ مَسْكِيٌّ نَحْمَلُهُ
 غُرَائِبَ الشُّوقِ وَشَيْئاً مِنْ أَمَالِينَا
 إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرِهِمْ
 دُنْيَا وَوَدَّهِمُ الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

* * *

يَا مَنْ نَغَارُ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَمَائِرِنَا
 وَمِنْ مَصُونِ هَوَاهِمٍ فِي تَنَاجِينَا
 نَابَ الْحَنِينُ إِلَيْكُمْ فِي خَوَاطِرِنَا
 عَنْ الدَّلَالِ عَلَيْكُمْ فِي أَمَانِينَا
 جئْنَا إِلَى الصَّبْرِ نَدْعُوهُ كَعَادَتِنَا
 فِي النَّائِبَاتِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِأَيْدِينَا
 وَمَا غَلَبَنَا عَلَى دَمْعٍ وَلَا جَلْدٍ
 حَتَّى أَتَيْنَا نَوَاكِمَ مِنْ صِيَاصِينَا
 وَنَابِغِيٍّ كَأَنَّ الْحَشَرَ آخِرُهُ
 تَمِيتَنَا فِيهِ ذَكَرَاكُمْ وَتَحْيِينَا

نطوي دُجَاهَ بَجْرَحٍ من فراقِكُمُو
يَكَادُ في غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
إِذَا رَسَا النِّجْمُ لَمْ تَرْقَأْ مُحَاجِرُنَا
جَتِي يَزُولُ وَلَمْ تَهْدَأْ تَرَاقِينَا
بَتْنَا نَقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ
جَتِي قَعَدْنَا بِهَا: جَسْرِي تُقَاسِينَا
يَبْدُو النَّهَارُ فَيُخْفِيهِ تَجَلُّدُنَا
لِلشَّامَتَيْنِ وَيَأْسُوهُ تَأْسِينَا

* * *

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرَّبِّي رَفَةً
أَنَا ذَهَبْنَا وَأَعْطَافِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بَنَا غَيْنَاءُ زَاهِيَةً
تَرَفُّ أَوْقَاتِنَا فِيهَا رِيَاجِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ، وَالْعِيشُ نَاعِيَةٌ
وَالسَّعْدُ جَاشِيَةٌ، وَالذَّهْرُ مَاشِينَا
وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي الْعَقِيَانِ تَحْسِبَهَا
(بَلْقِيسُ) تَرْفُلُ فِي وَشِي الْيَمَانِينَا

والنيلُ يقبلُ كالدنيا إذا احتفلتُ
لو كان فيها وفاءٌ للمُصافينا
والسعدُ لو دام، والنعمي لو اطرَدت
والسيلُ لو عَفَّ، والمقدارُ لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهباً
ماءٌ لَمَسنا به الإكسيرَ أو طينا
أعداه من يُمْنه (التابوتُ) وارتسمت
على جوانبه الأنوارُ من سينا
له مبالغ ما في الخلقِ من كرمٍ
عهدُ الكرام وميثاقُ الوفيين
لم يَجِرْ للدهرِ إغذار ولا عُرْسُ
إلا بآماننا أو في ليالينا
ولا جوى السعدُ أطفئ في أعنته
منا جِاداً ولا أرضى مياديننا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرينا
ولم يهن بيد التَّشيت غاليينا

ولا يحولُ لنا صِبْغٌ ولا خُلُقٌ
إذا تلوَّن كالْحِرْبَاءِ شَانِينَا

لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
في ملكِهَا الضَّخْمِ عَرْشاً مثل وادينَا
أَلَمْ تُؤَلِّهْ عَلَى جَافَاتِهِ وَرَأَتْ
عَلَيْهِ أَبْنَاءَهَا الْغُرَّ المِيَامِينَا؟

إِنْ غَازَلْتَ شَاطِئِهِ فِي الْضُّحَى لِبِساً
خَمَائِلَ السُّنْدُسِ المَوْشِيَّةِ الْغِينَا
وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجِ الوَادِ مِنْ شَجَرٍ
لِوَافِظَ الْقَزِّ بِالنَّخِيطَانِ تَرْمِينَا

وهذه الأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
قَبْلَ (الْقِيَاصِرِ) دِنَّاها (فِرَاعِينَا)

وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانَ عَلَى حَجَرٍ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ
بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بَنِيَانُ فَانِينَا

إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ عَلِيَا مَقَاصِرِهِ
يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَايِنَا (١)
كَأَنَّهَا وَرَمَالًا جَوْلَهَا التَّطَمَّتْ
سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا
كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأْلَاءِ الضُّحَى ذَهَبًا
كَنُوزُ (فِرْعَوْنَ) غَطَّيْنَ الْمَوَازِينَا

* * *

أَرْضُ الْأَبْوَةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا
مَرُّ الصَّبَا فِي ذُبُولٍ مِنْ تَصَابِينَا
كَانَتْ مُحْجَلَةً ، فِيهَا مَوَاقِفُنَا
غُرًّا مُسْلَسَلَةً الْمَجْرَى قَوَافِينَا
فَنَابَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَاعِبُنَا
وَنَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
وَلَمْ نَدْعَ لِلْيَالِي صَافِيًا ، فَدَعَتْ
(بِأَنَّ نَغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا)

(١) الاواوين : جمع الايوان

لو استطعنا لَخُضْنَا الجو صاعقة
 والبرَّ نارَ وغىً، والبحرَ غَسْلِينَا (١)
 سَعِيًّا إِلَى مصرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرْنَا
 فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي . وَبَاكِينَا
 كَنْزٌ (بَحْلَوَان) عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ
 خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا
 لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيْبَتَنَا
 لَمْ يَأْتِهِ الشُّوقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا (٢)
 إِذَا حَمَلْنَا لِمَصْرِ ، أَوْ لَهُ شَجَنًا
 لَمْ نَذِرْ أَيْ هَوَى الْأُمَيْنِ شَاجِينَا

(١) غسلين : حديد

(٢) اشارة الى المرحومة والدة احمد شوقي

رومة

قف بروما وشاهد الأمر وأشهد
أن للملك مالكا سبحانه (١)
دولة في الثرى وأنقاض ملك
هدم الدهر في العلاء بنيانه
مزقت تاجه الخطوب وألقت
في التراب الذي أرى صولجانه
طلل عند دمنة عند رسم
ككتاب محا البلى عنوانه
وتماثيل كالحقائق تزدا
د وضوحاً على المدي وإبانه
من رآها يقول: هذي ملوك الدهر
ر، هذ وقارهم والرزانه

(١) قدّم شوقي لهذه القصيدة برسالة بعث بها الى صديقه المؤرخ اسماعيل بك رافت

وبقايا هياكل وقصورٍ
 بين أخذِ البلى ودفعِ المتأنه
 عبثَ الدهر بالحواريِّ فيها
 و«بيلُوس» لم يهب أرجوانه
 وجرت هاهنا أمورٌ كِبَارُ
 واصلَ الدهرُ بعدها جريانه
 راحَ دينٌ وجاءَ دينٌ ووَلَّى
 مُلكُ قومٍ وحلَّ ملكٌ مكانه
 والذي حصَّلَ المجدُّونَ إِمْرًا
 قُ دمَاءٌ خَلِيقَةٌ بالصِيَانِه
 ليت شعري إلامَ يَقتَتِلُ النَّاسُ
 سَ على ذي الدِّنيَّةِ الفَتَانِه
 بلدٌ كانَ للنصارى قِتَادًا
 صارَ ملكُ القُسوسِ عرشَ الدِّيَانِه
 وشُعوبٌ يمحونَ آيَةَ عِيسَى
 ثم يُعلونَ في البريةِ شَأْنَه

وَيُهَيِّنُونَ صَاحِبَ الرُّوحِ مَيْتًا
 وَيَعِزُّونَ بَعْدَهُ أَكْفَانَهُ
 عَالَمٌ قُلُوبٌ وَأَحْلَامٌ خَلَقِ
 تَبَارَى غِبَاوَةً وَفِطَانَهُ
 رُومَةٌ الزَّهْرُ فِي الشَّرَائِعِ وَالْحِكْمِ
 مِمَّةٌ فِي الْحُكْمِ ، وَالْهَوَى وَالْمَجَانَهُ
 وَالتَّنَاهَى فَمَا تَعْدِي عَزِيزًا
 فَيْكَ عِزٌّ وَلَا مَهِينًا مَهَانَهُ
 مَالِحِيٍّ لَمْ يُمْسِ مِنْكَ قَبِيلٌ
 أَوْ بِلَادٌ يَعِدُّهَا أَوْطَانَهُ
 يَصْبِحُ النَّاسُ فَيْكَ مَوْلًى وَعُبدًا
 وَيَرَى عَبْدُكَ الْوَرَى غِلْمَانَهُ
 أَيْنَ مُلْكٌ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَالٍ
 تَحْسُدُ الشَّمْسُ فِي الْأَضْحَى سُلْطَانَهُ
 قَادِرٌ يَمْسُخُ الْمَمَالِكَ أَعْمَا
 لَا وَيُعْطِي وَسِيعَهَا أَعْوَانَهُ

أَيْنَ مَالُ جَبَيْتِهِ وَرَعَايَا
 كُلُّهُمْ خَازِنٌ وَأَنْتِ الْخَزَانَةُ؟
 أَيْنَ أَشْرَافِكَ الَّذِينَ طَغَوْا فِي آلِ اللَّهِ
 رِحْتِي أَذَاقَهُمْ طَغْيَانَهُ؟
 أَيْنَ قَاضِيكَ؟ مَا أَنَاخَ عَلَيْهِ؟
 أَيْنَ نَادِيكَ؟ مَا دَهَا شَيْخَانَهُ؟
 قَدْ رَأَيْنَا عَلَيْكَ آثَارَ حُزْنٍ
 وَمِنَ الدُّورِ مَا تَرَى أَحْزَانَهُ
 اقْصِرِي وَاسْأَلِي عَنِ الدَّهْرِ مَصْرًا
 هَلْ قَضَيْتِ مَرَّتَيْنِ مِنْهُ اللَّبَانَهُ
 إِنْ مِنْ فَرْقِ الْعِبَادِ شُعُوبًا
 جَعَلَ الْقِسْطَ بَيْنَهَا مِيزَانَهُ
 هَبْكِ أَفْنِيَّتِي بِالْحَدَادِ اللَّيَالِي
 لَنْ تَرُدِّي عَلَى الْوَرْدِي رُومَانَهُ

على قبر نابليون

قفْ على كنزٍ بباريس دفينٍ
من فريد في المعاني وثمانين
وأفتقدُ جوهرةً من شرفٍ
صدفُ الدهرِ بتربيها ضنين
قد توارت في الثرى حتى إذا
قدمُ العهد توارت في السنين
غرّبتُ حتى إذا ما أستيأستُ
دنتِ الدَّارُ ولكن لاتَ حين
لم تُذبْ نارُ الوغى يا قوتها
وأذابته تباريحُ الحنين
لاتلوموها ، أليست حرةً
وهوى الأوطان للأحرار دين ؟

غَيَّبَتْ بَارِيسُ ذَخْرًا وَمُضِيًّا
تَرْبُهَا الْقِيَمُ بِالْحَرْزِ الْحَصِينِ
نَزَلَ الْأَرْضَ وَلَكِنْ بَعْدَمَا

نَزَلَ أَلْتَارِيخُ قَبْرِ النَّابِغِينَ
أَعْظَمُ اللَّيْثِ تَلَقَّاها الشَّرَى
وَرُفَاتُ النَّسْرِ حَازَتْهُ الْوُكُونُ

وَجَوَى الْغَمْدُ بَقَايَا صَارِمٍ
لَمْ تَقْلَبْ مِثْلَهُ أَيْدِي الْقُيُونِ
شَيَّدَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَبَنَوْا
حَائِطَ الشَّكِّ عَلَى أَسِّ الْيَقِينِ

لَسْتَ تُحْصِي حَوْلَهُ أَلْوِيَّةً
أُسِرَتْ أَمْسٍ وَرَايَاتٍ سُبُيْنِ

نَامَ عَنْهَا وَهِيَ فِي سَدَّتِهِ
دَيْدَبَانٌ سَاهِرُ الْجَفْنِ أَمِينِ

وَكَيْئٌ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ
لَكَ بِالْأَمْسِ هُوَ الْيَوْمُ خَدِينِ
وَوَلِيٌّ كَانَ يَسْقِيكَ الْهَوَى
عَسَلًا قَدْ بَاتَ يَسْقِيكَ الْوَزِينِ
فَإِذَا اسْتَكْرَمْتَ وَدًّا فَاتَهُمْ
جَوْهَرَ الْأُودِّ وَإِنْ صَحَّ ظَنِينِ

* * *

مَرْمَرٌ أَضْجَعَ فِي مَسْنُونِهِ
حَجَرُ الْأَرْضِ وَضِرْغَامُ الْعَرِينِ
جَلَلَتْهُ هَيْبَةُ الثَّائِي بِهِ
رَوْعَةُ الْحِكْمَةِ فِي أَلْشَّعْرِ الرِّصِينِ
هَلْ دَرِي الْمَرْمَرُ مَاذَا تَحْتَهُ
مَنْ قَوَى نَفْسٍ وَمَنْ خُلِقَ مَتِينٌ؟
أَيُّهَا الْغَالُونَ فِي أَجْدَاثِهِمْ
ابْحَثُوا فِي الْأَرْضِ: هَلْ عَيْسَى دَفِينٌ؟
يَمَّحِي الْمَيِّتُ وَيَبْلَى رَمْسُهُ
وَيَغُولُ الرَّبْعُ مَا غَالَ أَلْقَطِينِ

حَصَّنُوا مَا شِئْتُمْ مَوْتَائِكُمْ !
 هل وراء الموتِ من حصنٍ حصين ؟
 ليس في قبر وإن نال السَّهْيُ
 ما يزيد الميت وزناً ويزين
 فانزل التاريخ قبراً أو فتم
 في الثَّرَى غُفْلاً كَبَعَضِ أَلْهَامِدِينَ
 واخْدَعِ الْأَحْيَاءَ مَا شِئْتَ فَلَنْ
 تَجِدَ التَّارِيخَ فِي الْمُنْخَدَعِينَ !
 يَا عَصَامِيَّ حَوَى الْمَجْدَ سَوَى
 فَضْلَةٍ قَدْ قُسِّمَتْ فِي الْمَعْرُقِينَ
 أَمْكَ النَّفْسُ قَدِيمًا أَكْرَمَتْ
 وَأَبُوكَ الْفَضْلُ خَيْرُ الْمُنْجِبِينَ
 نَسَبُ الْبَدْرِ أَوْ الشَّمْسِ - إِذَا
 جِيءَ يَا آبَاءَ - مَغْمُورٌ رَهِينٌ
 وَأُصُولُ الْخَمْرِ مَا أَزْكَى عَلَى
 خَبَثِ مَا قَدْ فَعَلْتُ بِالْشَّارِبِينَ

لا يقولنَّ أمرؤُ أصلي فما
 أصلُهُ مِسْكٌ وَأَصْلُ النَّاسِ طِينٌ
 قد تتوَجَّتَ فقالت أُمُّمُ :
 ولدُ الثَّوْرَةِ عَقَّ الثَّائِرِينَ
 وتزوجتَ فقالوا : مَالَهُ
 وَلِحُورٍ من بنات الملك عين ؟
 قسماً لو قدروا ما احتشموا
 لا يَعِفُّ النَّاسُ إِلَّا عاجزين
 أَرَأَيْتَ الْخَيْرَ وَافِي أُمَّةٍ
 لم ينالوا حظَّهم في النَّابِغِينَ
 يصلحُ الملكُ على طائفةٍ
 هم جمالُ الأرض جيناً بعد حين
 ملأوا الدنيا، على قِلَّتِهِم
 وقديماً مُلِئَتْ بالمرسلين
 يَحْسُنُ الدَّهْرُ بهم ما طلَعوا
 وبهم يزداد حسناً آفلين

قد أقاموا قدوةً صالحَةً
 وهَضُّوا أَمْثَلَةً للمحتَظِدين
 إِنَّمَا الأُسُوةُ - وَالْدُنْيَا أَسَى -
 سببُ العُمرانِ نَظْمُ العالمين
 يا صرِيعَ الموتِ نَدَمَانِ أَلْبَلَى
 كُلُّ حِجٍّ بِالَّذِي ذُقْتَ رَهين
 كَدْتَ مِنْ قَتْلِ المَنايَا خِبرَةً
 تَعْلَمُ الآجَالَ أَيَّانَ تَحِينُ
 يَا مُبِيدَ الأَسَدِ فِي آجَامِهَا
 هَلْ أَبَادَتْ خَيْلُكَ الدُّودَ المَهِينَ!
 يَا عَزِيزَ السَّجَنِ بِالبَابَا إِلَى
 كَمْ تَرَدَّى فِي الثَّرَى دُلُّ السَّجِينِ؟
 رَبَّ يَوْمٍ لَكَ جَلَّى وَانْثَنَى
 سَائِلَ الغُرَّةِ مَسْوَحَ الجَبِينِ
 أَحْرَزَ الغَايَةَ نَصراً غَالِيَاً
 لفرنسا وَحَوِي الفَتْحَ الثَّمِينِ

قيصر الأنساب فيه نازلاً
 قيصر النفس عصام المالكين
 مجلس التاج على مفرقه
 بيديه لا بأيدي المجلسين
 جول (استرلتز) كان الملتقى
 واصطدام النسر بالمستنصرين
 وضع الشطرنج فاستقبلته
 ببنان عابث باللاعبين
 فإذا الملكان هذا خاضع
 لك في الجمع وهذا مُستكين
 صِدْتُ شاهَ الروسِ والنمسا معاً
 من رأى شاهين صيداً في كمين

* * *

يا مُلقِي النصرِ في أحلامه
 أين من وادي الكرى (سنتِ هِلين)؟
 يا مُنِيل التاج في المهد ابنه
 ما ألذي غرَّك بالغيب الجنين؟

اتَّئِدُ فِي أُمَّةٍ أَرْهَقَتْهَا
 إِنَّهَا كَالنَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ
 أَتَعَبَ الرِّيحَ مَدَى مَا سَلَكَتْ
 مِنْ سُهُولٍ وَأَجَازَتْ مِنْ حُزُونٍ
 مِنْ أَدِيمٍ يَهْرَأُ أَلَدَبٌ إِلَى
 فَلَوَاتٍ تُنْتِجُ أَلْضَبَّ الْكَنِينِ
 لَكَ فِي كُلِّ مُغَارٍ غَارُهُ
 وَعَلَيْهَا الدَّمْعُ فِيهِ وَالْأَنِينِ
 وَمَنْ الْمَكْرِ تَغْنِيكَ بِهَا
 هَلْ يَزْكِي الذَّبْحُ غَيْرُ الذَّابِحِينَ ؟
 سُخَّرَ النَّاسَ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا
 لِقَوِيٍّ أَوْ غَنِيٍِّّ أَوْ مُبِينٍ
 وَالْجَمَاعَاتُ ثَنَايَا الْمَرْتَقَى
 فِي الْمَعَالِي وَجُسُورُ الْعَابِرِينَ

* * *

يَا خَطِيبَ الدَّهْرِ هَلْ مَالَ الْبَلَى
 بِلِسَانٍ كَانَ مِيزَانُ الشُّؤْنِ ؟

تُرْجَحُ السُّلْمُ إِذَا حَرَّكَتْهُ
 كِفَّةٌ أَوْ تُرْجَحُ الْحَرْبُ الزُّبُونُ
 خُطْبٌ لَا صَوْتَ إِلَّا دُونَهَا
 فِي صِدَاهَا الْخَيْلُ تَجْرِي وَالسِّنِينَ
 مِنْ قَصِيرِ اللَّفْظِ فِي مَكْرِ النَّهْيِ
 وَطَوِيلِ الرُّمَحِ فِي كَيْدِ الْوَتِينِ
 غَيْرَ وَضَّاعٍ وَلَا وَاشٍ وَلَا
 مُنْكَرِ الْقَوْلِ وَلَا لَغْوِ الْيَمِينِ
 سِرْنَ أَمْثَالاً فَلَوْ لَمْ يُحْيِهِ
 سَيْفُهُ أَحْيَيْنَهُ فِي الْغَنَائِيرِ

* * *

قُمْ إِلَى الْأَهْرَامِ وَاخْشَعْ وَأَطْرِحْ
 خَيْلَهُ الصَّيْدَ وَزَهْوَ الْفَاتِحِينَ
 وَتَمَهَّلْ إِنَّمَا تَمْشِي إِلَى
 حَرَمِ الدَّهْرِ وَمَحْرَابِ الْقُرُورِ
 هُوَ كَالصَّخْرَةِ عِنْدَ الْقَبْطِ أَوْ
 كَالْحُطَيْمِ الطُّهْرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ

وتَسَنَّمُ مِنْبَرًا مِنْ حَجَرٍ
لم يكنْ قبلكَ حظَّ الخاطبين
وَادْعُ أَجْيَالًا تَوَلَّتْ يَسْمَعُوا
لكَ وَاْبِعْثْ فِي الْأَوَالِي حَاشِرِينَ
وَأَعْدْهَا كَلِمَاتٍ أَرْبَعًا
قَدْ أَحَاطَتْ بِالْقُرُونِ الْأَرْبَعِينَ
أَلْهَبَتْ خِيَلًا وَحَضَّتْ فَيْلَقًا
وَأَجَالَتْ عَسَلًا صَابَ الْمُنُونُ
قَدْ عَرَضَتْ الدَّهْرَ وَالْجَيْشَ مَعًا
غَايَةَ قَصْرٍ عَنْهَا الْفَاتِحُونَ
مَا عَلِمْنَا قَائِدًا فِي مَوْطِنٍ
صَفَحَ الدَّهْرَ وَصَفَ الدَّارَعِينَ
فَتَرَى الْأَحْيَاءَ فِي مَعْتَرِظٍ
وَتَرَى الْمَوْتَى عَلَيْهِمْ مُشْرِفِينَ
عِظَّةٌ قَوْمِي بِهَا أُولَى وَإِنْ
بَعْدَ الْعَهْدِ ، فَهَلْ يَعْتَبِرُونَ ؟

هذه الأهرام من تاريخهم (١)
كيف من تاريخهم لا يستحون !
يا كثير الصيد للصيدِ أُلْعَى
قم تأمل كيف صادتك المنون
قُمْ تَرَ الدُّنْيَا كَمَا غَادَرْتَهَا
منزل الغدر ، وماء الخادعين
وَتَرَ الْحَقَّ عَزِيزاً فِي الْقَنَاسِ
هَيْنًا فِي الْعُزْلِ الْمُسْتَضَعْفِينَ
وَتَرَ الْأَمْرَ يَدًا فَوْقَ يَدٍ
وَتَرَ النَّاسَ ذُنَابًا وَضِئِينَ
وَتَرَ الْعِزَّ لِسَيْفٍ نَزَقٍ
فِي بِنَاءِ الْمُلْكِ أَوْ رَأْيِ رَزِينٍ
سَنَنْ كَانَتْ ، وَنَظْمٌ لَمْ يَزَلْ
وَفَسَادٌ فَوْقَ بَاعِ الْمَصْلَحِينَ

(١) ورد الصدر في « الشوقيات » بدون حرف الجر « من » ولكن الوزن لا يستقيم ، عندئذ ، إلا باشباع ضمة الميم في « تاريخهم » .

أنس الوجود^(١)

أيها المنتحي «بأسوان» داراً
كالثريّا تُريدُ أن تنقُضاً
إِخلع النعلَ واخفضِ الطرفَ واخشع
لا تطاول من آيةِ الدهرِ غُضّاً
قِف بتلك «القصور» في اليمِّ غرقى
مُمسِكاً بعضُها من الذعرِ بعضاً
كعذارى أخفينَ في الماءِ بضاً
سابحاتٍ به وأبدینَ بضاً
مُشْرِفاتٍ على الزَّوالِ ، وكانت
مُشْرِفاتٍ على الكواكبِ نهضاً

(١) قدّم شوقي لهذه القصيدة برسالة وجهها الى المتمر روزفلت الرئيس
الاسبق للولايات المتحدة الاميركية .

شَابَ مِنْ حَوْلِهَا الزَّمَانُ وَشَابَتْ
وَشَبَابُ الْفُنُونِ مَا زَالَ غَضًّا
رُبَّ «نَقْشٍ» كَأَنَّمَا نَفَضَ الصَّا
نِعُ مِنْهُ الْيَدَيْنِ بِالْأَمْسِ نَفَضًا
و«دِهَانٍ» كَلَامِعِ الْأَزِيْتِ مَرَّتْ
أَعَصُرُ بِالسَّرَاجِ وَالْزَيْتِ وَضًا
و«خَطُوطٍ» كَأَنَّهَا هُدُبُ رِيْمٍ
حَسَنَتْ صُنْعَةً وَطَوْلًا وَعَرَضًا
و«ضَحَايَا» تَكَادُ تَمْشِي وَتَرْعِي
لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ نَبْضًا
و«مَحَارِيِبَ» كَالْبُرُوجِ بَنَتْهَا
عَزَمَاتٌ مِنْ عَزْمَةِ الْجِنِّ أَمْضَى
شَبَدَتْ بَعْضَهَا الْفَرَاعِينَ زُلْفَى
وَبَنَى لِبَعْضٍ أَجْنَبٌ يَتَرْضَى
و«مَقَاصِيرَ»، أَبْدَلَتْ بَفُتَاتِ الْ...
مَسَكٍ تَرَبًّا وَبِالْيَوَاقِيْتِ قَضًا

حَظُّهَا الْيَوْمَ هَدَّةٌ وَقَدِيمًا
صُرِفَتْ فِي الْحِظُوظِ رَفْعًا وَخَفَضًا
سَقَتْ الْعَالَمِينَ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْدِ
سَ إِلَى أَنْ تَعَاظَتْ النُّحُسَ مُحَضًا
صَنْعَةً تُدْهِشُ الْعُقُولَ وَفَنُّ
كَانَ إِتْقَانُهُ عَلَى الْقَوْمِ فَرَضًا

* * *

يَا قُصُورًا نَظَرْتُهَا وَهِيَ تَقْضِي
فَسَكَبْتُ الدَّمُوعَ وَالْحَقُّ يُفْضِي
أَنْتِ سَطَرٌ وَمَجْدُ مِصْرَ كِتَابُ
كَيْفَ سَامَ الْبَلَى كِتَابَكَ فَضًا
وَأَنَا الْمُحْتَفِي بِتَارِيخِ مِصْرَ
مَنْ يَصْنُ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانَ عِرْضًا
رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبِكَ مَزَالُ
كَانَ حَتَّى عَلَى «الْفَرَاعِينَ» غَمَضًا
قَلَّ لَهَا فِي أَلْدُعَاءٍ لَوْ كَانَ يُجْدِي
يَا سَمَاءَ الْجَلَالِ لَا صَرْتِ أَرْضًا

حَارَ «فِيكَ» المهندسون عقولاً
 وتولّتْ عزائمُ الْعِلْمِ مَرْضَى
 أين ملكٌ حيالها وفريدٌ
 من نظام النعيمِ أَصْبَحَ فُضَا
 أين «فرعون» في المواقب تَتَرَى
 يركضُ المالكين كالخيل ركضاً
 ساق للفتح في الممالك عَرْضاً
 وجَلا للفَخَارِ في السَّلمِ عَرْضاً
 أين «إيزيس» تحتها النيلُ يَجْرِي
 حكمتُ فيه شاطئين وعَرْضاً
 أسَدَلَ الطُّرْفَ كاهنٌ ومليكَ
 في ثراها وأرسلَ الرأسَ خَفْضاً
 يُعَرِّضُ المالكونَ أُسْرَى عليها
 في قيودِ الهوانِ عانينَ جَرَضَى (١)
 مالها أَصْبَحَتْ بغير مُجِيرٍ
 تَشْتَكِي من نوائبِ الدَّهرِ عَضاً

(١) جَرَضَى : مغمومين .

هي في الأسر بين صخرٍ وبحرٍ
مَلَكَة في السجون فوق حَضَوْضِي^(١)

أَيْن «هوروس» بين سيفٍ ونطعٍ
أبْهَذَا في شرعهم كَانَ يَقْضِي

لَيْتَ شَعْرِي قَضَى شَهِيدَ غَرَامٍ
أَمْ رَمَاهُ الْوَشَاءُ حَقْدًا وَبُغْضًا
رَبًّا ضَرَبَ مِنْ سَوْطِ فِرْعَوْنَ مَضًّا

دُونَ فَعَلِ الْفِرَاقِ بِالنَّفْسِ مَضًّا
وَهَلَاكِ بِسَيْفِهِ وَهُوَ قَانٍ

دُونَ سَيْفٍ مِنَ الْوَاظِ يُتَضَّى
قَتَلُوهُ فَهَلْ لَئِذَاكَ حَدِيثٌ

أَيْنَ رَاوِي الْحَدِيثِ نَشْرًا وَقَرْضًا
بِإِمَامِ الشُّعُوبِ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ

مَنْ سَتُعْطَى مِنَ الثَّنَاءِ فَتَرْضَى
(مَصْرُ) بِالنَّازِلِينَ مِنْ سَاحِ (مَعْنٍ)

وَحِمَى الْجُودِ (حَاتِمِ) الْجُودِ أَفْضَى

(١) حَضَوْضَى : جَبَلٌ فِي الْبَحْرِ :

كنْ ظهيراً لأهلها ونصيراً
 وأبذل النصع بعد ذلك مَحْضاً
 قل لقومٍ على (الولايات) أيقاً
 ظِ إذا ذاقَت البريئةُ غَمْضاً
 شِمةُ النيل، أن يفي، وعجيب
 أخرجوه فضيَّعَ العهدِ نقضاً
 حاشه الماءُ فهو صَيْدٌ كريم
 ليت بالنيل يوم يسقط غَيْضاً
 شِيدُ والمالُ والعلومُ قليلٌ
 أنقذوه بالمال والعلم نقضاً

قم ناج جلق

قُمُ نَاجِ جَلَّقَ وَأَنْشُدُ رَسْمَ مَنْ بَانُوا
مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثٌ وَأَزْمَانُ (١)

هَذَا الْأَدِيمُ كِتَابٌ لَا كِفَاءَ لَهُ
رَثُّ الصَّحَائِفِ بَاقٍ مِنْهُ عُنْوَانُ
الدِّينِ وَالْوَحْيِ وَالْأَخْلَاقِ طَائِفَةٌ

مِنْهُ وَسَائِرُهُ دُنْيَا وَبَهْتَانُ

مَا فِيهِ إِنْ قَلَّبْتَ يَوْمًا جَوَاهِرُهُ
إِلَّا قَرَائِحَ مِنْ رَادٍ وَأَذْهَانُ

بَنُو أُمَيَّةَ لِلْأَنْبِيَاءِ مَا فَتَحُوا
وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا وَمَا دَانُوا

(١) القيت في حفلة التبريم التي اقامها لشوقي المجمع العلمي العربي بدمشق.

كانوا مُلوَكاً سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ
 فهل سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ ما كانوا
 عَالِينَ كالشمسِ في أطرافِ دولتها
 في كل ناحية مُدْكُ وسلطان
 يا ويحَ قلبي مهما انتابَ أَرْسُهُمْ
 سرى به الهمُّ أو عادتهُ أَشْجان
 بالأمس قمتُ على (الزُهراء) أُنْدِبُهُمْ
 وألَيوم دمعِي على « الفيحاء » هتان
 في الأرضِ منهم سِماواتُ، وألَوِيَّةُ
 ونَيْرَاتُ وأنواءُ وعِقبَانُ
 معادنُ ألْعَزَّ قد مال الرِّغَامُ بهم
 لو هان في تُرْبِهِ الإِبْرِيْزُ ما هانوا
 لولا دمشق لما كانت (طَلِيْطَلَةُ)
 ولا زَهَتْ بِبَنِي العباسِ بَغْدان
 مرَّرتُ بالمسجدِ المحزونِ أَسْأَلُهُ
 هل في المَصَلَّى أو المحرابِ (مروان)

تَغَيَّرَ الْمَسْجِدُ الْمَحْزُونُ وَاخْتَلَفَتْ
عَلَى الْمَنَابِرِ أَحْرَارٌ وَعَبْدَانُ
فَلَا الْأَذَانَ أَذَانٌ فِي مَنَارَتِهِ
إِذَا تَعَالَى وَلَا الْآذَانَ آذَانُ
آمَنْتُ بِاللَّهِ وَاسْتَنْثَيْتُ جَنَّتَهُ
دِمَشْقُ رَوْحٍ وَجَنَاتُ وَرِيحَانُ
قَالَ الرَّفَاقُ وَقَدْ هَبَّتْ خُمَائِلُهَا
الْأَرْضُ دَارٌ لَهَا «الْفِيحَاءُ» بُسْتَانُ
جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا «بَرْدَى»
كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخُلْدِ رِضْوَانُ
دَخَلْتُهَا وَحَوَاشِيَهَا زُمَرْدَةٌ
وَالشَّمْسُ فَوْقَ لُجَيْنِ الْمَاءِ عَقِيَانُ
وَالْحَوْرُ فِي «دُمَرٍ» أَوْ حَوْلَ «هَامَتِهَا»
حُورٌ كَوَاشِفُ عَنْ سَاقٍ وَوُلْدَانُ
و«رَبْوَةٌ» الْوَادِ فِي جِلْبَابٍ رَاقِصَةٍ
السَّاقُ كَاسِيَةٌ وَالنَّحْرُ عُرْيَانُ

والطيرُ تصدحُ من خلف العيون بها
 وللعيون كما للطير ألحان
 وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً
 أفوافه فهو أصباغُ وألوان
 وقد صفى «بردى» للريح فأبتردت
 لدى ستورِ جواشيهن أفنان
 ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا
 جفتُ من الماء أذيال وأردان
 خلقتُ «لبنان» جناتِ النعيم وما
 نبئتُ أنَّ طريقَ الخلد لبنان
 حتَّى أنحدرت إلى فيحاء وارفة
 فيها الندى وبها «طي» وشيبان
 نزلتُ فيها بفتيان جاحجة
 آباؤهم في شباب الدهر غسان
 بيضِ الأسرَّة باقٍ فيهم صيدُ
 من «عبدِ شمس» وإن لم تبق تيجان

يَا فَتِيَّةَ الشَّامِ شُكْرًا لَا أَنْقِضَاءَ لَهُ
 لَوْ أَنَّ إِحْسَانَكُمْ يَجْزِيهِ شُكْرَانِ
 مَا فَوْقَ رَاحَاتِكُمْ يَوْمَ السَّمَاحِ يَدُ
 وَلَا كَأُوطَانِكُمْ فِي الْبَشَرِ أَوْطَانِ
 خَمِيلَةُ اللَّهِ وَشَتَّهَا يَدَاهُ لَكُمْ
 فَهَلْ لَهَا قِيَمٌ مِنْكُمْ وَجَنَانِ
 شِيدُوا لَهَا الْمَلِكَ وَابْنُوا رُكْنَ دَوْلَتِهَا
 فَالْمَلِكُ غَرَسَ وَتَجْدِيدُ وَبَنِيَانِ
 لَوْ يُرْجَعُ الدَّهْرُ مَفْقُودًا لَهُ خَطَرُ
 لَا بَ بِالْوَاحِدِ الْمَبْكِيِّ ثُكْلَانِ
 أَلْمَلِكُ أَنْ تَعْلَمُوا مَا أَسْطَعْتُمُو عَمَلًا
 وَأَنْ يَبِينَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِتْقَانِ
 الْمَلِكُ أَنْ تَخْرُجَ الْأَمْوَالُ نَاشِطَةً
 لِمَطْلَبٍ فِيهِ إِصْلَاحٌ وَعُمْرَانِ
 الْمَلِكُ تَحْتَ لِسَانٍ حَوْلَهُ أَدَبِ
 وَتَحْتَ عَقْلٍ عَلَى جَنْبَيْهِ عِرْفَانِ

أَلْمَلِكُ أَنْ تَتَلَقَوْا فِي هَوَى وَطَنِ
 تَفَرَّقَتْ فِيهِ أَجْناسٌ وَأَدِيَانُ
 نَصِيحَةٌ مِلُّوْهَا الْإِخْلَاصُ صَادِقَةٌ
 وَالنُّصْحُ خَالِصُهُ دِينٌ وَإِيمَانُ
 وَالشَّعْرُ مَا لَمْ يَكُنْ ذِكْرَى وَعَاطِفَةٌ
 أَوْ حَكْمَةٌ فَهُوَ تَقْطِيعٌ وَأَوْزَانُ
 وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالْفُصْحَىٰ بِنُورِ حِمٍّ
 وَنَحْنُ فِي الْجَرْحِ وَالْآلَامِ إِخْوَانُ

* * *

رمضان ولي هاتها ياساقي^(١)

رَمَضَانُ وَلِيَّ ، هَاتَهَا يَاسَاقِي
مَشْتَاقَةٌ تَسْعَى إِلَى مَشْتَاقِ
مَا كَانَ أَكْثَرَهُ عَلَى الْأَفْهَامِ
وَأَقْلَبَهُ فِي طَاعَةِ الْخَلَاقِ
اللَّهُ غَفَّارُ الذُّنُوبِ جَمِيعِهَا
إِنْ كَانَ ثَمَّ مِنَ الذُّنُوبِ بَوَاقِي
بِالْأَمْسِ قَدْ كُنَّا سَجِينِي طَاعَةٍ
وَالْيَوْمَ مِنْ الْعِيدِ بِالْإِطْلَاقِ
ضَحِكْتَ إِلَيَّ مِنَ السُّرُورِ وَلَمْ تَزَلْ
بَنْتُ الْكُرُومِ كَرِيمَةَ الْأَعْرَاقِ

(١) الأبيات الموضوعة بين قوسين في هذه القصيدة ترجمتها جريدة «الطائر» بقلم
المرحوم عثمان (باشا) غالب .

هات أسقنيها غير ذات عواقب
 حتى نُراع لصيحة الصَّفّاق (٢)
 صِرْفاً مسلّطة الشعاع كأنما
 من وجنتيك تُدار والأحداق
 حمراء أو صفراء إن كريمها
 كالغيد ، كلُّ مليحة بمذاق
 وحذارٍ من دمها الزكيّ تريقهُ
 يكفيك يا قاسي دمُ العُشّاق
 لا تَسْقِنِي إِلَّا دِهَاقاً إِنِّي
 أُسْقَى بِكَاسٍ فِي الْهُمُومِ دِهَاق (٢)
 فلعلَّ سلطان المدامّة مخرجي
 من عالمٍ لم يطو غيرَ نِفَاق
 (وطني أَسِفْتُ عليك في عيد الملا
 وبكيتُ من وجدٍ ومنٍ إشفاق)

(١) الصفاق : الديك .

(٢) الدهاق : الممتلئة .

(لا عَيْدَ لي حتى أراك بِأُمَّةٍ
شَمَاءَ رَارِيَةٍ من الْأَخْلَاقِ)
(ذهب الكرامُ الجامعونَ لأَمْرِهم
وبقيتُ في خَلْفٍ بغيرِ خَلِاقِ)
(أَيُظَلُّ بعضُهم لبعضٍ خَاذِلًا
ويقالُ شعب في الحضارة رَاقِي)
وَإِذَا أَرَادَ اللهُ إِشْقَاءَ الْقَرْيِ
جعلَ المَلَأَةَ بِهَا دَعَاةَ شِقَاقِ)

* * *

العَيْدُ بين يديكَ يا ابنَ مُحَمَّدٍ
نُشِرَ السَّعُودُ حُلًى عَلَى الْآفَاقِ
وَأَتَى يُقْبَلُ رَاحَتِيكَ وَيَرْتَجِي
أَنْ لَا يَفُوتَكُمَا الزَّمَانُ تَلَاقِ
قَابَلَتْهُ بِسَعُودٍ وَجْهَكَ وَالسَّنَا
فَازْدَادَ مِنْ يَمَنِ وَمِنْ إِشْرَاقِ
فَاهِنًا بِطَالَعِهِ السَّعِيدِ يَزِينُهُ
عَيْدُ الْفَقِيرِ وَلَيْلَةُ الْأَرْزَاقِ

يَتَنَزَّلُ الْأَجْرَانِ (١) فِي صُبْحِيهِمَا
جَزَلِينَ عَنْ صَوْمٍ وَعَنْ إِنْشَاقِ
إِنِّي أُجِلُّ عَنْ الْقِتَالِ سِرَائِرِي
إِلَّا قِتَالَ الْبُؤْسِ وَالْإِمْلَاقِ
وَأَرَى سَمُومَ الْعَالَمِينَ كَثِيرَةً
وَأَرَى التَّعَاوُنَ أَنْجَعَ التَّرْيَاقِ
قَسَمْتُ بَنِيهَا وَاسْتَبَدَّتْ فَوْقَهُمْ
دُنْيَا تَعْقُ لُئِيمَةُ الْمِيثَاقِ
وَاللَّهُ أَتَعَبَهَا وَضَلَّلَ كَيْدَهَا
نِ رَاحَتِيكَ بَوَابِلِ غَيْدَاقِ (٢)
يَأْسُو جِرَاحَ الْيَائِسِينَ مِنَ الْوَرَى
وَيَسَاعِدُ الْأَنْفَاسَ فِي الْأَرْمَاقِ (٣)
بَلِّغِ الْكِرَامَ الْمَجْدَ حِينَ جَرَوْا لَهُ
بِسَوَابِقِي وَبَلِّغْتَهُ (بِبُرَاقِ)

(١) الأجران: أجر الصوم، وأجر زكاة الفطر: (٢) غيداق: مغدق، كثير الجود: (٣) الأرماق: جمع الرمق، وهو بقية الحياة.

ورأوا غبارك في السَّهَى وترا كضوا
 من للنجوم ومن لهم بلحق
 مولاي طَلَبَة مصر أن تبقى لها
 فإذا بقيتَ فكل خير باق
 سبق القريضُ إليك كلَّ مُهَنِّيٍّ
 من شاعر متفرد سَبَّاق
 لم يدخر إلا رضاك ولا آقتني^١
 إلا ولاءك أنفَسَ الأعلاق
 إن القلوب وأنت ملء صميمها
 بعثت تهانيها من الأعماق
 وأنا أُلَفَّتِي^١ (الطائي) (١) فيك وهذه
 كَلِمِي هَزَزْتُ بها أبا إسحاق (٢)

* * *

(١) الطائي : الشاعر أبو تمام الطائي :
 (٢) أبو اسحق : الخليفة المعتصم بالله :

وصف مرقص^(١)

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| طالَ عليها أَلْقِدَمُ | فهي وجودُ عَدَمٍ |
| قد وُئِدَتْ في الصِّبَا | وَأَنبَعَثَتْ في أَلْهَرَمِ |
| بالغِ فرعونُ في | كرمتها من كرم |
| أَهْرَقَ عُنُقُودَهَا | تَقْدِمَةً للصنمِ |
| خَبَّأَهَا كَاهِنٌ | ناحيةً في (أَلْهَرَمِ) |
| أُكْتُشِفَتْ فامَّحَتْ | غيرَ شذاً أو ضَرَمِ |
| أو كخيال لها | بعد مَتَابِ أَلَمِ |
| نَمَّ بها دَنُهَا | وهي عليه أَنَمِ |
| بي رَشَا ناعم | ما عَرَفَ أَلْعُمَرُ هَمِ |
| أَخْرَجَهَا اللهُ كالـ | زهرة والحسنُ كِمِ |
| تَخْطُرُ عن عادِلِ | لم يُرِ إِلَّا ظَلَمِ |
| تَبِيبٌ عَن لُولُو | قَدَرَهُ من قَسَمِ |

(١) قال شوقي هذه القصيدة، يصف «البال» الخديوي الذي أقيم عام ١٩٣٠ في سراي عابدين :

كَرَّمَهُ فِي النَّوَى
 مَضْطَهْدٌ حَصْرُهَا
 طَاوَعَ مِنْ صَدْرِهَا
 حَمَلَهُ ثَقْلَهُ
 تَسَالُ أْتْرَابُهَا
 أَيُّ فَتَى ذَلِكَ
 يَشْرِبُهَا سَاهِرًا
 قُلْنَ : تَجَاهِلِيهِ
 شَاعِرُ مِصْرَ الَّذِي
 قُلْتُ لَهَا : لَيْتَ لَمْ
 عَاذَلْتِي فِي الطَّلَى
 إِنَّ عَبَسَ الْعِيشُ لِي
 يَشْرِبُهَا كَابِرُ
 يَبْذُلُ إِلَّا الْنُّهْيُ
 يَكْسِبُهَا خُلُقُهُ
 يَمْنَعُهَا حِلْمُهُ
 تِلْكَ شَمْسُ الدُّجَى

هَذَّبَهُ فِي الْيَتَمِ
 جَانِبُهُ مُهْتَضَمُ
 أَيُّ قَوِيٍّ حَكَمُ
 ثُمَّ عَلَيْهِ أَدْعَمُ
 مُؤْنَةً بِالْعَنَمِ
 نَ الْعَرَبِيُّ أَلْعَلَمُ؟
 لَيْلَتِهِ لَمْ يَنَمْ
 ذَلِكَ رَبُّ الْقَلَمِ
 لَوْ حَفِيَ النُّجْمُ لَمْ
 نُرَمْ وَلَمْ نَتَّهَمِ
 لَوْ أَنْصَفْتُ لَمْ أَلَمْ
 عُدْتُ بِهَا فَأَبْتَسِمِ
 بَيْنَ ضُلُوعِي أَشْمِ
 يَهْتِكُ إِلَّا الْحُرْمِ
 يَمْزِجُهَا بِالشِّيمِ
 إِنْ دَفَعْتَهُ أَحْتَشِمِ
 أَمْ ظَبِيَّاتُ الْخَيْمِ

تَقْبِلُ فِي مَوْكَبٍ
يَلْتُ بِأَنْوَارِهِ
مَقْصِدُهَا سُدَّةٌ
حَيْثُ كِبَارُ الْمَلَا
قَدْ وَقَفُوا لِلْمَهَا
تَخْطُرُ مِنْ جَمْعِهِمْ
خَارِجَةٌ مِنْ شَرِيٍّ
نَاعِمَةٌ لَمْ تُرَعْ
انْتَشَرَتْ لَوْلُؤًا
تَمْرَحُ فِي مَأْمَنِ
مُوْتَلِفٌ سِرْبُهَا
مَنْدَفَعَاتٌ عَلَى
بَيْنِ يَدٍ فِي يَدٍ
تَذْهَبُ مَشْيُ الْقَطَا
تَبْعْتُ أَنِّي بَسَدْتُ
تَعْجِلُ خَطْوًا تَنِي
تَجْمَعُ مِنْ ذَيْلِهَا

شَقَّ سَنَاهُ الظُّلَمِ
قَرَنَ ذُكَاءَ نَجْمِ
آلِ إِلَيْهَا أَلْعِظَمِ
بَعْضُ صِغَارِ الْخَدَمِ
فَانْسَرَبَتْ مِنْ أَمَمِ
بَيْنَ لَيْوِثٍ بِهِمْ
دَاخِلَةٌ فِي أَجَمِ
لَا هِيَّةَ لَمْ تَجِمِ
فِي الْمَهْجَاتِ انْتِظَمِ
مِثْلَ حَمَامِ الْحَرَمِ
حَيْثُ تَلَاقَى أَلْتَأَمِ
مَخْتَلَقَاتِ الْنَعَمِ
أَوْ قَدَمٍ فِي قَدَمِ
تَرْجِعُ كَرَّ النَّسَمِ
ضَوْءُ جَبِينِ وَفَمِ
فَاتَنَّةٌ بِالرَّسَمِ
تَدْرِكُهُ لَمْ يُلَمِ

تَرْفُلُ فِي مُخْمَلٍ
 تَتَّبِعُ إِلَّا أَلْهَوَى
 فَاجْتَمَعَتْ فَالتَقَتْ
 مَنْتَهَبٍ كُلَّمَا
 مَائِدَةٌ مَدَّهَا
 تَحَسَّبَهَا صُورَتْ
 لَمْ تُرَ فِي (بَابِل)
 (حَاتِمٌ) لَوْ شَامَهَا
 (مَعْنٍ) لَوْ أَنْتَابَهَا
 أَشْبَهُ بِالْبَحْرِ لَا
 قَامَ لَدَيْهَا الْمَلَا
 مَقْتَرَحاً مَا اشْتَهَى
 لَوْ طَلَبَ الطَّيْرَ مِنْ
 يَا مَلِكاً لَمْ تَضُقْ
 تَجْمَعُ أَشْرَافَهَا
 يَخْطُرُ مَنْ أَمَّهَا

نَمَّ وَلَمَّا يَنْمُ
 تَقَرَّبُ إِلَّا أَلْتَهُمُ
 حَوْلَ خِوَانٍ نَظِمَ
 ظَنَّ بِهِ النِّقْصُ تَمَّ
 بَحْرُ نَوَالٍ خِضَمَ
 مِنْ شَهَوَاتِ أَلَنَّهُمُ
 مَا عُهِدَتْ فِي (إِرَمِ)
 أَقْلَعَ عَمَّا زَعَمَ
 أَدْرَكَ مَعْنَى الْكُرَمِ
 يَحْرِجُهَا مَزْدَحَمُ
 يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ ثُمَّ
 مَلْتَقِيّاً مَا رَسَمَ
 أَيْكَتِيهِ مَا احْتَرَمَ (١)
 سَاحَتِهِ بِالْأُمَمِ
 مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمِ
 بَيْنَ صَنُوفِ أَلَنِّعَمِ

(١) احترم : منع .

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| لَجَّتْهَا وَالْأَكْم | سَادَةُ أَفْرِيْقِيَا |
| فِي الْمَلَأَيْنِ احْتَكَم | أَنْتَ رَشِيدُ الْعُلَى |
| فَوْقَ غَوَالِي الْقِيَمِ | لِيَلْتَكُم قَدْرُهَا |
| فِي زَمَنٍ لَمْ يَقَمْ | مَشْرِقَةُ مِثْلِهَا |
| ظِلَّكُمْ يُغْتَنَمُ | لَا بَرَحَ الصَّفْوِ فِي |
| طَالَ عَلَيْهَا الْقِدَمُ | مَا شَرَبُوهَا وَمَا |

* * *

كبار الحوادث في وادي النيل

هَمَّتْ أَلْفُكْ واحْتَوَاهَا الْمَاءُ
وَحَدَاهَا بِمَنْ تَقِلُّ الرَّجَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبابِ حَوَالِيْ
هِيَ سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارْقُونَ مِنْ شَرِّكَ الْأَرِ
ضِ شِبَاكاً تَمُدُّهَا أَلْدَامَاءُ
وَجِبَالاً مَوَائِجاً فِي جِبَالِ
تَدَجَّى كَأَنَّهَا الظُّلُمَاءُ
وَدَوِيّاً كَمَا تَأْهَبُ الْخِي
لُ وَهَاجَتْ حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ

لُجَّةٌ عِنْدَ لُجَّةٍ عِنْدَ أُخْرَى
كَهَضَابٍ مَاجَتْ بِهَا الْبِيدَاءُ
وَسَفِينٌ طَوْرًا تَلُوحُ وَحِينًا
يَتَوَلَّى أَشْبَاحَهُنَّ الْخَفَاءُ
نَازِلَاتٌ فِي سِيرِمَا صَاعِدَاتٌ
كَالْهُوَادِي يَهْزَهُنَّ الْحُدَاءُ
رَبٌّ إِنْ شِئْتَ فَالْفَضَاءُ مُضِيقٌ
وَإِذَا شِئْتَ فَالْمُضِيقُ فُضَاءُ
فَاجْعَلِ الْبَحْرَ عَصْمَةً وَابْعَثِ الرِّحَ
مَةً فِيهَا الرِّيحَ وَالْأَنْوَاءُ
أَنْتَ أَنْسَ الْوُجُودِ إِنْ بَعْدَ الْأَزْ
سُ وَأَنْتَ الْحَيَاةُ وَالْإِحْيَاءُ
يَتَوَلَّى الْبَحَارَ مَهْمًا ادْلَهَمْتَ
مِنْكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ لَأَلَاءُ
وَإِذَا مَا عَلَتَ فَذَاكَ قِيَامُ
وَإِذَا مَا رَغَتُ فَذَاكَ دَعَاءُ

فإذا راعها جلالك خرت
 هيبّة فهي والبساط سواء
 والعريض الطويل منها كتاب
 لك فيه تحية وثناء
 يا زمان البحار لولاك لم تُفد
 جَعِ بِنُعمى زمانها الوجناء
 فقديمًا عن وَخِدها ضاق وجه الأ
 رض وأنقباد بالشرع الماء
 وانتهت إمرة البحار إلى الشر
 ق وقام الوجود فيما يشاء
 وبنينا فلم نُخلِّ لِبِيان
 وعلونا فلم يَجْزنا علاء
 وملكنا فالكون عبيد
 والبرايا بأسرهم أسراء
 قل لِبِيانِ بني فِشاد فغالى
 لم يَجْز مصر في الزمان بناء
 ليس في الممكنات أن تنقل الأَجِب
 ال شُماً وأن تُنال السماء

أُجْفِلَ الجن عن عزائم فرعو
بَن ودانت لبأسها الآزاء
شاد مالم يَشِدْ زمان ولا أَنـ
شأ عصرٌ ولا بني بنَاء
هيكَل تُنْثِر الديانات فيه
فهي والناس والقرون هَبَاء
وقبورٌ تُحَطُّ فيها الليالي
ويواري الإصباح والإمساء
تشفق الشمس والكواكب منها
والجديدان (١) وألبلى والفناء
فاعذر الحاسدين فيها إذا لا
مُوا فصعبٌ على الحسود الثناء
زعموا أنها دعائمٌ شِيدت
بيد البغي ملوها ظلماء
دُمِّر الناسُ والرعيَّة في تش
ييدها والخلائق الأسراء

(١) الجديدان : الليل والنهار .

أَيْنَ كَانَ الْفَضَاءُ وَالْعَدْلُ وَالْحَكْمَةُ وَالرَّأْيُ وَالنُّهْيُ وَالذِّكَاؤُ
وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعْزَّةِ مِصْرَ
وَالْعُلُومِ الَّتِي بِهَا يَسْتَنْصَأُ
فَادْعُوا مَا ادَّعَى أَصَاغِرُ آثِيهِ
نَا وَدَعُواهُمْ خِنَاءً وَافْتِرَاءً
وَرَأَوْا لِلَّذِينَ سَادُوا وَشَادُوا
سُبَّةً أَنَّ تُسَخَّرَ الْأَعْدَاءُ
إِنْ يَكُنْ غَيْرَ مَا أَتَوْهُ فَخَارُ
فَأَنَا مِنْكَ يَا فَخَارَ بَرَاءٍ
لَيْتَ شِعْرِي وَالْدَّهْرُ حَرْبٌ بَنِيهِ
وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ أَفْيَاءُ
مَا الَّذِي دَاخَلَ اللَّيَالِي مَنَا
فِي صَبَانَا وَلِلْيَالِي دَهَاهُ
فَعَلَا الدَّهْرُ فَوْقَ عَلِيَاءَ فَرَعُو
نَ وَهَمَّتْ بِمُلْكِهِ الْأَرْزَامُ
أَعْلَنْتْ أَمْرَهَا أَلْذُنَابُ وَكَانُوا
فِي ثِيَابِ الرِّعَاةِ مِنْ قَبْلِ جَاؤُوا

وأتى كل شامت من عدى الله
 لك إليهم وانضمت الأجزاء
 ومضى المالكون إلا بقايا
 لهم في ثرى الصعيد التجاء
 فعلى دولة البناة سلام
 وعلى ما بنى البناة العفاء
 وإذا مصر شاة خير لراعي السو
 ء توذى في نسلها وتساء
 قد أذل الرجال فهي عبيد
 ونفوس الرجال فهي إماء
 فإذا شاء فالرقاب فده
 ويسير إذا أراد الدماء
 ولقوم نواله ورضاه
 ولأقوام ألقى والجفاء
 ففريق ممتعون بمصر
 وفريق في أرضهم غرباء
 إن ملك النفوس فابغ رضاها
 فلها ثورة وفيها مضاء

يسكن الوحش للوثوب من الأس
ر فكيف الخلائق العقلاء
يحسب الظالمون أن سيسودو
ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثلما جا
روا وللدهر مثلهم أهواء

* * *

لبثت مصر في الظلام إلى أن
قيل مات الصباح والأضواء
لم يكن ذاك من عمى ، كل عين
حجب الليل ضوءها غمياً
مانراها دعا الوفاء بنيتها
وأَتاهم من القبور النداء
ليزيحوا عنها العدى فأزاحوا
وأزاحت عن جفنها الأقداء
وأعيد المجد القديم وقامت
في معالي آبائها الأبناء

وَأَتَى الدَّهْرُ تَائِباً بِعَظِيمٍ
 مِنْ عَظِيمٍ آبَاؤُهُ عَظْمَاءُ
 مَنْ كَرَّمْسِيْسٍ فِي الْمُلُوكِ حَدِيثاً
 وَلِرَمْسِيْسٍ الْمُلُوكُ فِدَاءُ
 بَايَعْتَهُ الْقُلُوبُ مِنْ صُلْبِ «سِيْتِي»
 يَوْمَ أَنْ شَاقَهَا إِلَيْهِ الرِّجَاءُ
 وَاسْتَعَدَّ الْعِبَادُ لِلْمَوْلِدِ الْأَكْ
 بَرِ وَأُزَيِّنْتُ لَهُ الْغُبْرَاءُ
 جَلَّ «سِيْزُو سَتْرِيْس» عَهْداً وَجَلَتْ
 فِي صَبَاهِ الْآيَاتُ وَالْآلَاءُ
 فَسَمِعْنَا عَنِ الصَّبِيِّ الَّذِي يَعْ
 فُو وَطَبَعَ الصَّبَا الْغُشُومَ الْإِبَاءُ
 وَيُرِي النَّاسَ وَالْمُلُوكَ سَوَاءً
 وَهَلْ أَلْنَّاسَ وَالْمُلُوكَ سَوَاءً
 وَأَرَانَا التَّارِيْخَ فَرْعَوْنَ يَمْشِي
 لَمْ يَحُلْ دُونَ بَشَرِهِ كَبْرِيَاءُ
 يُولِدُ السَّيِّدُ الْمَتَوَّجُ غَضًّا
 طَهَّرَتْهُ فِي مَهْدِهَا أَلْنَّعْمَاءُ

لم يغيِّرْهُ يَوْمَ مِيلَادِهِ بُوُ
 سٌ وَلَا نَالَهُ وَلِبِـدًا شَقَاءُ
 فَإِذَا مَا الْمَلَأَقُونَ تَوَلَّوْا
 هُ تَوَلَّى طِبَاعَهُ الْخِيَلَاءُ
 وَسَرَى فِي فَوَادِهِ زَخْرَفُ الْقَوِ
 ل تَرَاهُ مُسْتَعْذِبًا وَهُوَ دَائِ

* * *

فَإِذَا أَبْيَضُ الْهَدِيلُ غَرَابُ
 وَإِذَا أَبْلَجُ الصَّبَاحِ مَسَاءُ
 جَلَّ رَمْسِيْسُ فِطْرَةٍ وَتَعَالَى
 شَيْعَةً أَنْ يَقُوْدَهُ السَّفَهَاءُ
 وَسَمَا لِلْعُلَا فَنَالَ مَكَانًا
 لَمْ يَنْلِهِ الْأَمْثَالُ وَالنُّظْرَاءُ
 وَجِيُوشٌ يَنْهَضْنَ بِالْأَرْضِ مُلْكًا
 وَلِوَاءٌ مِنْ تَحْتِهِ الْأَحْيَاءُ
 وَوُجُودُ يَسَاسٍ ، وَالْقَوْلُ فِيهِ
 مَا يَقُولُ الْقَضَاةُ وَالْحُكَمَاءُ

وبناءٌ إلى بناءٍ يودُّ الخُلُـ
 دٌ لو نال عمره والبقاء
 وعلومٌ تحيي البلادَ ، وبنْتا
 هُورٌ فخرُ البلاد . والشعراءُ
 إليه سيزو ستريس ماذا ينال الـ
 وصف يوماً أو يبلغ الإِطراءُ
 كُبُرَتْ ذاتُكَ العليَّةُ أن تحـ
 صى ثناها الألقابُ والأسماءُ
 لك آمونٌ والهلال إذا يكـ
 برُ والشمسُ والضُّحى آباءُ
 ولك الريف والصعيد وتاجا
 مصر العرش عالياً والرداءُ
 ولك المنشآت في كل بحر
 ولك البرُّ أرضه والسما
 ليت لم يبلِّك الزمانُ ولم يـ
 لَ لِمُلكِ البلاد فيكَ رجاءُ
 هكذا الدهر حالةٌ ثم ضدُّ
 ما لحالٍ مع الزمان بقاء

لَارَعَاكَ التَّارِيخُ يَا يَوْمَ قَمْبِي
زَ وَلَا طَنْطَنْتُ بِكَ الْأَنْبَاءُ
دَارَتِ الدَّائِرَاتُ فِيكَ وَنَالَتْ
هَذِهِ الْأُمَّةُ الْيَدُ الْعَسْرَاءُ
فَبِمَصْرِ مِمَّا جَنَيْتُ لِمَصْرِ
أَيَّ دَاءٍ مَا إِنْ إِلَيْهِ دَوَاءُ
نَكَدَ خَالِدٌ وَبُوسٌ مُقِيمٌ
وَشَقَاءٌ يَجْدُ مِنْهُ شَقَاءُ
يَوْمَ مَنْفَيْسَ وَأَلْبِلَادَ لِكِسْرَى
وَالْمُلُوكِ الْمَطَاعَةِ الْأَعْدَاءُ
يَأْمُرُ السِّيفُ فِي الرِّقَابِ وَيَنْهَى
وَلِمَصْرِ عَلَى الْقَذَى إِغْضَاءُ
جِيءَ بِالْمَالِكِ الْعَزِيزِ ذَلِيلًا
لَمْ تُزَلْزَلْ فَوَادُهُ أَلْبَاسَاءُ
يَبْصُرُ الْآلَ إِذْ يَرَا حَبْشَةً فِي
مَوْقِفِ الذِّلِّ عَنُودَةً وَيَجَاءُ
بِنْتُ فِرْعَوْنَ فِي السَّلَاسِلِ تَمْشِي
أَزْعَجَ الدَّهْرِ عَرِيْهَا وَالْحَفَاءُ

فَكَانَ لَمْ يَنْهَضَ بِهَوْدَجِهَا الدَّهْ
رَ وَلَا سَارَ خَلْفَهَا الْأُمَرَاءُ

* * *

وَأَبُوهَا الْعَظِيمَ يَنْظُرُ لَمَّا
رُدِّيتَ مِثْلَمَا تَرَدَّى الْإِمَاءُ
أَعْطِيتَ جِرَّةً وَقِيلَ إِلَيْكَ النِّهْ
رَ قَوْمِي كَمَا تَقُومُ النِّسَاءُ
فَمَشَتْ تُظْهِرُ الْإِبَاءَ وَتَحْمِي الدَّ
مَعَ أَنَّ تَسْتَرْقُّهُ الضَّرَاءُ
وَالْأَعَادِي شَوَاخِصٌ وَأَبُوهَا
بِيَدِ الْخَطْبِ صَخْرَةَ صَمَاءُ
فَأَرَادُوا لِيَنْظُرُوا دَمْعَ فِرْعَوْنَ
نَ، وَفِرْعَوْنَ دَمْعَهُ الْعَنْقَاءُ
فَأَرَوْهُ الصَّدِيقَ فِي ثَوْبٍ فَقَرَّ
يَسْأَلُ الْجَمْعَ وَالسُّؤَالَ بِلَاءُ
فَبِكِي رَحْمَةً وَمَا كَانَ مَنْ يَبْ
كِي وَلَكِنَّمَا أَرَادَ الْوَفَاءُ

هكذا الملكُ والملوك وإن جار
ر زمان وروعتْ بَلْواءُ

* * *

لا تسلني ما دولة الفرس ! ساءت
دولةُ الفُرس في أَلْبِلاد وساؤوا
أمةً همها الخرائب تبلي
ها وحقُّ الخرائب الإعلاءُ
سلبتْ مصرَ عزِّها، وكستها
ذِلَّةً ما لها الزمانَ انقضاءُ
وارتوى سيفها فعاجلها الله
ه بسيف ما إن له إرواءُ
طَلْبَةٌ للعباد كانت لإسكند
در في نيلها اليد البيضاءُ
شاد إسكندر لمصر بناءً
لم تشده الملوك والأمرأ
بلداً يَرْحَل الأنام إليه
ويحجُّ الطلاب والحكماءُ

عاش عمراً في أَلْبَحَرِ ثَغَرِ المَعَالِي
وَالْمَنَارِ الَّذِي بِهِ الْاِهْتِدَاءُ
مَطْمَئِنّاً مِنْ الْكُتَائِبِ وَالْكُتْ
بِ بِمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعَلَاءُ
يَبْعَثُ الضُّوءَ لِلْبِلَادِ فَتَسْرِي
فِي سَنَاهِ الْفُهُومِ وَالْفُهُمَاءِ
وَالْجَوَارِي فِي أَلْبَحَرِ يُظْهِرْنَ عِزَّ
مَلِكِ وَالْبَحْرِ صَوْلَةَ وَثِرَاءِ
وَالرَّعَايَا فِي نِعْمَةٍ ، وَلِبَطْلِيَةٍ
مُوسٍ فِي الْأَرْضِ دَوْلَةَ عَلِيَاءِ
فَقَضَى اللَّهُ أَنْ تَضِيَّعَ هَذَا الْمَلِكُ
أُنْثَى صَعْبٌ عَلَيْهَا الْوَفَاءُ
تَخَذَتْهَا رُومًا إِلَى الشَّرِّ تَمْهِيمٍ
مَدّاً ، وَتَمْهِيدُهُ بِأُنْثَى بَلَاءِ
فَتَنَاهَى الْفَسَادَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ
ضَوْجَ وَجَازِ الْأَبَالِسِ الْإِغْوَاءِ
ضَيَّعَتْ قِصَرَ الْبَرِيَّةِ أُنْثَى
يَا لَرَبِّي مَا تَجَرُّ النِّسَاءُ

فتنت منه كهفَ روما المرَجى
والحُسام الذي به الانتقاء
قاهرَ الخصم وألجَحَافلٍ مهما
جدَّ هولُ ألَوغى وجدَّ اللقاء
فأتاها من ليس تملكه أن
شيء ولا تسترِقه هيفاء
بطلُ الدَّولتين جامي حمى رُو
ما الذي لا تقوده الأهواء
أخذ الملك وهي في قبضة الأف
معى عن الملك والهوى عمياء
سلبتها الحياة فاعجب لِرَقْطَا
ء أراحت منها الورى رِقْطَاء
لم تُصب بالخداع نجحاً ولكن
خدعوها بقولهم حسناء
قتلت نفسها وظنت فِداء
صَغُرَتْ نفسها وقلَّ الفداء
سَلَّ كِلوبِترة المكاييد هلا
صدَّها عن ولاء روما الدهاء
فبروما تأيَّدت ، وبروما
هي تشقى وهكذا الأعداء

ولروما أملك الذي طالما وا
 فاه في السر نصحتها وألولا
 وتولت مصرأ يميناً على المص
 ري من دون ذا الوري عسراء
 تسمع الأرض قيصرأ حين تدعو
 وعقيم من أهل مصر الدعاء
 وينيل الوري الحقوق فإن نا
 دته مصر فأذنه صماء
 فاصبري مصر للبلاء ، وأنى
 لك ؟ والصبر للبلاء بلاء
 ذا الذي كنت تلتجين إليه
 ليس منه إلى سواه التجاء

* * *

رب شقت العباد أزمان لا كد
 ب بها يهتدى ولا أنبياء
 ذهبوا في الهوى مذهب شتى
 جمعتها الحقيقة الزهراء

فَإِذَا لَقَّبُوا قَوِيًّا إِلَهًا
فَلَهُ بِالْقُوَى إِلَيْكَ انْتِهَاءُ
وَإِذَا آثَرُوا جَمِيلاً بَتَنْزِيرِ
هُ فَإِنَّ الْجَمَالَ مِنْكَ حَبَاءُ
وَإِذَا أَنْشَأُوا التَّمَاثِيلَ غُرًّا
فَإِلَيْكَ الرُّمُوزُ وَالْإِيمَاءُ
وَإِذَا قَدَّرُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَا
بَاءً فَمِنْكَ السَّنَا وَمِنْكَ السَّنَاءُ
وَإِذَا أَلَّهُوا النُّبَاتَ فَمَنْ آ
ثَارُ نِعْمَاكَ حُسْنُهُ وَالنَّمَاءُ
وَإِذَا يَمَّمُوا الْجِبَالَ سَجُودًا
فَالْمَرَادُ الْجَلَالَةُ الشَّمَاءُ
وَإِذَا تَعَبَّدَ الْبَحَارُ مَعَ الْأَسْمَةِ
حَاكِ وَالْعَاصِفَاتُ وَالْأَنْوَاءُ
وَسَبَاحُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرَّ
حَامُ وَالْأُمَهَاتُ وَالْآبَاءُ
لِعَلَّاكَ الْمَذَكَّرَاتُ عِبِيدُ
خُضَّعُ وَالْمُؤَنِّثَاتُ إِمَاءُ

جمع الخلقَ والفضيلةَ سرٌّ
شفَّ عنه الحجابُ فهو ضياءُ

* * *

سجدت مصر في الزمان لإيزير
س الندى من لها اليد البيضاء
إن تل البرَّ فالبلاد نزار
أو تل البحر فالرياح رخاء
أو تل النفس فهي في كل عضو
أو تل الأفق فهي فيه ذكاء
قيل إيزيس: ربة الكون لولا
أن توحَّدت لم تك الأشياء
واتخذت الأنوار حجبا فلم تب
صرك أرض ولا رأيتك سماء
أنت ما أظهر الوجود وما أخ
فهي وأنت الإظهار والإخفاء
لك آبيس والمحَبُّ أوزير
ريس وابنائه كلهم أولياء

مَثَّلْتُ لِلْعَيُونِ ذَاتُكَ وَالتَّمِ
ثِيلُ يَدْنِي مِنْ لَا لَهُ إِدْنَاءُ
وَادَّعَاكَ الْيُونَانُ مِنْ بَعْدِ مَصْرٍ
وَتَلَاهُ فِي حُبِّكَ الْقَدَمَاءُ
فَإِذَا قِيلَ مَا مَفَاخِرُ مَصْرٍ
قِيلَ مِنْهَا إِيْزِيْسَهَا الْغُرَاءُ

* * *

رَبُّ هَذِي عَقُولُنَا فِي صِبَاهَا
نَالَهَا الْخَوْفَ وَاسْتَبَاهَا الرِّجَاءُ
فَعَشِقْنَاكَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الرَّسُّ
لِ وَقَامَتْ بِحُبِّكَ الْأَعْضَاءُ
وَوَصَلْنَا السُّرَى فَلَوْلَا ظِلَامُ الدِّ
جَهْلٌ لَمْ يَخْطُنَا إِلَيْكَ أَهْتِدَاءُ
وَاتَّخَذْنَا الْأَسْمَاءَ شَتَّى فَلَمَّا
جَاءَ مُوسَى انْتَهَتْ لَكَ الْأَسْمَاءُ
حَجَّنَا فِي الزَّمَانِ سِحْرًا بِسِحْرِ
وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَى الْعَصَا السَّعْدَاءُ

ويريد الإله أن يُكْرَمَ العقـ
 ـلُ وألاَّ تحقَّر الآراءُ
 ظنَّ فرعون أن موسى له وا
 فٍ وعند الكرام يُرجى الوفاءُ
 لم يكن في حسابه يوم ربِّي
 أن سيأتي ضدَّ الجزاء الجزاءُ
 فرأى الله أن يعقَّ ولـ
 ه تفي لا لغيره الأنبياءُ
 مصر موسى عند انتماء وموسى
 مصرُ إن كان نسبةً وانتماءُ
 فبه فخرها المويِّد مهما
 هُزَّ بالسيد الكليم اللواءُ
 إن تكن قد جفته في ساعة الشك
 فحظ الكبير منها الجفاءُ
 خلَّة للبلاد يشقى بها النا
 س وتشقى الديار والأبناءُ
 فكبير ألا يصان كبير
 وعظيم أن يُنبذ العظماءُ

وُلِدَ الرِّفْقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى
 والمروءات والهدى والحياء
 وازدهى الكون بالوليد وضاءت
 بسناه من الثرى الأرجاء
 وسرت آية المسيح كما يـ
 ري من الفجر في الوجود الضياء
 تملأ الأرض وألْعَالمَ نوراً
 فالثَّرى مائج بها وضاء
 لا وعيدٌ ، لا صولة ، لا انتقام
 لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
 ملك جاور الترابَ فلما
 ملَّ ، نابت عن التراب السماء
 وأطاعته في الإله شيوخ
 خُشَعٌ خُضَعٌ له ضعفاء
 أذعن الناس والملوك إلى ما
 رسموا والعقول والعقلاء
 فلهم وقفة على كل أرض
 وعلى كل شاطئٍ إرساء

دخلوا ثيبةً فأحسن لقياً
 هم رجال بثيبة حكماء
 فهمو السر حين ذاقوا ، وسهل
 أن ينال الحقائق الفهماء
 فإذا الهيكل المقدس دير
 وإذا الدير رونق وبهاء
 وإذا ثيبةً لعيسى ومنفي
 سُنْ ونيلُ الثراء والبطحاء
 إنما الأرضُ والفضاءُ لربي
 وملوك الحقيقة الأنبياء
 لهم الحبُّ خالصاً من رعايا
 هم وكل الهوى لهم والولاء
 إنما ينكر الديانات قوم
 هم بما ينكرونه أشقياء
 هرمت دولة القياصر والدو
 لات كالناس داوهُن الفناء

ليس تُغني عنها البلاد ولا ما
 لُ الأقاليم إن أتاها النداء
 نال روما ما نال من قبل آتية
 لنا وسمته ثيبة العصماء
 سنة الله في الممالك من قبل
 لُ ومن بعد ما لنعمي بقاء

* * *

أظلم الشرق بعد قيصر والغر
 ب وعم البرية الإدجاء
 فالورى في ضلاله متماد
 يفتك الجهل فيه والجهلاء
 عرف الله ضلّةً ، فهو شخص
 أو شهاب أو صخرة صماء
 وتولى على النفوس هوى الأو
 ثان حتى انتهت له الأهواء
 فرأى الله أن تطهر بالسي
 ف وأن تغسل الخطايا الدماء

وكذلك النفوس وهي مراض
بعض أعضائها لبعض فداء
لم يعاد الله العبيد ولكن
شقيمت بالغياوة الأغبياء
وإذا جلت الذنوب وهالت
فمن العدل أن يهول الجزاء
أشرق النور في العوالم لما
بشرتها بأحمد الأنبياء
باليتم الأممي والبشر المو
حى إليه العلوم والأسماء
قوة الله إن تولت ضعيفاً
تعبت في مراسمه الأقوياء
أشرف المرسلين . آيته النط
ق مبيناً . وقومه الفصحاء
لم ينفه بالنوابغ الغر حتى
سبق الخلق نحوه الخلقاء
وآتته العقول منقادة لل
ب ولبى الأعوان والنصراء

جاء للناس ، والسرائر فوضى
لم يولّف شتاتهن لواء
وحَمَى الله مستباح وشرع الد
ه والحق والصواب وراء
فلجبريل جيئة ورواح
وهبوط إلى الشرى وارتقاء
يُحَسَّب الأفق في جناحيه نور
سُلبتُهُ النجوم والجوزاء
تلك آي الفرقان أرسلها الد
ه ضياء يَهْدِي به من يشاء
نسخت سنة النبيين والرسـ
ل كما ينسخ الضياء الضياء
وحماها غُرُّ كرام أشدًا
هُ على الخصم بينهم رُحماء
أمة ينتهي البيان إليها
وتوول العلوم وألعماء
جازت النجم واطمأنت بأفق
مطمئن به ألسنا وألسناء

كلما حُثَّتْ الركاب لأرض
 جاور الرشاد أهلها والذكاء
 وعلا الحق بينهم وسما الفضة
 ل ونالت حقوقها الضعفاء
 تحملُ النجمَ والوسيلةَ والميد
 زانَ من دينها إلى من تشاء
 وتنيل الوجود منه نظاماً
 هو طبُّ الوجود وهو الدواء
 يرجع الناسُ والعصورُ إلى ما
 سنَّ والجاحدون والأعداء
 فيه ما تشتهي العزائم إن هـ
 مَّ ذووها ويشتهي الأذكاء
 فلمن حاول النعيم نعيم
 ولمن آثر الشقاء شقاء
 أيرى العُجمُ من بني الظل والما
 عجيبةً أن تُنجب البیداء
 وتثيرُ الخيام آساد هيجاً
 تَ تراها آسادها الهيجاء

ما أنافت على السواعد حتى الـ
 أَرْض طُرّاً في أَسْرَهَا وَالْفَضَاءُ
 تشهد الصّين والبحار وبغدا
 د ومصرُ والغربُ والحمراءُ
 من كعمرو البلاد والضاد مما
 شاد فيها والملة الغراءُ
 شاد للمسلمين ركناً جساماً
 ضافي الظل دأبه الإيواءُ
 طالما قامت الخلافة فيه
 فاطمأنت وقامت الخلفاءُ
 وانتهى الدين بالرجاء إليه
 وبنو الدين إذ هم ضعفاءُ
 من يصنّه يصن بقیة عزّ
 غيَّض التَّرك صفوه والثَّواءُ
 فابك عمراً إن كنت منصف عمرو
 إن عمراً لنيرٌ وضّاءُ
 جاد للمسلمين بالنيل ، والنبي
 ل لمن يقتنيه أفريقياءُ

فهي تعلو شأناً إذا حرر النير
ل وفي رقعة لها إزراء

* * *

واذكر الغر آل أيوب وأمدح
فمن المدح للرجال جزاء
هم حماة الإسلام والنفر البير
ض الملوك الأعزّة الصلحاء
كل يوم بالصالحية حصن
وببلبيس قلعة شماء
وبمصر للعلم دار وليضي
فان نار عظيمة حمراء
ولأعداء آل أيوب قتل
ولأسراهم قري وثواء
يعرف الدين من صلاح ويدري
من هو المسجدان والإسراء
إنه حصنه الذي كان حصناً
وحماه الذي به الاحتماء

يوم سار الصليبُ والحاملوه
 ومشى الغرب قومُه والنساء
 بنفوس تجول فيها الأمانى
 وقلوب تشور فيها الدماء
 يضمرون الدمار للحق والناس
 س ودين الذين بالحق جاؤوا
 ويهدُّون بالتلاوة وَالصُّدَّاءُ
 بان ماشاء بالقنا البذاء
 فتلقَّتْهُمُ عزائم صدق
 نص للدين بينهن خباء
 مزقت جمعهم على كل أرض
 مثلما مزَّق الظلام الضياء
 وسبت أمرد الملوك فردَّتْ
 ه وما فيه للرعايا رجاء
 ولو أنَّ المليك هيبَ أذاه
 لم يخلصه من أذاها الفداء

هكذا المسلمون والعرب الخا
لون لا ما يقوله الأعداء
فبهم في الزمان نلنا الليالي
وبهم في ألورى لنا أنباء
ليس للذل حيلة في نفوس
يستوي الموت عندها والبقاء

* * *

واذ كر الترك إنهم لم يطاعوا
فيرى الناس أحسنوا أم أسأؤوا
حكمت دولة الجراكس عنهم
وهي في الدهر دولة عسراء
واستبدت بالأمر منهم ف«باشا»
الترك في مصر آلة صماء
يأخذ المال من مواعيد ما كا
نوا لها منجزين فهي هباء
ويسومونه الرضا بأمر
ليس يرضى أقلهن الرضاء

فيُدارى ليعصمَ الغدَ منهم
 والمداراةُ حكمةٌ ودَهَاءُ
 وَأَتَى النَّسْرُ يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْباً
 حَوْلَهُ قَوْمُهُ النَّسُورُ ظِمَاءُ
 يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ
 دَوْلَةُ عَرْضِهَا الثَّرَى وَالسَّمَاءُ
 حَلَمْتُ رُومَةً بِهَا فِي اللَّيَالِي
 وَرَأَاهَا الْقِيَاصُ الْأَقْوِيَاءُ
 فَآتَتْ مِصْرَ رُسُلِهِمْ تَتَوَالِي
 وَتَرَامَتْ سَوَادُهَا الْعُلَمَاءُ
 وَلَوْ أَسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيْسُ رُومًا
 لِأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةٍ الْأَنْبَاءُ
 عَلِمْتُ كُلَّ دَوْلَةٍ قَدْ تَوَلَّتْ
 أَنَا سُمُّهَا وَأَنَا الْوَبَاءُ
 قَاهِرُ الْعَصْرِ وَالْمَمَالِكِ نَابِدُ
 يُونُ وَلَّتْ قَوَادِهِ الْكِبْرَاءُ

جاء طيشاً، وراح طيشاً ومن قبـ
لُ أطاشت أناسها العلياء
سكتت عنه ، يوم عيرها الأهمـ
رام ، لكن سكوتها استهزاء
فهي توحى إليه أن تلك (واتر
لو) فأين الجيوش أين اللواء

* * *

ذكري المولد

سلوا قلبي غداة سلا وثابا
لعلَّ على الجمال له عتابا
ويُسألُ في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمال له صوابا؟
وكنْتُ إذا سألتُ القلبَ يوماً
تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي تُكِلَّ الشبابا
تسرَّب في الدموع فقلتُ ولَّى
وصفَّق في الضلوع فقلتُ ثابا
ولو خُلِقَتْ قلوب من حديدٍ
لما حَمَلَتْ كما حَمَل العذابا

وَأَحْبَابٍ سُقِيتُ بِهِمْ سُلاَفًا
وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصْرِ حَبَابَا
وَنَادَمْنَا الشَّبَابَ عَلَى بَسَاطٍ
مِنَ اللَّذَاتِ مُخْتَلَفٍ شَرَابَا
وَكُلُّ بَسَاطٍ عَيْشٍ سَوْفٍ يَطْوِي
وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَطَابَا
كَأَنَّ الْقَلْبَ بَعْدَهُمْ غَرِيبٌ
إِذَا عَادَتِهِ ذَكَرَى الْأَهْلَ ذَابَا
وَلَا يُنْبِيكَ عَنْ خُلُقِ اللَّيَالِي
كَمَنْ فُقِدَ الْأَحِبَّةُ وَالصَّحَابَا
أَخَا الدُّنْيَا ، أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى
تُبَدِّلُ كُلَّ آوْنَةٍ إِهَابَا
وَأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقِظُ هَاجِعَاتِ
وَأَتَرَعُ فِي ظِلَالِ السَّلَامِ نَابَا
وَمِنْ عَجَبٍ تُشَيِّبُ عَاشِقِيهَا
وَتُفْنِيهِمْ وَمَا بَرَحَتْ كَعَابَا

فمن يَغْتَرُّ بالدنيا فإني
 لبستُ بها فأبليتُ الشبابا
 لها ضحكُ القيانِ إلى غبي
 ولي ضحكُ اللبيبِ إذا تغابي
 جنيتُ بروضِها ورداً وشوكاً
 وذقتُ بكأسِها شهداً وصابا
 فلم أرَ غيرَ حكمِ الله حكماً
 ولم أرَ دونَ بابِ الله بابا
 ولا عَظُمْتُ في الأشياءِ إلا
 صحيحَ العلمِ ، والأدبِ اللُّبابا
 ولا كَرَّمْتُ إلا وجهَ حرٍّ
 يقلدُ قومه المئِنَّ الرغابا
 ولم أرَ مثلَ جمعِ المالِ داءً
 ولا مثلَ البخيلِ به مُصابا
 فلا تقنطِرْ شهوته . وزنها
 كما تزنُ الطعامَ أو الشرابا

وخذ لبنيك والأيام ذخراً
وأعط الله حصته احتساباً
فلو طالعت أحداث الليالي
وجدت الفقر أقربها انتياباً
وأن البر خير في حياة
وأبقى بعد صاحبه ثواباً
وأن الشر يصدع فاعليه
ولم أر خيراً بالشر آباء
فرفقاً بالبنيين إذا الليالي
على الأعقاب أوقعت العقاباً
ولم يتقلدوا شكر اليتامى
ولا أدرعوا الدعاء المستجاباً
عجبت لمعشر صلوا وصاموا
عواهر خشية وتقى كذاباً
وتلفيهم حبال المال صماً
إذا داعي الزكاة بهم أهباباً

لقد كنتموا نصيبَ الله منه
كأنَّ الله لم يُحصِ النصابا
ومن يعدل بحبِّ الله شيئاً
كحبِّ المال ، ضلَّ هوىً وخابا
أراد الله بالفقراء برأ
وبالأيتام حباً وارتيابا
فربَّ صغير قومٍ علَّموه
سَمًا وحمى المُسَوِّمةَ العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً
ولو تركوه كان أذىً وعابا
فعلَّم ما استطعت ، لعل جيلاً
سيأتي يحدثُ العجب العجابا
ولا ترهق شباب الحيِّ يأساً
فإنَّ اليأس يخترمُ الشبابا
يريد الخالق الرزق اشتراكاً
وإنَّ يكُ خصَّ أقواماً وجابي

فما حَرَّمَ المَجْدَّ جَنَى يَدِيهِ
 وَلَا نَسِيَ الشَّقِيَّ وَلَا الْمُصَابَا
 وَلَوْلَا البَخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقُ
 عَلَى الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غَضَابَا
 تَعَبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْمَاءُ وَقَبِيلِي
 دُعَاةُ الْبِرِّ قَدْ سَئَمُوا الْخَطَابَا
 وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادِ
 فَجَرْتُ بِهِ الْيَنَابِيعَ الْعِذَابَا
 أَلَمْ تَرِ لِلْهَوَاءِ جَرِي فَأَفْضَى
 إِلَى الْأَكْوَاخِ وَاخْتَرَقَ الْقَبَابَا
 وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي الْآفَاقِ تَغْشَى
 حِمَى كَسْرَى كَمَا تَغْشَى الْيَبَابَا
 وَأَنَّ الْمَاءَ تَرَوِي الْأُسْدَ مِنْهُ
 وَيَشْفِي مَنْ تَعْلَعَلَهَا الْكَلَابَا
 وَسَوَّى اللَّهُ بَيْنَكُمْ الْمَنَابِيَا
 وَوَسَّدَ كُمْ مَعَ الرُّسُلِ التَّرَابَا

وَأَرْسَلَ عَائِلاً مِنْكُمْ يَتِيماً

دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا

نَبِيُّ الْبِرِّ بَيَّنَّه سَبِيلاً

وَسَنَّ خِلَالَهُ وَهَدَى الشُّعَابَا

تَفَرَّقَ بَعْدَ عَيْسَى النَّاسُ فِيهِ

فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابَا

وَشَافَى النَّفْسَ مِنْ نَزْغَاتِ شَرٍّ

كَشَافٍ مِنْ طِبَائِعِهَا الذُّنَابَا

وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدْيِ سُبُلًا

وَكَانَتْ خِيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا

وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ حَتَّى

أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا

وَمَا نِيلَ الْمَطَالِبَ بِالْتَمْنَى

وَلَكِنْ تَوَخَّذَ الدُّنْيَا غِلَابَا

وما استعصى على قومٍ منالٍ
إذا الإقدام كان لهم ركابا

تجلى مولد الهادي وعت
بشائرهُ البوادي والقصابا
وأسدتْ للبريِّه بنت وهبٍ
يداً بيضاء طوّقتِ الرقابا
لقد وضعته وهاجاً منيراً
كما تليدُ السماواتُ الشهابا
فقام على سماء البيتِ نوراً
يضيءُ جبالَ مكة والنَّقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً
وفاح القاع أرجاء وطابا
أبا الزهراء قد جاوزتُ قدري
بمدحك بيد أن لي أنتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان

إذا لم يتخذك له كتابا

مدحتُ المالِكين فزدتُ قدراً
 فحين مدحتُك اقتدتُ السحابا
 سألتُ الله في أبناء ديني
 فإن تكن الوسيلة لي أجابا
 وما للمسلمين سواك حصن
 إذا ما الضرُّ مسَّهُم ونابا
 كأن النحاس حين جرى عليهم
 أطار بكل مملكة غرابا
 ولو حفظوا سبيلك كان نوراً
 وكان من النحوس لهم حجابا
 بنيت لهم من الأخلاق ركناً
 فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
 وكان جنابهم فيها مهيباً
 وللأخلاق أجدر أن تهابا
 فلولاها لساوى الليث ذباً
 وساوى الصارمُ الماضي قرابا ١

فإن قرنت مكارمها بعلم
تذلتِ العلا بهما صعبا
وفي هذا الزمان مسيحٌ علم
يرد على بني الأمم الشبابا

* * *

الثعلب والديك

بَرَزَ الثعلبُ يوماً في شعار الواعظينا
 فمشى في الأرض يهدي ، ويسبُّ الماكرينا
 ويقولُ «الحمد للـ» هـ إله العالمينا
 يا عباد الله توبوا فهو كهفُ التائبينا
 وأزهدوا في الطير إنَّ ألعيشَ عيشَ الزاهدينَا
 واطلبوا الديك يُودِّن لصلاة الصُّبح فينا
 فأتى الديك رسولُ من إمام الناسكينا
 عَرَضَ الأمرَ عليه وهو يرجو أن يلينا
 فأجاب الديك: عذراً يا أضلَّ المهتدينا !
 بلِّغ الثعلبَ عني ، عن جدودي الصالحينا
 عن ذوي التيجان مَن دخل البطن اللِّعينا
 أنهم قالوا وخيرُ القول قولُ العارفينَا :
 «مُخْطِئٌ مَن ظَنَّ يوماً أنَّ للثعلبِ ديناً» !

سليمان والهدد

وقفَ الهددُ في با بِ سليمان بذلَّهُ
 قال: «يا مولاي كُن لي عِيشتي صارتُ مِملَّةً
 متُّ من حَبَّةٍ بُرٌّ أَحَدَثَتْ فِي الصَّدْرِ غُلَّةً
 لا مِياهُ النِيلِ تُروِيها ————— ولا أَمْواهُ دَجَلَةٌ
 وإذا دامت قَلِيلًا قَتَلْتَنِي شَرًّا قَتَلَهُ !
 فَأَشَارَ السِّيدُ العَا لي إِلَى مَنْ كَانَ حَوْلَهُ:
 قَدْ جَنَيْتُ الْهَدْدُ ذَنْبًا وَأَتَيْتُ فِي اللَّوْمِ فَعَلَهُ
 تِلْكَ نَارُ الْإِثْمِ فِي الصَّدِّ رِ ، وَذِي الشُّكْوَى تَعَلَّهُ
 مَا أَرَى الْحَبَّةَ إِلَّا سُرِقَتْ مِنْ بَيْتِ نَمْلَةٍ
 إِنَّ لِلظَّالِمِ صَدْرًا يَشْتَكِي مِنْ غَيْرِ عَلَيْهِ !

ملك الغربان

كان للغربان ، في العصر ، ملك
وله في النَّخْلَةِ الْكُبْرَى أَرِيكَ
فيه كرسي وخِدر ومهود
لصغار الملك ، أصحاب العهود
جاءه يوماً «ندور» الخادم ،
وهو في الباب الأمين الحازم ،
قال : «يا فرع الملوك الصالحين
أنت ما زلت تحبُّ الناصحين
سوسةً كانت على القصر تدور
جازت القصر ، ودبت في الجذور
فابعث الغربان في إهلاكها
قبل أن نهلك في أشراكها»

ضحك السلطان من هذا المقال
 ثم أدنى خادماً الخير وقال :
 « أنا ربُّ الشَّوكة الضافي الجناح
 أنا ذو المنقارِ غلاب الرياح
 « أنا لا أنظر في هذي الأمور
 أنا لا أبصر تحتي يا ندور !
 ثمَّ لما كان عامٌ بعدَ عام
 قام بين الريح والنخل خصام
 وإذا النخلة أقوى جِذْعُها
 فبدا للريح سهلاً قلعها
 فهوت للأرض كالتلَّ الكبير
 وهوى الديوانُ وانقضَّ السَّير .
 فدَّها السلطان ذا الخطب المَهول
 ودعا خادَمَهُ الغالي يقول :
 يا ندور الخير أسعف بالصياح
 ما ترى ما فعلت فينا الرياح ؟
 قال : يا مولاي لا تسألُ ندور
 « أنا لا أنظرُ في هذي الأمور ! »

الاسد ووزيره والحمار

الليث مَلِكُ القِفَارِ :
 سَعَتْ إِلَيْهِ الرعايا
 قالت : تَعِيشُ وَتَبْقَى
 ماتَ الوزيرَ فَمَنْ ذا
 قال : الحمَارُ وزيرِي
 فاستَضَحكتَ ثم قالت
 وخَلَفْتَهُ وَطارت
 حتَّى إِذَا الشَّهْرُ ولى
 لَمْ يَشْعُرِ اللَّيْثُ إِلَّا
 القَرْدُ عِنْدَ اليَمَنِ

وما تَضُمُّ الصَّحاري
 يَوْمًا بِكُلِّ انْكَسار
 يا دامي الأظفار
 يسوسُ أَمْرَ الضَّواري
 قضى بهذا اختياري
 « ماذا رَأَى في الحمَار »
 بِمُضْحَكٍ الْأَخْبَار
 كَلِيلَةٌ أَوْ نَهَار
 وَمُلْكُهُ فِي دِمَار
 وَالْكَلبُ عِنْدَ الْيسَار

(١) الليث : الاسد .

(٢) الضواري : الوحوش .

(٣) خلفته : تركته .

والقطُّ بين يديه
فقال : مَنْ في جُودِي
أَيْنَ اقتداري وبطشي
فجاءه القردُ سرًّا ،
« يا عالي الجاه فينا
رأيُ الرعيَّة فيكم

يلهو بعظْمَةِ فار !
مثلي عديم الوقار ؟
وهيبتني واعتباري
وقال ، بعد اعتذار :
كن عالي الأنظار
من رأيكم في الحمار »

نكبة بيروت

ياربُّ أَمْرَكَ فِي الْمَمَالِكِ نَافِذُ
وَالْحُكْمَ حُكْمُكَ فِي الدَّمِ الْمَسْفُوكِ
إِنْ شِئْتَ أَهْرِقْهُ وَإِنْ شِئْتَ أَحْمِهِ
هُوَ لَمْ يَكُنْ لِسِوَاكَ بِالْمَمْلُوكِ
وَأَحْكَمَ بَعْدَكَ إِنْ عَدَلَكْ لَمْ يَكُنْ
بِالْمُتَرَيِّ فِيهِ وَلَا الْمَشْكُوكِ
أَلْأَجَلَ آجَالِ دَنْتٍ وَتَهِيَّاتٍ
قَدَّرْتَ ضَرْبَ الشَّاطِيءِ الْمَتْرُوكِ ؟
مَا كَانَ يَحْمِيهِ وَلَا يُحْمِي بِهِ
فُلْكَانَ أَنْعَمَ مِنْ بَوَاخِرِ « كُوكِ »
هَٰذِي بِجَانِبِهَا الْكَسِيرِ غَرِيقَةٌ
تَهْوِي ، وَتَلُكُ بَرْكُنَهَا الْمَدْكُوكُ

(١) قبلت هذه القصيدة على اثر ضرب الاسطول الايطالي مدينة بيروت

بيروت ، مات الأسد حتف أنوفهم
 لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
 سبعون ليثاً أحرِقوا أو أغرقوا
 ياليتهم قُتِلوا على « طبروك »
 كلُّ يصيدُ الليثَ وهو مقيَّدُ
 ويعزُّ صيدُ الضيغمِ المفكوك
 يا مضرِبَ الخيمِ المنيفةِ للقرى
 ما أنصف العُجمُ الألى ضربوك
 ما كنت يوماً للقنابل موضعاً
 ولو أنها من عسجدٍ مسبوك
 بيروتُ ، ياراحَ النزِيلِ وأنسَه
 يمضي الزمانُ عليَّ لاأ سلوك
 الحسنُ لفظ في المدائن كلَّها
 ووجدته لفظاً ومعنى فيك
 نادمتُ يوماً في ظلالِك فتيةً
 وسَمُوا الملائك في جلالِ ملوك

يُنْسُون (حساناً) عصابة (جَلَّقِ)
حتى يكاد بجَلَّقِ يفديك
تالله ما أحدثِ شراً أو أذىً
حتى تراعي أو يُراعَ بُنوك
أنتِ التي يحمي ويمنع عِرضها
سيف الشريف وخنجر الصُّعلوك
إن يجهلوك فإن أُمك سبـوريا
والأبلى الفرد الأشمُّ أبوك
والسابقين إلى المفاخر والعُلا
بذلّه المكارم والندی أهلوك
سالت دماءً فيكٍ حول مساجدٍ
وكنائس ومدارس و«بُنوك»
كنا نُؤمِّل أن يُمَدَّ بقاؤها
حتى تبِلَّ صدى القنسا المشبوك
لك في رَبِّي النيل المبارك جيرةٌ
لو يقدرونَ بدمعهم غسلوك

وداع اللورد كرومر

أيامكم أم عهد إسماعيل؟
أم أنت فرعونُ يسوسُ النيل؟
أم حاكمٌ في أرض مصر بأمره
لا سائلاً أبداً ولا مسؤولاً؟
يا مالكا رِقَّ الرقاب ببأسه
هلا أتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت
فكأنك الداء العيأ رَحِيلا
أوسَعَتنا يومَ الوداع إهانةً
أدبٌ لعمرِكَ لا يُصِيبُ مثيلا
هلاً بدا لك أن تجامل بعدما
صاغَ الرئيسُ لكَ الثَّنا إكليلا

انظر إلى أدب الرئيس ولطفه
 تجد الرئيس مهذباً ونبيلاً
 في ملعب للمضحكات مشيداً
 مثلت فيه المبكيات فصولا
 شهد (الحسين) عليه لعن أصوله
 وتصدر الأعمى به تطفيلاً
 جبنٌ أقلّ وخطٌّ من قدريهما
 والمرء إن يجبن يعيش مرذولا
 لما ذكرت به البلاد وأهلها
 مثلت دور مماتها تمثيلاً
 أنذرتنا رقاً يدوم وذلةً
 تبقى وحالا لا ترى تطويلاً
 أحسبت أن الله دونك قدرةً؟
 لا يملك التغيير والتبديلاً؟
 الله يحكم في الملوك ولم تكن
 دولٌ تنازعه القوى لتدولا
 فرعونٌ قبلك كان أعظم سطوةً
 وأعزَّ بين العالمين قبيلاً

اليوم أَخَلَفْتُ الوعودَ حَكُومَةً
 كُنَّا نَظُنُّ عَهْدَهَا الْإِنْجِيلَا
 دَخَلْتُ عَلَى حَكَمِ الْوِدَادِ وَشَرَعِهِ
 مَصْرًا فَكَانَتْ كَالسُّلَالِ دُخُولَا
 هَدَمْتُ مَعَالِمَهَا وَهَدَّتُ رُكْنَهَا
 وَأَضَاعْتُ أَسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولَا
 قَالُوا جَلَبَيْتَ لَنَا الرِّفَاهَةَ وَالْغِنَى
 جَحَدُوا الْإِلَهَ وَصَنَعَهُ وَالنِّيْلَا
 كَمْ مِئَّةٍ مُوهُومَةٍ أَتَبِعْتَهَا
 مَنَّا عَلَى الْفَطَنِ الْخَبِيرِ ثَقِيلَا
 فِي كُلِّ تَقْرِيرٍ تَقُولُ خَلَقْتُكُمْ
 أَفْهَلْ تَرَى تَقْرِيرَكَ التَّنْزِيلَا ؟
 هَلْ مِنْ نَدَاكَ عَلَى الْمَدَارِسِ أَنَّهَا
 تَذَرُ الْعُلُومَ وَتَأْخُذُ (الْفُوتْبُولَا)
 أَمْ مِنْ صَيَانَتِكَ الْقَضَاءِ بِمَصْرٍ أَنَّ
 تَأْتِي بِقَاضِي دَنْشَوَايَ وَكِيلَا ؟

أَمْ هَلْ يَعْدِلُكَ الْإِضَاعَةُ مَنَّةً

جيش كجيش الهندِ باتَ ذليلاً

انظر إلى فتيلانه ما شأنُهُم

أَوَلَيْسَ شَأْنًا فِي الْجِيُوشِ ضَيْلًا

حَرَمَتْهُمْ أَنْ يَبْلُغُوا رُتَبَ الْعُلَا

ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً

فإِذَا تَطَلَّعتِ الْجِيُوشُ وَأَمَلَتْ

مُسْتَقْبَلًا لَمْ يَمْلِكُوا التَّأْمِيلًا

من بعد ما زَقُّوا لِإِدْوَرَدَ الْعُلَا

فَتَحَا عَرِيضًا فِي الْبِلَادِ طَوِيلًا

“ “ “

لَوْ كُنْتُ مِنْ حَمْرِ الثِّيَابِ عَبْدُكُمْ

من دون عيسى محسناً ومنيلاً

أَوْ كُنْتُ بَعْضَ الْإِنْكَلِيزِ قَبْلُكُمْ

مَلِكًا أَقْطَعَ كَفَّهُ تَقْبِيلًا

أَوْ كُنْتُ عُضْوًا فِي (الْكُلُوبِ) مَلَأْتُهُ
أَسْفًا لِفُرْقَتِكُمْ بُكَاءٌ وَعُويلاً
أَوْ كُنْتُ قَسِيصًا يَهِيمٌ مَبْشَرًا
رَتَّلْتُ آيَةَ مَدْحِكُمْ تَرْتِيلاً
أَوْ كُنْتُ صِرَافًا بَلَنْدَنَ دَائِئًا
أَعْطَيْتُكُمْ عَنْ طَيْبَةٍ تَحْوِيلًا
أَوْ كُنْتُ (تَيْمِسْكُمْ) مَلَأْتُ صَحَائِفِي
مَدْحًا يَرْدُّدٌ فِي الْوَرَى مَوْصُولًا
أَوْ كُنْتُ فِي مَصْرِ نَزِيلًا جَاهِدًا
سَبَّحْتُ بِاسْمِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
أَوْ كُنْتُ (سِرْيُونًا) حَلَفْتُ بِأَنْكُمْ
أَنْتُمْ حَبُوتُمْ بِالْقِنَاةِ الْجِيلَا
مَا كَانَ مِنْ عَقْبَاتِهَا وَصَعَابِهَا
ذَلَّلْتُمُوهُ بَعْزَ مَكِّمْ تَذْلِيلًا
عَهْدُ الْفَرَنْجِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ عَهْدَهُمْ
لَا يَبْخُسُونَ الْمُحْسِنِينَ فَتِيلًا

فأرحل بحفظِ الله جلَّ صنيعه
 مستغفياً إن شئت أو معزولا
 واحمل بساقلك ربطةً في لندن
 واخلق هناك غراي أو كمبيلا
 أو شاطر الملك العظيم بلاده
 وُسِّ الممالك عرضها والطولا
 إنا تمَنِّينا على الله أُلْمُنَا
 والله كان بنيلهنَّ كفيلا
 من سبِّ دين محمدٍ فمحمَّدُ
 متمكن عند الإله رسولا

* * *

خاتمة رياض

كبير السابقين من الكرام
برغمي أن أنالك بالملام (١)
مقامك فوق ما زعموا ولكن
رأيت الحق فوقك والمقام
لقد وجدوك مفتوناً فقالوا
خرجت من الوقار والاحتشام
وقال البعض كيدك غير خاف
وقالوا رمية من غير رام
وقيل شططت في الكفران حتي
أردت المنعمين بالانتقام

(١) قبلت هذه القصيدة بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠ في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية التي انشأتها في الإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤ وكان اللورد كرومر غميد الدولة المحتلة حاضراً هذا الافتتاح ، فتملقه الخطيب بكلام كفر به نعمة مصر واصحاب عرشها :

خطبت فكنت خطباً لا خطيباً
 أضيف إلى مصائبنا العظام
 لهجت بالاحتلال وما أتاه
 وجرحك منه لو أحسست دامي
 وما أغناه عن قال فيه
 وما أغناك عن هذا الترامي
 أحببتك البلاد طويل دهرٍ
 وذا ثمن الولاء والاحترام
 حقرت لها زمناً كنت فيه
 لعوباً بالحكومة والذمام
 محاسنه غراسك والمساوي
 لك الثمران من حمدٍ وذام
 فهلا قلت للشبان قولاً
 يليق بحافل الماضي الهمام؟
 يبتُّ تجارب الأيام فيهم
 ويدعو الرابضين إلى القيام

خطبتَ على الشبيبةِ غيرِ دارٍ
بأنك من مَشيبك في منام

ولولا أن للأوطانِ حباً
يُصمُّ عن الوشاية كالغرام

جنيتَ على قلوبِ الجمعِ يأساً
كأنك بينهم داعي الحِمام

أراعَكَ مقتلٌ من مصرَ باقٍ
فقتمَ تزيد سهماً في السهام

وهل تركت لك السبعونَ عقلاً
لعرفانِ الحلالِ من الحرام؟

ألا أنبيئك عن زمنٍ تَوَلَّى
فتذكُرهُ ودمعك في انسجام؟

سل «الحلمية» الفيحاء عنه
وسل داراً على «نور الظلام»

وسل من كان حولك عبدَ جاهٍ
يريكَ الحبَّ أو باغي حُطام

رأوا إرثاً سيذهب بعد حينٍ
 فكانوا عصبَةً في الاقتسام
 ونالوا السمعَ من أُذنٍ كريمٍ
 فنالوا منه أنواعَ المرام
 هم حزبٌ وسائر مصر حزب
 وأنت أصمٌّ عن داعي الوثام
 وكيف ينالُ عونَ الله قومٌ
 سرائرهم عواملُ الانقسام
 إذا الأحلام في قومٍ تولَّتْ
 أتى الكبراءُ أفعال الطغام
 فيا تلك الليالي لاتعودي
 ويا زمنَ النفاق بلا سلام
 أحبك مصر من أعماق قلبي
 وحبك في صميم القلب نامي
 سيجمعني بك التاريخ يوماً
 إذا ظهر الكرام على اللثام

لاجلكِ رحت بالدنيا شقياً
 أصدُّ الوجه والدنيا أمامي
 وأنظر جنة جمعت ذئاباً
 فيصرفُني الإِبَاءُ عن الزَّحامِ
 وهبْتُكَ غيرَ هيَّابٍ يراعاً
 أشدَّ على العدوِّ من الحسامِ
 سيكتبُ عنكِ فوقَ ثرى رياضٍ
 وفي التاريخِ صفحة الاتهامِ
 أفي السبعين والدنيا تولَّتْ
 ولا يرجي سوى حسنِ الختامِ
 تكونِ وأنتِ أنتِ رياضِ مصرِ
 عرابي اليوم في نظر الأنام (١)

* * *

(١) في هذا البيت تحامل على احمد عرابي ، الزعيم المصري الشهير .

علموه ۛ كيف يجفوه

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| ظالمٌ لاقيت منه ما كفى | علموه كيف يجفوه فجفا |
| أُتْراهم علموه السرفا ؟ | مسرفٌ في هجره ما ينتهي |
| ليتَ بدري إذ درى الذنب عفا | جعلوا ذنبي لديه سهري |
| وغريمي ما درى ما عرفا | عرف الناس حقوقي عنده |
| ثم ما صدقت حتى أخلفا | صح لي في العمر منه موعدٌ |
| يترضى مُستَهماً مُدْنفاً | مُستَهماً في هواه مُدْنفٌ |
| وأرى الحيلة أن لا تصيفا | يا خليلي صيفا لي حيلةٌ |
| هي ذي روحي فخذها ما أحتفي | أنا لو ناديتُ في ذلّةٍ |

خدعوها

خدعوها بقولهم حسناء وألغواني يغرهنَّ الثناء
إن رأني تميل عني كأن لم تك بيني وبينها أشياء!
نظرة فابتسامةً فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاء
ففراقٌ يكون فيه دواءٌ أو فراقٌ يكون منه الداء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا

نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيبٌ تعبَتُ في مراسه الأهواء
جاذبتني ثوبي العصي وقالت
أنتمُ الناسُ أيها الشعراء
فاتقوا الله في قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهنَّ هواءٌ

سويجع النيل

سُوَيْجِعَ النَّيْلَ رِفْقاً بالسويداءِ
فَمَا تَطِينُ أَنِينَ الْمَفْرَدِ النَّسَائِي
لِلَّهِ وَادٍ كَمَا يَهْوِي الْهَوَى عَجَبٌ
تَرَكْتَ كُلَّ خَلِيٍّ فِيهِ ذَا دَاءٍ
وَأَنْتَ فِي الْأَسْرِ تَشْكُو مَا تَكَابِدُهُ
لِصَخْرَةٍ مِنْ بَنِي الْأَعْجَامِ صَمَاءٍ
اللَّهُ فِي فَنَنِ تَلْهُو الزَّمَانِ بِهِ
فَإِنَّمَا هُوَ مُشْدُودٌ بِأَحْشَائِي
وَفِي جَوَانِحِكَ اللَّاتِي سَمَحَتْ بِهَا
فَلَوْ تَرَفَّقْتُ لَمْ تَسْمَحْ بِأَعْضَائِي
مَاذَا تَرِيدُ بِذِي الْأُنَاتِ فِي سَهْرِي
هَذَا جَفَوْنِي تَسْقِي عَهْدَ إِغْفَائِي

حَسْبُ المضاجع مني ما تعالج من
جنبي ومن كبدٍ في الجنب حراءُ
أُمسي وأصبح من نجواك في كَلَفٍ
حتى ليعشق نطقي فيك إصغائي
الليل يُنهضني من حيث يُقعدي
والنجم يملأُ لي والفكرُ صهبائي
آتي الكواكبَ لم أنقل لها قدماً
لا ينقضي سهري فيها وإسرائي
وألحظ الأرض أظوى ما يكون إلى
ما كان من آدم فيها وحواءُ
مويداً بك في حلِّي ومُرْتَحَلِي
وما هما غير إصباحي وإمسائي
تُوحِي إليّ الذي تُوحِي وتسمع لي
وفي سماعك بعد الوحي إغرائي

مضناك جفاه مرقده

| | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| مُضْنَاكَ جُفَاهُ مَرْقَدُهُ | وبكاهُ ورحم عوده |
| حِيرَانُ الْقَلْبِ مَعَاذُهُ | مقروحُ الجفن مسهده |
| أَوْدَى حَرَقًا إِلَّا رَمَقًا | يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ |
| يَسْتَهْوِي الْوَرَقَ تَاوَهُهُ | وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ |
| وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَعَبُهُ | وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيَقْعِدُهُ |
| وَيَعْلَمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ | شَجْنَا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ |
| كَمْ مَدَّ لَطِيفَكَ مِنْ شَرَكٍ | وَتَسَادَّبُ لَا يَتَصَيَّدُهُ |
| فَعَسَاكَ بِغُمُضٍ مُسْعِفُهُ | وَلَعَلَّ خِيَالَكَ مُسْعِدُهُ |
| الْحَسَنُ حَلَفْتُ بِيُوسِفِهِ | و (السورة) إِنَّكَ مُفْرَدُهُ |
| قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبْسًا | جَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ |
| وَتَمَنَّتْ كُلُّ مَقْطُوعَةٍ | يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ |
| جَعَدْتَ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي | أَكْذَلِكْ خَدُّكَ يَجْهَدُهُ |

قَدْ عَزَّ شَهُودِي إِذْ رَمَتَا
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرَكَهُ
سَبَبُ لِرِضَاكَ أُمِّهِدُهُ
بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي
وَيَقُولُ تَكَادُ تَجُنُّ بِهِ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ
قَسَمًا بِشَنَائِي ، لَوْلَوْهَا
وَرِضَابُ يَوْعَدُ كَوَثْرُهُ
وَبِخَالُ كَادَ يَحْجُجُ لَهُ
وَبِخَصَرِ أَوْهَنَ مِنْ جِلْدِي
مَا خَنْتُ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ

فَأَشْرْتُ لِحَدِّكَ أَشْهَدُهُ
فَأَبَى وَأَسْتَكْبِرُ أَصِيدُهُ
مَا بَالُ الْخَصْرِ يَعْقِدُهُ
لَا يَقْدِرُ وَاشِ يَفْسِدُهُ
بَابَ السَّلْوَانِ وَأَوْصِدُهُ
فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أَعْبُدُهُ
قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
وَحَنَائِي الْأَضْلَعُ مَعْبُدُهُ
قَسَمَ أَلْيَا قُوتٍ مُنْضَدُهُ
مَقْتُولُ أَلْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
لَوْ كَانَ يَقْبَلُ أَسْوَدُهُ
وَعَوَادِي الْهَجْرِ تَبْدُدُهُ
سَلَوِي بِالْقَلْبِ تَبَرُّدُهُ

توت عنخ آمون

قِفِّي يَا أُخْتَ (يُوشَعَ) خَبِّرِينَا
أَحَادِيثَ الْقُرُونِ الْغَابِرِينَ
وَقُصِّيْ مِنْ مِّصْرِهِمْ عَلَيْنَا
وَمِنْ دَوْلَاتِهِمْ مَا تَعْلَمِينَا
فَمِثْلِكَ مِنْ رَوَى الْأَخْبَارَ طَرًّا
وَمِنْ نَسَبِ الْقَبَائِلِ أَجْمَعِينَ
نَرَى لَكَ فِي السَّمَاءِ خُضَيْبَ قَرْنٍ
وَلَا نُحْصِي عَلَى الْأَرْضِ الطَّعِينَا
مَشَيْتٍ عَلَى الشَّبَابِ شَوَاءٍ نَارٍ
وَدَرْتٍ عَلَى الْمَشِيبِ رَجِي طَحُونَا
تُعِينِينَ الْمَوَالِدَ وَالْمَتَايَا
وَتُبْنِينَ الْحَيَاةَ وَتَهْدَمِينَا

فيا لكِ هِرَّةً أَكَلَتْ بَنِيهَا
 وما ولدوا ، وتنتظر الجنينا
 أُمُّ المالكين بني (أمون)
 لِيَهْنِكَ أَنَّهُمْ نَزَعُوا (أْمُونَا) (١)
 ولدت له (المآمين) الدواهي
 ولم تلدي له قطُّ (الأمينا)
 فكانوا الشهبَ جين الأرض ليل
 وجين الناس جِدُّ مُضِلِّلينا
 مشتُ بمنارهم في الأرض (روما)
 ومن أنوارهم قَبَسَتْ (أثينا)
 ملوكُ الدهر بالوادي أقاموا
 على (وادي الملوك) مُحَجَّبينا
 فربَّ مصفِّد منهم وكانت
 تُسَاقُ له الملوكُ مُصَفِّدينا
 تقيِّدُ في الترابِ بغير قيِّدٍ
 وحلَّ على جوانبه رهينا

(١) أمون : توت عنخ آمون ، أحد ملوك الفرعنة .

تعالى الله كان السحر فيهم
أليسوا للحجارة منطقينا؟
غَدُوا يَبْنُونَ مَا يَبْقَى وَرَاحُوا
وراء الآبَدَاتِ مُخَلَّدِينَا
إِذَا عَمَدُوا لِمَأْثَرَةٍ أَعْدُوا
لَهَا الْإِتْقَانُ وَالْخَلْقُ الْمُتِينَا
وَلَيْسَ الْخُلْدُ مَرْتَبَةً تُلْقَى
وَتُؤْخَذُ مِنْ شِفَاهِ الْجَاهِلِينَا
وَلَكِنْ مُنْتَهَى هِمَمٍ كَبَارٍ
إِذَا ذَهَبَتْ مُصَادِرُهَا ، بَقِينَا
وَسُرُّ الْعَبْقَرِيَّةِ حِينَ يَسْرِي
فَيَنْتَظِمُ الصَّنَائِعُ وَالْفُنُونَا
وَأَثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ
إِلَى التَّارِيخِ خَيْرُ الْحَاكِمِينَا
وَأَخَذُكَ مِنْ فَمِ الدُّنْيَا ثَنَاءً
وَتَرَكَّكَ فِي مَسَامِعِهَا طِينَا

فغالي في بنيك الصيد غالي
 فقد حُبَّ الغلوُ إلى بنينا
 شبابٌ قَنَّعٌ لا خير فيهم
 وبُورِك في الشباب الطامحينا
 فذاجيهم بعرشٍ كان صِنُوءاً
 لعرشك في شببته سينا
 وكان العزُّ حليته وكانت
 قوائمهُ الكتائب والسفينا
 وتاج من فرائده (ابن سיתי)
 ومن خرزاته (خوفو) و(ميننا)
 علا خدًّا به صعرٌ ، وأنفأ
 ترفَّع في الحوادث أن يدينا
 ولستُ بقائل ظلموا وجاروا
 على الأجراء أو جلدوا القطينا
 فإنَّا لم نُوقِ النَّقْصَ حتى
 نطالب بالكمال الأولينا

وما (البستيلُ) إلا بنتُ أَمْسٍ
وكم أكلَ الحديدُ بها صحينا
ورُبَّةٌ بيعة عَزَّتْ وطالتُ
بناها الناس أَمْسُ مُسخرينا
مُشِدَّةٌ لشافي أَلْعَمِي (عيسى)
وكم سَمَلَ أَلْقُسُوسُ بها عيونا
(أخا اللوردات) مثلك من تحلَّى
بحلية آلِهِ الْمُتَطَوِّعِينَا (١)
لك الأَصْلُ الذي نَبَتَتْ عليه
فروعُ المجد من (كرنار فونا)
ومالك لا يُعَدُّ وكل مال
سَيَفْنِيْ أَوْ سَيَفْنِي المالكينا
وجدتَ مذاق كل تليدِ مجد
فكيف وجدتَ مجد الكاسيينا ؟
نشرتَ صفائحاً فجزتك مصرُ
صحائف سُودد لا ينطوينا

(١) أخو اللوردات : هو اللورد كارنارفون .

فإن تك قد فتحت لها كنوزاً
فقد فتحت لك الفتح المبينا
فلو (قارون) فوق الأرض إلا
تمني لو رضيت به قرينا (١)
سبيلُ الخلدِ كان عليك سهلاً
وعادتهُ يكْدُ السالكينا
رأيتُ تنكراً وسمعتُ عتياً
فعدراً للغضاب المحنقينا
أبوتنا وأعظمهم ثراثُ
نحاذرُ أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحلَّ عليه ضيمٌ
ويذهبَ نهبةً لناهبينا
سكتَ فحام حولك كلُّ ظنٍّ
ولو صرَّحت لم تُثرِ الظنوننا
يقول الناس في سر وجهه
ومالك حيلة في المرجفينا

(١) قارون : يضرب به المثل في الغنى وكثرة المال .

أَمَنْ سَرَقَ الْخَلِيفَةَ وَهُوَ حَيٌّ
يَعِفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مَكْفَنِينَا؟ (١)
خَلِيلِي أَهْبَطَا الْوَادِي وَمِيلَا
إِلَى غُرْفِ الشَّمُوسِ الْغَارِبِينَا
وَسِيرَا فِي مُحَاجَرِهِمْ رُويَدًا
وَطُوفَا بِالْمُضَاجِعِ خَاشِعِينَا
وُخْصَا بِالْعِمَارِ وَبِالتَّحَايَا
رُفَاتِ الْمَجْدِ مِنْ (تُوتَنْخَمِينَا)
وَقَبْرًا كَادَ مِنْ حَسَنِ وَطِيبٍ
يُضِيءُ حَجَارَةً وَيَضُوعُ طِينَا
يُخَالُ لِرُوعَةِ التَّارِيخِ قُدَّتْ
جَنَادِلُهُ الْعَلَا مِنْ (طُورِ سِينَا)
وَكَانَ نَزِيلُهُ بِالْمُلُوكِ يَدْعِي
فَصَارَ يُلقَّبُ الْكَنْزَ الثَّمِينَا
وَقُومَا هَاتِفَيْنِ بِهِ وَلَكِنْ
كَمَا كَانَ الْأَوَائِلُ يَهْتَفُونَا

(١) إشارة إلى أن بريطانيا نقلت الخليفة وحيد الدين من الآستانة إلى المدرعة
البريطانية (مالايا) ، وذهبت به إلى مالطة ، فهل يستغرب أن يسرقوا الجواهر
من قبور الملوك ؟

فشم جلاله قرت ورامت
 على مرّ القرون الأربعينا
 جلالُ الملك أيام وتمضي
 ولا يمضي جلالُ الخالدينا
 وقولا للنزِيل قدوم سعد
 وحيا الله مقدمك اليميننا
 سلامٌ يومَ وارْتكَ المنايا
 بواديهَا، ويومَ ظهرتَ فينا
 خرجت من القبور خروج عيسى
 عليك جلاله في أَلْعَالِينا
 يَجُوبُ البرقُ باسمك كلَّ سهل
 ويخترق البُخَارُ به الحزونا
 وأقسمُ كنتَ في (لوزان) شُغلا
 وكنتَ عجيبةَ المتفاوضينا (١)

(١) لوزان : المدينة السويسرية التي عقد فيها المؤتمر الدولي لاجراء الصلح بين اليونان وتركيا .

أَتَعْلَمُ أَنَّهُمْ صَلَفُوا وَتَاهُوا
وَصَدُوا الْبَابَ عَنَا مُوصِدِينَا؟
وَلَوْ كُنَّا نَجْرُ هُنَاكَ سِيفاً
وَجَدْنَا عَنْدهُمْ عِطْفاً وَلِينَا
سَيَقْضِي (كَرْزَنْ) بِالْأَمْرِ عَنَا
وَحَاجَاتِ (الْكِنَانَةِ) مَا قَضَيْنَا (١)

* * *

تَعَالِ الْيَوْمَ خَبِرْنَا أَكَانَتْ
نَوَاكُ سَنَاتِ نَوْمٍ أَمْ سَنِينَا؟
وَمَاذَا جَبْتَ مِنْ ظِلْمَاتِ لَيْلٍ
بَعِيدِ الصَّبْحِ يُنْضِي الْمُدْلَجِينَا؟
وَهَلْ تَبْقَى النَفُوسُ إِذَا أَقَامَتْ
هِيََاكِلُهَا وَتَبَلَى إِنْ بَلِينَا؟
وَمَا تِلْكَ الْقَبَابُ وَأَيْنَ كَانَتْ
وَكَيْفَ أَضَلَّ حَافِرُهَا الْقُرُونَا؟

(١) كرزون : الوزير البريطاني الذي مثل بريطانيا في مؤتمر (لوزان) الدولي.

ممردة البناء تُخَالُ برجاً
 ببطن الأرض محطوطاً دفيناً (١)
 تَغطى بالآثاث فكان قصراً
 وبالصورِ العِتاق فكان زونا (٢)
 حملتَ العرش فيه فهل تُرجي
 وتأمل دولة في الغابرينا؟
 وهل تَلْقَى المهيمن فوق عرشٍ
 ويلقاه الملا مُترجلينا؟
 وما بالُ الطعام يكادُ يقدى
 كما تركته أيدي الصانعينا؟ (٣)
 ولم تكُ أمسَ تصبرُ عنه يوماً
 فكيف صبرتَ أحقاباً مئينا
 لقد كان الذي حذر الأولي
 وخاف بنو زمانك أن يكونا

(١) ممردة : ملساء — (٢) الزون : المكان الذي تجتمع فيه الاصنام
 (٣) يقدى : يطيب .

يحب المرء نبش أخيه حياً
 وينبشه ولو في الهالكينا
 سُدِلَتْ من الحفائر قبل يوم
 يسلُّ من التراب الهامدينا
 فإن تكُّ عند بعثٍ فيه شكُّ
 فإن وراءه البعثُ اليقيننا
 ولو لم يعصموك لكان خيراً
 كفي بالموت معتصماً حصينا
 يضرُّ أخو الحياة، وليس شيءٌ
 بضائره إذا صحبَ المنونا

* * *

زمانُ الفرد؛ يا (فرعونُ) ولّي
 ودالت دولةُ المتجبرينا
 وأصبحت الرعاةُ بكلِّ أرضٍ
 على حكمِ الرعيةِ نازلينا

رثاء أبيه^(١)

سألوني لِمَ لَمْ أَرثِ أَبِي
ورثاء الأب دين أي دين
أيُّها اللوام ما أظلمكم
أين لي العقل الذي يسعد أين؟
يا أبي ما أنت في ذا أول
كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى
ونعى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وإن طال المدي
أخذ يأخذه بالأصغرين

(١) والده هو المرحوم علي شوقي بك ، وقد نظم شوقي هذه القصيدة
حوالي عام ١٨٩٧ .

وطبيبٌ يتولى عاجزاً
 نافضاً من طِبِّهِ خُفِّي حُنن
 إِنَّ لِلْمَوْتِ يَدًا إِنْ ضَرَبَتْ
 أَوْ شَكَتْ تُصَدِّعُ شَمْلَ الْفِرْقَدَيْنِ
 تَنْفُذُ الْجَوَّ عَلَى عِقْبَانِهِ
 وَتُلَاقِي اللَّيْثَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ
 وَتَحِطُّ الْفَرَّخَ مِنْ أَيْكَتِهِ
 وَتَنَالُ الْبَبْغَا فِي الْمُتَيْنِ
 أَنَا مِنْ مَاتَ وَمِنْ مَاتَ أَنَا
 لَقِيََ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنِ
 نَحْنُ كُنَّا مَهْجَةً فِي بَدَنٍ
 ثُمَّ صَرْنَا مَهْجَةً فِي بَدَنَيْنِ
 ثُمَّ عُدْنَا مَهْجَةً فِي بَدَنٍ
 ثُمَّ نُلْقَى جُثَّةً فِي كَفْنَيْنِ
 ثُمَّ نَحْيَا فِي (عَلِيٍّ) بَعْدَنَا
 وَبِهِ نُبْعَثُ أَوَّلَى الْبَعْثَيْنِ

انظر الكونَ وقل في وصفه
كلُّ هذا أصله من أبوين

فإذا ما قيل ما أصلهما
قل هما الرحمة في مرحمتين

فقدًا الجنة في إيجادنا
ونعمنا منهما في جنتين

وهما العذرُ إذا ما أغضبا
وهما الصفحُ لنا مسترضيين

ليت شعري أيُّ حيٍّ لم يلدن
بالذي دانا به مُبتدئين

وقفَ اللهُ بنا حيثُ هما
وأَمَاتَ الرسلَ إلا الوالدين

ما أبي إلا أخٌ فسارقتُهُ
ودهُ الصدقُ، وودُّ الناسِ مين

طالما قمنا إلى مائدة
كانت الكسرة فيها كسرتين

وشربنا من إناءٍ واحدٍ
وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وتمشنا يدي في يده
مَنْ رآنا قالَ عنا أخوين

نظر الدهرُ إلينا نظرةً
سَوَّ الشَّرَّ فكانتَ نظرتين

يا أبِي والموتُ كأسٌ مرَّةً
لا تذوقُ الذَّمْسُ منها مرتين

كيف كانت ساعة قضيتها
كلُّ شيءٍ قبلها أو بعدُ هين؟

أشربت الموتَ فيها جرعةً
أم شربت الموتَ فيها جرعتين؟

لا تخفْ بعدك حُزناً أو بكاءً
جَمَدَتْ مِنِّي ومِنكَ اليومَ عين

أنتَ قد علمتني تركَ الأَسَى
كل زَيْنٍ منتهاهُ الموتُ شَيْن (١)

ليت شعري هل لنا أن نلتقي
مرة أم ذا افتراقُ الملوين؟ (١)
وإذا متُّ وأودِعتُ الثَّرى
أنلَقِي حفرةً أم حفرتين؟

* * *

(١) الملوين : الليل والنهار .

فوزي الغزي

جرحٌ على جرحٍ حنانك (جلَّق)
حُمِلتِ ما يوهي الجبال ويُزهق (١)
صبراً لباة الشرق كلَّ مصيبةٍ
تَبلى على الصبر الجميل وتخلق
أَنسيتِ نارَ الباطشين وهزةً
عَرَّتِ الزمانَ كأنَّ (روما) تُحرق
رعناءً أرسلها ودس شواظها
في حجرة التاريخ أرعن أحرق
فمشت تحطم باليمين ذخيرةً
وتلصَّ أخرى بالشمال وتسرق
جَنَّتْ فضعضعها وراضَ جماحها
من نشئك الحمس الجنون المطبق

(١) فوزي الغزي هو أحد سِراة الزعماء في الشام وأحد أُلوية الثورة العربية في نهضتها العظمى . توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق ، وألقيت فيها هذه القصيدة العصماء في سنة ١٩٢٠ .

لقي الحديد حميةً أمويةً
لا تكتسي صدءاً ولا هي تطرق
يا واضع الدستور أمسٍ كخُلُقهِ
ما فيه من عوجٍ ولا هو ضيق
نظمٌ من الشورى وحكم راشدٌ
أدبُ الحضارة فيهما والمنطق
لا تخشَ مما ألحقوا بكتابه
يبقى الكتابُ وليس يبقى الملحق
ميتَ الجلال من القوافي زقرة
تجري ومنها عبرةٌ تترقق
ولقد بعثتهما إليك قصيدة
أفأنتَ منتظرٌ كعهديك شيق
أبكي ليالينا القصارَ وصحبةً
أخذت مخيلتها تجيش وتبرق
لا أذكر الدنيا إليك فربما
كره الحديث عن الأجاجِ المغرق

طبعت من أَلْسَمُ الحياةُ طعامها
 وشرابها وهوأوها المتنشق
 والناسُ بين بطيئها وذعافها
 لا يعلمون بأي سُمِّها سُقوا
 أمّا الوليُّ فقد سقاكَ بسمه
 ما ليس يسقيكَ العدوُّ الأزرق
 طلبوك والأجلُ الوشيكُ يحثُّهم
 ولكل نفسٍ مدّةٌ لا تُسبق
 لما أعانَ الموتُ كيدُ حبالهم
 علقتُ وأسبابُ المنيّةِ تعلق
 طرقت مهادك حياةٌ بشرية
 كفرت بما تنتابُ منه وتطرقُ

* * *

يا «فوز» تلك دمشقُ خلف سَواذِها
 ترمي مكانك بالعيون وترمقُ
 ذكرت لياليَ بدرها فتلافتت
 فعساك تطلعُ أو لعلك تُشرق

«بردى» وراء ضفافه مستعبر
والحور محلول الضفائر مطرق
والطير في جنبات «دمر» نوح
يجدُ الهموم خاليهن ويأرق
ويقول كلُّ مُحدثٍ لسميره:
أبذات طوقٍ بعد ذلك يوثق

* * *

عشقت تهاويل الجمال ولم تجد
في العبقريّة ما يحب ويعشق
فمشت كأنّ بنانها يدُ مدمنٍ
وكانّ ظلّ السمّ فيها زنبق
ولو أنّ مقدوراً يردّ لردّها
بحياته الوطن المروع المشفق
أشقى القضاء الأرض بعدك أسرة
لولا القضاء من السماء لما شقوا
قستِ القلوبُ عليهم وتحجّرت
فانظر فؤادك هل يلين ويرفّق

إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِي أَكْنَافِهِمْ
صَفَحُوا فَمَا مِنْهُمْ مَغِيْظٌ مُحْنَقٌ

سَخِرُوا مِنَ الدُّنْيَا كَمَا سَخِرَتْ بِهِمْ
وَأَنْبَتَ مِنْ أَسْبَابِهَا الْمُتَعَلِّقُ

يَا مَائِثَةً مِنْ (عَبْدِ شَمْسٍ) مِثْلِهِ
لِلشَّمْسِ يُصْنَعُ فِي الْمَمَاتِ وَيُنْسَقُ

إِنْ ضَاقَ ظَهْرُ الْأَرْضِ عَنْكَ فَبِطْنُهَا
عَمَّا وَرَاءَكَ مِنْ رُفَاتٍ أَضْيَقُ

لَمَّا جَمَعْتَ الشَّامَ مِنْ أَطْرَافِهِ
وَافِيٍّ يَعْزِي الشَّامَ فِيكَ الْمَشْرِقُ

يَبْكِي لَوَاءً مِنْ شَبَابٍ أُمِّيَّةٍ
يَحْمِي حِمَى الْحَقِّ الْمُبِينِ وَيَخْفِقُ

لَمَسْتَ نَوَاصِيهَا الْحَصُونِ تَرُومُهُ
وَتَلَمَّسْتَهُ فَلَمْ تَجِدْهُ الْفَيْلَقُ

رَكْنُ الزَّعَامَةِ حِينَ تَطْلُبُ رَأْيَهُ
فِيرَى، وَتَسْأَلُهُ الْخَطَابُ فَيَنْطِقُ

ويكادُ من سحر البلاغة تحته
 عود المنابر يستخفُّ فيورق
 «فَيْحَاءُ» أين على جَنَازِكَ وردةٌ
 كانت بها الدنيا ترفُّ وتعبقُ؟
 علوية تجد المسامع طيها
 وتجسُّ رِيَّاهَا العقولُ وتنشق
 وأرائكُ الزهر الغصون وعرشها
 يدُ أمة وجبينها والمفرق
 مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي شُبُولَةَ جِلْدٍ
 قولاً يَبْرُّ على الزمان ويصدق
 بالله جل جلاله ، بمحمد
 بيسوع ، بالغزِّيِّ لا تتفرَّقوا
 قد تفسد المرعي على أخواتها
 شاةٌ تند من القطيع وتمرق

خليل مطران

لُبْنَانُ مَجْدُكَ فِي الْمَشَارِقِ أَوَّلُ
وَالْأَرْضُ رَابِيَةٌ ، وَأَنْتَ سَنَامُ (١)
وَبَنُوكَ الْطَفُّ مِنْ نَسِيمِكَ ظِلُّهُمْ
وَأَشْمُ مِنْ هَضْبَاتِكَ الْأَحْلَامُ
أَخْرَجْتَهُمْ لِلْعَالَمِينَ جَحَاجِحًا
عُرْبًا ، وَأَبْنَاءَ الْكَرِيمِ كِرَامُ
بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ أَفْقٍ زَاهِرٍ
طَلَعَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ
هَذَا أَدِيبُكَ يَحْتَفِي بِوَسَامِهِ
وَبَيَانِهِ لِلْمَشْرِقَيْنِ وَسَامُ
وَيُجَلُّ قَدْرُ قِلَادَةٍ فِي صَدْرِهِ
وَلَهُ الْقِلَائِدُ سِمَاطُهَا الْإِلَهَامُ

(١) قيلت في حفلة تكريم خليل مطران بدار الجامعة المصرية في ١٨ حزيران

(يوليو) ١٩١٣ ٥

صدرٌ حوَالِيهِ الْجَلَالُ وَمِلْؤُهُ
 كَرَمٌ وَخَشْيَةٌ مُؤْمِنٌ وَذِمَامٌ
 جَلَاءُهُ إِحْسَانُ الْخَدِيوِ وَطَالِمَا
 حَالَهُ فَضْلُ اللَّهِ وَالْإِنْعَامُ
 لِعِلَالِكَ يَا مُطْرَانُ أَمَ لِهِنَاكَ أَمَ
 لَخَلَالِكَ التَّشْرِيفُ وَالْإِكْرَامُ
 أَمَ لِلْمَوَاقِفِ لَمْ يَقِفْهَا ضَيْغَمٌ
 لَوْلَاكَ لَا ضَطْرِبَتْ لَهُ «الْأَهْرَامُ»
 هَذَا مُقَامُ الْقَوْلِ فِيكَ وَلَمْ يَزَلْ
 لَكَ فِي الضَّمَائِرِ مَحْفِلٌ وَمَقَامٌ
 غَالِي بِقِيَمَتِكَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ
 وَسَعَى إِلَيْكَ يَحْفَهِهِ الْإِعْظَامُ
 فِي مَجْمَعِ هَزِّ الْبَيَانِ لَوَاءَهُ
 بِكَ فِيهِ وَاعْتَزَّتْ بِكَ الْأَقْلَامُ
 ابْنُ الْمُلُوكِ تَلَا الثَّنَاءَ مَخْلُداً
 هَيْهَاتَ يَذْهَبُ لِلْمُلُوكِ كَلَامُ

فَمَنْ أَلْبَشِيرُ لِبَعْلَبِكَ وَبَيْنَهَا
نَسَبٌ تُضِيءُ بَنُورَهُ الْأَيَّامُ
يَبْلَى الْمَكِينُ الْفَخْمُ مِنْ آثَارِهَا
يَوْمًا وَآثَارُ الْخَلِيلِ قِيَامُ

* * *

المرأة

«خرافة هندية»

في غايَةِ اللطافةُ
وترجموها قبلنما
لأن فيها حكمتهُ؟

أروى لَكُمْ خُرَافَةً
أُتَتْ من الهندِ لَنَا
إلى لغاتٍ جمّةُ

*

أَلتَّهَهُ الجنودُ
هذا الوجود والورى
فيما رأى اليونانُ
عَبَّادَهُ العبادُ
كما يصوغ الخاتما
ولم يدعْ ، ولم يذرْ
حتى أتمَّ الرَّجُلَا
في الخلقِ والإنشاء
ومنهُ أُنْثَى يصنَعُ
حتى بدا الصَّوابُ له
مُخْتَلَفًا تلوينا .

«توشترى» معبودُ
قالوا : هو الذي برى
ومثله « فولكان »
كلاهُمَا حدَّادُ
فحين صاغ العالمَا
أنفق ما كان أدَّخِرُ
وكلَّ شيءٍ بَدَلَا
وضاق بالنِّسَاءِ
فحارَ ماذا يجمعُ
وبعد فكرٍ أعمله
كوْنها تكوينا

من استدارة القَمَرِ ،
إلى تراوح الشَّعْبِ ،
فلحظات الرِّيمِ ،
فبهجةِ الشُّعاعِ ،
فزهرة الطاووسِ
ومن دموعِ السُّحْبِ
إلى التواءِ الأرقمِ
فالحَرِّ من وقودِ ،
فالشهد في المذاقِ ،
فَنَنَمِ الهديرِ ،
وكلَّ هذا هيَّاهُ
وبعد ما أتمَّها
وقال : خذها يا رجل

إلى لطافة الزَّهَرِ ،
إلى رشاقة القصبِ ،
فقلقِ النسيمِ
فقسوةِ السِّباعِ ،
تأخذ بالنفوسِ ،
إلى انكماشِ الأرنبِ
فالزغبِ المُتَّسِمِ ،
فالبرد من جليدِ ،
فخفَّةِ الأوراقِ ،
فَهَذِرِ العصفورِ
مكروناً منه امرأهُ
لعبدهِ قدَّمها ،
وعن هَواها لا تَحُلْ !

فبعد أسبوع مضى
يقول : يا اللَّهُمَّ
لا صبر لي معها ، ولا
تظلُّ تشكو الداء
محتملةً على الغضبِ ،
قد ضيّعتُ أوقاتي ،
فأخذ الإلهُ

أتى له معترضا
خذها ، كفاني همًّا ،
أرى بها لي قبلا
وتخلق الشحناء ،
شاكيةً ولا سببَ ،
وأذهبتُ لذاتي ،
ما كان قد أعطاهُ !

فلم يكنْ بعضُ زمنْ
حتى تولاه الحزنْ ،

فقال : ربَّ رُدَّهَا
بانتُ فلا أنساها
ماثلةٌ أمامي ،
لطيفةٌ في لعبها

فما نَعُمْتُ بعدها
كأنتي أراها
مائلةٌ أيَّامي ،
خفيفةٌ في وثبها !

قال الإله : يا رجل
ماذا الذي تُريدُ ،
فأخذُ الرفيقَه ،
لا عيش لي معها ، ولا

حيّرت مولاك ، فقلْ
أحفظُ أم أعيدُ ؟
وقال ذي الحقيقَه
بدونها العيشُ حلا !!

* * *

الفهرس

| | |
|---------|--|
| أولاً : | الدراسة : |
| الصفحة | العنوان |
| ٥ | المقدمة |
| ٩ | حياة شوقي (نسب شوقي - أول عهد شوقي بالقصر - شاعر الحديوي - شوقي في فرنسا - شوقي بين الحديوي توفيق والحديوي عباس - بين شوقي والمتنبي - حياة شوقي الخاصة) . |
| ٣٥ | أحمد شوقي في المنفى : (تمهيد تاريخي - خلع عباس عن عرش مصر ، نفي شوقي - تأثير شوقي بالبحري - تأثير شوقي بابن زيدون - أسواق الذهب) . |
| ٥٠ | شوقي وامارة الشعر : وداع الأندلس - لقاء الوطن - إمارة الشعر - كلمة حول « الامارة » . |
| ٧٩ | شاعرية شوقي : خلق شوقي شاعراً لا تأثراً - مقارنات شوقي والشعر الملحمي) . |
| ٨٧ | ثقافة شوقي : شوقي وشكسبير - طه حسين وثقافة شوقي - شوقي وأرسطو) |

شوقي بين التقليد والتجديد : تأثر شوقي بالأدب العربي والآداب الأجنبية — من مقدمة الشوقيات — تجديد فأذكفاء — موقف العقاد من شوقي — موقف نعيمه من شوقي — شوقي ووصف المخترعات الحديثة — موقف اليازجي من شوقي — شوقي والمسرحية الشعرية العربية — موقف الدكتور محمد مندور — رأى صالح جودت — الخرافات والامثال — معارضات شوقي — أزجال شوقي

أحمد شوقي ومعارك الصحافة : شوقي وعبد الوهاب — مفهوم النقد عند شوقي — معركتان — رد شوقي على نقاده — معركة تكريم شوقي — رأى المازني في شوقي موقف أنصار شوقي — هيكمل في المعركة — وهجوم على هيكمل — وطه حسين أيضاً — تبدل آراء النقاد بعد وفاة شوقي .

شوقي شاعر الوطنية والفضائل الانسانية : (السياسة والشعر — ذكرى دانشواي — ولاء شوقي لمصر — ولا . شوقي للعروبة — شاعر الحكمة — شاعر يرثي شاعراً

مراجع الدراسة .

شوقي يؤرخ لنفسه :

* * *

ثانياً : مختارات من أدب شوقي :

نماذج من نثر شوقي :

من أسواق الذهب

| الصفحة | العنوان | المطلع |
|--------|---|--------|
| ٢٠٣ | من رسائل شوقي | |
| ٢٠٩ | نماذج من شعر شوقي : | |
| ٢١٠ | نهج البردة (ريم على القاع بين البان والعلم) | |
| ٢٣٣ | أبو الهول (أبا الهول ، طالت عليك العصر) | |
| ٢٤٤ | ولد الهدى (ولد الهدى فالكائنات ضياء) | |
| ٢٦٠ | شهيد الحق (إلام الخلف بكمُ إلاما) | |
| ٢٦٧ | بعد المنفى (أنادي الرسم لو ملك الجوابا) | |
| ٢٧٥ | العلم والتعليم (قم للمعلم وفه التبجيلا) | |
| ٢٨٤ | أيها النيل (من أي عهد في القرى تتدفقُ) | |
| ٣٠٣ | ضجيج الحجيج (ضج الحجاز وضج البيتُ والحرامُ) | |
| ٣٠٨ | الرحلة إلى الاندلس (اختلاف النهار والليل يُنسى) | |
| ٣٢١ | نكبة دمشق (سلام من صبا بردى ارقُ) | |
| ٣٢٨ | الحرية الحمراء (في مهرجان الحق أو يوم الدم) | |
| ٣٣٢ | يا نائح الطلح (يا نائح الطلح أشباه عوادينا) | |
| ٣٤٣ | رومة (قف بروما وشاهد الأمر واشهب) | |
| ٣٤٧ | على قبر نابوليون (قف على كنز بباريس دفين) - | |
| ٣٥٨ | أنس الوجود (أيها المنتحي بأسوان داراً) | |
| ٣٦٤ | قم ناجِ جَلِّقِ (قم ناجِ جَلِّقِ وانشد رسم مى بانوا) | |
| ٣٧٠ | رمضان ولى (رمضان ولى هاتها يا ساقى) | |
| ٣٧٥ | وصف لرقص (طال عليها القدم) | |
| ٣٨٠ | كبار الحوادث في وادي النيل (هممت القللك واحتواها الماء) | |
| ٤١٢ | ذكرى المولد (سلوا قلبي غداة سلا وثابا) | |
| ٤٢٢ | للثعلب والديك (برز الثعلب يوماً) | |

| الصفحة | العنوان | المطلع |
|--------|---|--------|
| ٤٢٣ | سليمان والهدهد (وقف الهدد يوماً) | |
| ٤٢٤ | ملك الغربان (كان للغربان في العصر ملك) | |
| ٤٢٦ | الأسد ووزيره الحمار (الليث ملك القفار) | |
| ٤٢٨ | نكبة بيروت (يارب أمرك في الممالك نافذ) | |
| ٤٣١ | وداع اللورد كرومر (أيامكم أم عهد اسماعيل) | |
| ٤٣٧ | خاتمة رياض (كبير السابقين من الكرام) | |
| ٤٤٢ | علموه (علموه كيف يجفوا فجفاً) | |
| ٤٤٣ | خدعوها (خدعوها بقولهم حسناء) | |
| ٤٤٤ | سويجع النيل (سويجع النيل رفقا بالسويدات) | |
| ٤٤٦ | مضناك (مضناك جفاه مرقده) | |
| ٤٤٨ | توت عنخ آمون (قفي يا أخت يوشع خبرينا) | |
| ٤٥٩ | رثاء أبيه (سألوني لم لم أرث أبي) | |
| ٤٦٤ | فوزي الغزي (جرح على جرح حنانك جلتق) | |
| ٤٧٠ | خليل مطران | |
| ٤٧٣ | خرافة | |
| ٤٧٦ | النهرس | |